

تسع سنوات في سجون سورية هبة الدباغ

تقديم

زينب الغزالي الجبيلي

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصر مهطعين مقنعي رعوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل - أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ج وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكرؤا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سراييلهم من قطران و تغطى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلغ للناس ولينذروا به ليعلموا أنما هو إله واحد و ليذكر أولوا الألباب)

وبعد . . فهذه سطور من كتاب الحياة المعاصرة ، عاشتها صاحبتة ورفيقات سجنها ألما وعذابا ، ومرارة وأهوالا يشيب لها الولدان . . إنها سطور كتبت بالدموع والدماء ، والسياط والقهر والعذاب ، تحكي قصة الظلم الطغيان فوق أرضنا وفي أوطاننا المسلوبة الإرادة ، والتي عشعش فيها الظلم زمنا طويلا حتى باض وأفرخ وصار ظلمات فوق ظلمات !

3

ماذا يريد الظالمون ؟ هل يريدون ملكا يتيهون فيه ويسرحون ويمرحون دون رقيب أو حسيب ؟ فإذا كان لهم ذلك هل يبقى ويخلد أم يزول ويهلك وينتقل إلى غيرهم ، فلو دام لأحد لما وصل إليهم . . أم يريدون مالا ينفقون منه على شهواتهم وملذاتهم ، فهل أسعدهم المال حقا ، وهل شفاهم من أمراض نفوسهم وجعل الطمأنينة في قلوبهم ؟ أم يريدون أن يتخلى أصحاب المبادئ عن مبادئهم ، وأصحاب العقائد عن عقائدهم ، فهل تحقق لهم ذلك ؟ أم أن أهل الإيمان ازدادوا تمسكا وصلابة ، وعزيمة ومضاء ، وهم يعلمون أنه في سبيل الله ترخص الأرواح والأنفسى والدماء (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) . إن الله حرم الظلم على نفسه ، وجعله بين عباده محرما ، فما أقساه وما أشد مرارته ، خصوصا عندما يتسمى الظالم بأسمائنا ، ويأكل من أرضنا ، ويشرب من مياهنا ! ثم يكون أشد قسوة من أعدى الأعداء ! لقد قاسيت وعانيت وعشت مرارة السجن والتعذيب في سجون الطاغية عبد الناصر ، وهذا الكتاب هو صورة متكررة وقعت في سجون طاغية اخر ، وما أكثر الطغاة في هذا العصر . . لكن الله يمهل ولا يهمل . . ولا أريد المزيد ، فوقائع هذا الكتاب أبلغ من أي استزادة ، والله غالب على أمره . .

زينب الغزالي

مقدمه

(وتلكم الايام نداولها بين الناس)

حياتنا حلقة ألوان متفاوتة . . تطيع أيام الإنسان بالبياض المشرق تارة . . وتصيغها بقتامة الظلام تارة أخرى . . وأنا أشرفت حياتي أبهى من الورد النضر ، وتنسمت أيام طفولتي حنان

الأبوين المحيين ودفء الأسرة الرضية فأورقت بالبر والرضا ، وأزهرت بالسعادة والحبور . . وعشت في هذا الروض أثيرة أبي وسر أمي ، وأميرة إخوتي السبعة وأخواتي الأربعة ونجيتهم . . فما كانت أحلامي الوردية تغفو إلا على وسادة الأمل . . ولم تكن تصحو إلا على راحات الرضا والأنس . لم أنتم إلى أي حزب من الأحزاب في يوم من الأيام . . وعلى الرغم من نشأتي الدينية وتعلقي بدروس الفقه والتجويد وحرصني على حفظ كتاب الله . . ورغم انتسابي إلى كلية الشريعة فيما بعد ، إلا أن ذلك لم يكن مبررا لتصنيفي ضمن أي تنظيم أو حزب . . ولم يكن عدم انتظامي أو تحزبي سببا في الوقت نفسه لأعمى عن ممارسات النظام السوري الظالم وأعماله التعسفية ضد أبناء الشعب من كل الإتجاهات والطبقات والإتماءات . . وما أكد لي ذلك شئى قدر مشاهدتي ومعايشتي لأصحاب الإتجاهات السياسية المختلفة وأصحاب اللا إتجاه من المواطنين والمواطنات الذين كانوا مثلي ضيوفا بالإكراه على زنازين النظام وسجونه . . لم يستثن من ذلك حتى أبناء طائفة النظام نفسه

5

عشت على هذه الصورة كألوف من بنات وطني حتى أقبلت مسيرة حياتي على المرحلة الجامعية فكانت لوعة مفارقتي أهلي ومفارقتهم لي أول غصة . . ولم تنفصل صورتني وبنأى جسدي عنهم إلا بقوة قوي . . لكن هذا البون المؤقت والفراق المقرر أتبعه غياب قسري وفراق قاهر قذف بي في أعماق الظلام وسجن الظلام . . ومضى بأكثرهم فانتزعهم من دنيا الشقاء إلى مستقر رحمة الرؤوف الرحيم . . وشط بالبقية في أصقاع الأرض وصقيع الإغتراب . . فتكدرت الصورة . . وأظلمت الدنيا . . وذوت زهور الأمل من قبل أن تعقد الثمار . . وأنا في غيابة السجون رهينة عن أخي "الناشط سياسيا "

. تنسلخ سنوات العمر مني وتتفطر جوارحي وتشيع روعي لأجل وشاية كاذبة فندتها تحقيقات الظلام أنفسهم ، لكنهم اثروا أن يتجاوزوا الحقيقة ولا يدعوا جهود مخبريهم الأجراء وجليه سياراتهم التي شقت هدوء الليل لتقبض علي تذهب سدى ! فليث أتقل بين زنازة ومهجع وسجن واخر تسع سنوات عجاف . . أقفلت فيهن كل أبواب الرحمة لدى البشر . . وماتت على أعتابهن اخر امال أملتها ورجاءات بأحد من بني الإنسان علقته . . وظل الرجاء بالله وحده حيا بقلبي لا تنطفئ شعلته وإن خبت . . ولا تحده حدود وان حجبته الألام برهة من زمن . . وكانت مناجاتي لربي منجاي وملاذي إذا غفا الخلق وسكنت السياط . . أدعوه سبحانه بقلبي ولبى :

اللهم يا من إذا أظلم ليل اليأس في القلوب أنار بنور جلاله ظلام الحزن وأزاله من غير ضر . . يا من إذا ما اشتد الكرب فرجه عن المكروبين . . يا من إذا ما سدت طرق النجاة أرسل سفنه لإنقاذ الغرقى من حيث لا يحتسبون . . يا رب يا من به الأمان . . وفي رحابه الطمأنينة والإستقرار . . وفي ظله السلام .

اللهم إذا ابتلينا فأعنا على الصبر . . وإذا أردت فاجعل إرادتنا رهن مشيئتك . . وإذا قضيت فهبىء قلوبنا لتقبل قضائك .

6

اللهم أعنا على الحمد والشكر في السراء والضراء . . ففي الصبر تربية نفوسنا ، وفي الشكر اعتراف بنعمتك علينا وانسلاخ من الأنانية والكبر . . وفي كل خير . . فجد علينا بطيب الأخلاق وسلامة الصدور إنك على كل شئى قدير

ومن المنان علي بنعم لا تعد ولا تحصى . . فثبتني وحفظني . . وأرسل لي من بين العصاة من خفف بلواي ونفس كربى . . وأكرمني بشريكة السجن وشقيقة الروح "ماجدة" . . فكانت أشد مني صبرا واطمئنانا وأبلغ في التضحية والعطاء . . ورحمنا كلانا بأخوات بارات محسنات . . لا ننسى فضلهن ولهفتهن وعونهن . . وقد كن معنا شريكات الهم والقيد والمعاناة . . أشكرهن هنا وأسأل الله لي ولهن المغفرة والمثوبة . . وأسألهمن المسامحة والعفو إن كنت ذكرت بين طيات الكتاب ما قد ينكأ جراح نفوسهن أو يكدر عليهن . . لكنني أرى واجب الحديث عن مظالم النظام وانتهاكات الحقوق ألخ وأجل . . وضرورة توثيق هذه المرحلة أمانة ملزمة . . يهون أن نبذل في سبيلها بعض العنت والتكدر حتى لا يضيع الكثير الذي بذلناه والكرب الجلل والعذاب الشنيع الذي نلناه . . لقد عشت في جحيم سجون النظام السوري تسع سنوات رهينة بلا ذنب . . لا أقدر أن أصف كيف تكون السنوات التسع من العمر حبيسة قمقم ملعون . . وبكل القلم عن أن يسجل حقيقة كل ما جرى . . لكنني وقد عشت التجربة على أي حال وأنجاني الله في الختام أستطيع القول بأن الأيام سوداء أو بيضاء . . هنية أو عصية . . مقبلة أو مدبرة . . هي كلها مقادير مقدره وأجل مسطور . . فبينما كان الظلمة يظنون أنهم ملكوا بجبروتهم البلاد والعباد كان قدر الله أغلب وأبقى . . وبينما هم اليوم يسومون الناس سوء العذاب فإنهم في الغد وإيانا على العرض بين يدي الحكم العدل مقبلون . . وإذا كان قد ساءني سجنى والمني أن أفقد تسع سنوات في غيابة الزنازين بلا ذنب . . فإنني وأنا أعيش نعم الله اليوم أحس أن الكريم قد مسح برحمته جرح القلب ، وأبدل هلع النفس

7

طمأنينة ، وحرمان الأيام السوداء نورا وعطاء وفضلا . . أحس ذلك وألمسه في زوجي الحبيب الذي كان على العهد يزرع الأمل في نفوس المحرومين نورا وأملا أشرق في نفسي فعوضني عن كثير مما فقدت وحرمت . . وأراه في ابنتنا الأنسة "وفاء" التي أفاءت على حياتنا بالسعادة والحبور . . وفي ولدي الاخرين "جا بر" و"سارة" الذين تركتهما أمهما "حنان" أمانة لنا وقد حملت من قبل أمانة الجهاد وشرف الدعوة فكانت خير أسوة في الدين والدنيا معا . . وأحس من قبل ومن بعد أن النهاية لم تحن بعد . . وفصل الحساب لم يزل مقبلا . . والظلمة المتجبرون اليوم هم بين يدي الله في الغد موقوفون . . ومن كرب العالمين نصير ومجير . . ومن مثله جل وعلا وكيل بالظالمين ؟ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . . ذلك هو العزاء . . وبالله وحده الرجاء . . عليه توكلت واليه أنبت . . والحمد لله رب العالمين .

هبة الدباغ

ابريل 1995

الفصل الاول

خمس دقائق وحسب

ديسمبر 1980 - ديسمبر 1989

كانت ليلة الاربعاء الحادي والثلاثين من ديسمبر عام 1985 ليلة بالغة البرودة في دمشق . . وفيما هجع أكثر أهل البيت وغبن في عالم الأحلام ، كنت وقد دنا منتصف الليل لا أزال أطارد السطور المتراقصة على كتاب الفقه وأجهد في استيعاب المعلومات استعدادا لامتحان اخر السنة صباح الغد . . والنعاس والبرد واغراءات الفراش الوثير تطاردني بدورها وتشتت قدرتي على التركيز بين الحين والحين . . لكن هواجس أشد كانت تصرفني عن ذلك كله ، ومخاوف تنبعث من أعماقي بلا وضوح تجذبني هنا وهناك . . وتدفعني لاسترجاع صور الأيام الماضية وسجل ذكرياتي بشيء من القلق والرهبة والتوتر . . كانت أموري في كلية

الشريعة طوال العام على ما يرام . . أو لعلها كانت كذلك حتى أنهيت الفصل الأول وعدت إلى حماة مدينتي أزور أسرتي وأقضي فترة العطلة بين الأهل والأحباب . . فخلال ذلك فاجأتني والدتي بطلب من أخي صفوان يلح علي وعليها أن أترك الدراسة وحتى البلد وأذهب إلى عمان عاصمة الأردن حيث يقيم منذ شهور هربا من ملاحقة الحكومة له بتهمة الإنتساب إلى تنظيم الإخوان المسلمين ونقلت أمي رحمها الله عن صفوان عندما التقته بنفسها هناك في عمان مخاوف تتناهى من أن يقوم رجال الأمن باعتقالي نيابة أو رهينة عنه . . لكنني لم أجد في نفسي مبررا لإجابته ، ولا عهدت في حياتي احتمالات كتلك ، فاعتذرت لأمي . . وأكملت إجازتي كالمعتاد . . وعدت إلى دمشق ثانية مع ابتداء الفصل الثاني . . لأستأجر مع عدد من البنات نفس الشقة التي اخترناها في الفصل الأول في حي البرامكة . . وأستأنف دوام الجامعة من جديد ، وكدت أنسى الأمر كله لولا أن التوتر الأمني بدأ يتصاعد من حولنا ، ومظاهر المسلحين وحوازر التفتيش التي اعتدنا مشاهدتها خلال الشهور الماضية في حماة بدأت تظهر في العاصمة دمشق ، لتمتد إلى محيط الحرم الجامعي نفسه . . ويفاجؤنا عناصر الأمن على باب الكلية يطلبون البطاقات ويدققون في الأسماء . . وتنتشر الهمسات وتسري الإشاعات عن اعتقال فلان وقتل آخر واشتباك وعراك . . وما لبث الأمر أن زاد إلى العلانية . . وصار سماع رشقات الرصاص وانفجارات القنابل أمرا شبه يومي في دمشق . . وبلاغات الإذاعة وواجهات الصحف الرسمية ما عادت تكف عن أحاديث القبض على " المجرمين " ومداهمة " أوكارهم " وملاحقة عناصرهم هنا وهناك . . وفي زحمة ذلك كله . . وقد امتد التوتر إلى كل نخس وسرى الرعب في كل قلب . . بدأت أحس حركة غير طبيعية بالقرب مني أنا !

الله بيعين !

كنت على سبيل المثال قبل يومين قد اصطحبت صديقتي المقربة وزميلتي في الكلية ماجدة ل . إلى سوق الحميدية لنشتري هدية لملازمة لعمتي المريضة ، فشعرت وكأن ثمة من يتبعنا من محل إلى محل ومن شارع إلى آخر . . فلما ركبنا الباص إلى " الخيم " حيث تسكن عمتي تأكدت أن الشخص نفسه قد ركب وراءنا فتملكني الخوف جدا . . وهمست وأنا لا أكاد أقدر على تحريك شفتي بمخاوفي لماجدة . . فتبسمت وقالت : أنت موهومة وحسب ! وصباح هذا اليوم . . وعندما كنت أدخل الكلية كالعادة استوقفني عناصر الأمن فأخذوا بطاقة هويتي ودققوا فيها كما يفعلون كل يوم ثم أعادوها . . لكنني ولما انتهت المحاضرات وقفلت راجعة إلى البيت مع ماجدة شعرت ثانية وكأن أحدا ما يلحق بنا . . فلما أخبرتها بما أحس عادت فأكدت لي أنني موهومة . . وأن الأمور كلها طبيعية من حولنا ولا داعي للقلق . لكن القلق ها هو لا يزال يملكني . . وسكون الليل البارد كأنما يزيد فيه ويؤججه . . ولم يطل الأمر بي أكثر من ذلك بعد ذلك . . فخبطة أبواب السيارات المفاجيء في الشارع أسفل منا . . والجلبة التي تميز وصول رجال المخابرات مكانا ما ، كانت كافية لتطرد كل وهم عن ذهني ، وتدفعني وقد حسبت أن مداهمة جديدة أو اعتقالا لأحد المطلوبين سوف يشهده الحي الذي نحن فيه . . تدفعني لأهرع إلى النافذة أشع الخبر وأستجلي الحقيقة ، لكنني لم أكد أبلغها حتى بلغ مسمعي طرق على باب بيتنا أشد ما يكون . . وبينما كنت ألقى نظرة خاطفة من النافذة فألح عددنا أصعب من أن أحصيه ساعتها من سيارات المخابرات تملأ الشارع . . أتاني الصوت على باب البيت يصيح : إذا لم تفتحوا فسنكسر القفل بالرصاص ! وبحركة آلية تناولت غطاء صلاتي فوضعت على رأسي وركضت باتجاه الباب بادئ الأمر . . لكنني لم أعرف ما أفعل ! أفتح لهم والبنات كلهن نائمات ؟ أصابني الإضطراب بالحيرة . . ثم وجدتي أهرع إلى فاطمة أكبرنا سنا وهي معلمة تشاظرنا السكن ، فأيقظتها أولا وأنا أقول لها بلا وعي : -ها . . كأن المخابرات أتوا عليك ! ثم لمح في خيالي أن شريكة أخرى في البيت معنا اسمها سوسن س . (خريجة كلية طب الأسنان

وتكمل سنتها التدريبية في دمشق) قد نفذوا حكم الإعدام بأخيها صباح اليوم في سجن تدمر كما بلغها وأبلغتنا ، فظننت أنهم إنما أتوا من أجلها . . . خلال ذلك كان رجال المخابرات قد بدأوا بخلع الباب والضرب عليه بالبواريذ ، فأسرعت فاطمة إلى حجابها فوضعتة على رأسها وفتحت لهم . . . ودخلوا يا لطيف ! شيء غير معقول ! قفزوا واحد منهم إلى السقيفة فوراً يفتشها . . . واندفع آخر إلى الشباك . . . وثالث في المطبخ . . . ورابع . . . وعاشر . . . ولم نجد إلا أحدهم يقتحم الغرفة علينا ، وما أن رأى مصحفاً معلقاً على الجدار حتى انتزعه ورماه على الأرض وصار يدوسه بقدميه كالمهووس . . . فيما راح آخرون ينيشون أمتعتنا وينقبون كل زاوية في خزائننا ونحن لا نكاد نستوعب لماذا أو ما الذي كانوا عنه يبحثون ! وفي غمرة المفاجأة سمعت واحداً منهم يصيح من الصالة : -وهيبة دباغ . فتقدمت وكأني ألج كابوساً مرعباً بالرغم عني وقلت له : ما عندنا هذا الإسم 13.

لكن قلبي انقطع من الرعب ، وتأكدت ساعتها أنهم أتوا علي . . . فقال لهم رئيس المجموعة : -أرجعوا كل واحدة إلى غرفتها وفتشوا الهويات . فامتلنا للطلب . . . ودخلنا غرفنا ونحن نرتعد . . . وتقدم عنصر مني وكأنه عسكري في الخدمة - ليفحص هويتي ، فلما نظر إلى اسمي فيها ثم إلى وجهي اغرورقت عيناه بالدموع ، وقال بتأثر وهو يبكي : -أنت بنت بلدي . . . والله يعين . سألته : لماذا؟ هل هناك شيء ! أجاب : الله يبصر . . . ماذا يمكن أن تفعلني ؟ الله يبعينك . سألته وكأني أهوي في بئر مظلم : لماذا ؟ هل أتوا من أجلي ؟ قال وهو يشيح بناظره عني : نعم . . . وذهب وأعطى الهوية لرئيس الدورية الذي كان ينادي "وهيبة دباغ" . . . فنظر هذا إلي بحنق وقال : - بتقولي بكل عين وقحة أنه لا يوجد لديكم هذا الإسم ! والتفت إلى عنصر آخر وقال له : - خذها إلى غرفة لوحدها وفتشها جيداً قهوه . . . أم شاي !

أخذني العنصر إلى غرفة ثانية وأخذ واحدة أخرى من البنات وقال لها : فتشها . . . قلت له : ماذا يمكن أن تجد معي ؟ لقد فتشوا البيت كله وفتشونا منذ أن دخلوا . . . لكن صوت رئيس الدورية كان يغطي على صوتي المرتجف وهو يتحدث باللاسلكي مع شخص آخر سمعته يقول له : أحضروها . فقال لي : هيا ارتدي ملابسك . . . ستذهبي معنا خمس دقائق وحسب 14

لبست جلبابي فوق غطاء صلاتي ، وكانت معي بعض النقود فأردت أن أعطيها لصديقاتي ، فقال لي : لا . . . دعهم معلقاً ربما تحتاجينهم . قلت وقد بدأت أستعيد بعض توازني : لن يلزموا لي ، أنت تقول خمس دقائق فكيف سأحتاجهم ؟ لكنه عاد وأكد أنني سأحتاجهم ، فلم أكرث بما قال ، ودفعت النقود لإحدى البنات بقربي ، فيما وجدتهم يدفعونني إلى الخارج ورئيس الدورية يقول لأحد العناصر : -أمسكها من يدها . كان الدرج معتما والكهرباء مقطوعة فما رضيت أن أمسك لي يدي . قال : هذا أمر . قلت له : كلبشني ولا تمسك يدي . فتركني أنزل حتى باب البناية ليعود فيدفعني نحو باب سيارة كأنما هي غول فتح فاه ينتظر افتراسي ! وسمعت أحداً يسأل باللاسلكي من جديد : -من معها في الغرفة ؟ أجاب : فلانة وفلانة . قال : أحضروهم معها . فصعد ثانية وأحضر شريكتي في الغرفة ماجدة وملاك غ . ولم تلبث السيارة أن تحركت وسط جمع من رجال المخابرات انتشروا على طول الشارع ، وأطلت سياراتهم المرعبة من كل زاوية ومفرق طريق . . . وفي غمضة عين وجدنا أنفسنا قرب ملعب تشيرين بالعباسية في فرع المنطقة المسمى "السادات" . . . وهناك أدخلونا إلى غرفة مملوءة بأجهزة كهربائية فيها أضواء كثيرة حمر وخضر تشتعل وتنطفئ باستمرار كأنها أجهزة اتصالات أو لاسلكي . . . وما أن جلسنا حتى سالنا أحد العناصر الموجودين فيها : -ماذا تشربون . . . قهوة أم شاي ؟ 15

ولما لم نيس من خوفنا بينت شفة تطوع بالإجابة عنا وقال : - ساتي لكم بقهوة مرة لتصحوا رأسكم . . . وذهب فأحضر فنجاناً لكل منا وجلس يراقبنا ، فلما لاحظ أننا لا ندينها من

أفواهنا سأل : - لماذا لا تشربين ؟ هيا صحي رأسك . . الساعة الآن الثانية وأنت نعسانة بالتأكيد . قلت وشفتي ترتجفان : أنا أشرب . قال : لا . . أنا شايفك . قلت له : وهل تراقبني ؟ لا أشتهيها الآن . قال بسخرية : لازم تشربي ليصحي رأسك وتعرفي تحكي جيدا . كفت عن الكلام . . وأدريت الفنجان من فمي وتظاهرت بالشرب . . وكنت أعود فأدنيه ثم أعيده وجسمي كله يرتجف . . وأنا لا أدري ما الذي يمكن أن يحدث في اللحظات التالية ! إلى التحقيق !

لم يطل المقام بي في الغرفة الأولى كثيرا فماهي إلا دقائق حتى سمعت مناديا يهتف باسمي ، وسرعان ما اقتادني عنصر اخر إلى مكتب رئيس الفرع نفسه ، وهو كما علمت بعدها ابن أخت رئيس الدولة واسمه معين ناصيف . دخلت هناك فوجدت رجلا عيناه جاحظتان وحمراوان كالدم ، يرتدي "جلاية" شفافة ورقيقة ويلف رجلا على رجل فتتكشف ساقاه من تحتها بشكل مقزز . اجلسي هنا . قالها لي بلهجة بادية الخشونة وأضاف قبل أن أبلغ الكرسي الذي يتوسط الغرفة فيكشفني من كل جانب : أنت منظمة أليس كذلك ؟ قلت : لا .

16

قال : إذا فما علاقتك بالإخوان ؟ قلت : لا توجد لي أي علاقة بهم . قال وقد بدأ يتململ في كرسيه : وإذا فكيف تقومين بتوزيع كل مجلات النذير ؟ ثم هذه الرسالة من أين أخرجناها ولمحت بين أصبعيه ورقة صغيرة عرفت أنها الرسالة التي كان أخي صفوان قد كتبها قبل مغادرته سورية كتوصية بأبي عندما ذهب الأخير مع شقيقي الأكبر إلى عمان للعلاج هناك بعدما أصابه مرض انحلال الدم إثر ملاحقة صفوان حزنا وخوفا عليه ، ولكن مسؤولي الحدود أعادوهم وقتها لأن أخي لم يكن قد أدى خدمته الإلزامية ، وأحببت أن أحتفظ بالرسالة كذكرى من أخي . . فلما فتشوا البيت عثروا عليها وكان مكتوب فيها "حامل هذه الرسالة هو والد أحد المجاهدين فاعتبروها شيئا كبيرا ، وجعل رئيس الفرع يقرأ لي منها بسخرية ويقول : - والد أحد المجاهدين أليس كذلك أبوك هذا عامل نفسه إشتراكي وهو من زعماء الإخوان . . لكن أنا بعرف أفرجيه . . والله لأعمل جسده مصفاية ! وظلت هذه العبارة محفورة في ذاكرتي حتى سمعت عن أحداث حماة بعد سنوات . . وعلمت أنهم عذبوا أبي أشد العذاب قبل أن يرشوه أكثر من مرة ، حتى صار جسده كالمصفاة بالفعل ! وضاع الدليل !

أنا لست منظمة ولا من الإخوان . قلتها وقد سرت القشعريرة في جسدي خوفا على أبي وعلى نفسي . قال : وماذا عن الرسالة ؟ قلت : لا أعرف . . ربما نسيها أحد هناك أو وضعها لي أحد . وكأنما أراد أن يلج إلى غايته من مدخل اخر ، فجعل يقلب الملف الذي بين يديه وسأل : من تعرفين من أصدقاء أخيك ؟

17

- لا أحد . . لم أر أخي من زمن ولا علاقة لي بأصدقائه ؟ قال وقد اشعت عيناه : وماذا عن عبد الكريم رجب ؟ قلت : من هذا . . لا أعرفه . فعاد إلى الصراخ من جديد وصاح بي : إذا فلن تعترفي أنك منظمة . قلت : لا . . أنا لست منظمة فكيف أعترف بذلك ؟ فتناول "شحاتته" من قدمه ورماني بها ، لكنني تنحيت برأسي قليلا فتجاوزتني وأصابت الكاتب ورائي . . فقال وهو يشتمني : - وتقولين أنك لست من الإخوان . . هذه التصرفات كلها تصرفات إخوان ! ثم عاد يتحدث عن الرسالة ويلوح بها أمام وجهي . . ولم يلبث أن غادر الغرفة لبرهة فظننت أنه ذهب ليأتي بجلاد أو أحد ما ليعذبني ، فلما عاد أراد كأنما أن يريني الرسالة أو يستخدمها من جديد ، فجعل يقلب بين مجموعة أوراق كانوا قد أخرجوها من سلة المهملات بيتنا ، وقاموا بكيها وتلصيقها جميعا أملا في أن يجدوا بينها دليل إدانة ضدي ، فلما لم يجد الرسالة سأل الكاتب ورائي : - هل دخل الغرفة أحد ؟ أجاب الكاتب بانتباه : لا

سيدي . قال له : هل تحركت هذه ال . . من مكانها ؟ هل غادرت أنت الغرفة ؟ أجاهه ثانية : لا . فجعل يقلب وينقب أمامه وحوله وبين يديه فلم يجد شيئا . . وضاعت الرسالة أين . . لا أدري ! فازداد التأمه وعلا صراخه ، وجعل يهددني بعبارات بذيئة ويقول : - رفيقتك هنا في الملف أمامي اعترفت بأنك منظمة ، وإذا لم تعترفي بنفسك فلدينا ما يجعلك تفعلين ! قلت له وقد جرحتنني الكلمات البذيئة واستفزني التهديد : مهما كان لديكم من وسائل فانا لست منظمة . . وسأبقى أقول أنا لست منظمه

سجل الاتهام

18

أخرجوني من غرفة التحقيق إلى غرفة كالأولى التي استقبلتنا مملوءة بأجهزة مشابهة كلها أعضاء ملونة دائمة الوميض . . وأخذوا صديقتي ماجدة إلى غرفة رئيس الفرع . . ولم أكد ألتقط أنفاسي حتى عادوا فنادوني وأخذوني إليه من جديد ، لأجد قائمة بالإتهامات تنتظرنني تكفي أن توزع على ثلاثة رجال أنت متهمه بأنك منظمة : توزعين مجلة النذير ، وتعطين دروسا لسيد قطب في مساجد دمشق ، وقمت بشراء بيت للتنظيم ، ونقلت سيارة ذخيرة فيها جهاز إعلامي بنفق في منطقة المهاجرين . . وهناك اعتراف ثابت من واحدة من صديقاتك بكل ذلك . . ورفيقتك هذه متأكدة تماما من كل المعلومات وهي تعرفك جيدا ودرستك وعاشرتك ولا تكذب أبدا .

هي كاذبة ، وأنا ليست لي علاقة بما قالت ولم أفعل أي شيء أو أشارك بأي مما ذكرت . قلت ذلك وقد بدأت الأمور تتضح في ذهني بعض الشيء ، واستطعت من ثنابا كلامه أن أدرك أن شخصا بعينه قد نقل هذه الوشائيات لهم وملا ملفي بكل هذه الأكاذيب . . الشخص الذي طالما كنت أسمع تحذيرات عنه رغم أن عياني لم ترياها طوال حياتي . . إنه عبد الكريم رجب : جاسوس المخابرات والمتعامل معهم من داخل صفوف الإخوان . . أو دسيستهم داخل الصفوف ! تشجعت لهذا الذي وصلت إليه ، وأدركت أنها تهم رخيصة أراد أن يملأ بها الصفحات وحسب ، وازددت إحساسا مع كل الظروف بالثقة . . فلم أجب تهديدات المحقق رئيس الفرع وهو يكرر علي من جديد : - إذا لم تعترفي يا . . فلدينا ما يجعلك تعترفين ! 19 في انتظار الاعدام !

إلى الغرفة الغامضة أعادني عنصر من المخابرات بأمر من المحقق ، ولم يلبث وأن أحضر رفيقتي ملك لتنضم إلي ، وكانت المسكينة في أيامها الأولى بدمشق وفي أول سنة لها بالكلية معي ، فلم تكن تعرف لا عن البلد ولا من الأشخاص أحدا غيري . . وبعد أن أودعانا تحت رقابة العنصر في الغرفة أخذوا ماجدة وبدأوا معها التحقيق . . فلما انتهى دورها عاد فطلبني وقد مض من الليل أكثره وأعاد نفس الكلام علي : -

رفيقتك الأولى يقصد عبد الكريم رجب اعترفت عليك اعترافا أوليا ، وهذه ماجدة اعترفت الان بنفس الكلام ، وقالت بأنك منظمة ومسلحة وقمت بأعمال كثيرة للتنظيم وتوزعين مجلة النذير . . ومن غير أن ينتظر جوابا مني أمر عنصرا فأخرجني من الغرفة واقتادني إلى الممر ثم وجهني باتجاه الجدار وأمرني أن أرفع يدي وإحدى رجلي إلى أعلى . . فقلت في نفسي : خلاص . . ها هم أكملوا صياغة التهمة لي . . والان سيرشوني أو يعدموني ! وما هي إلا برهة حتى وجدت رفيقتي ملك بجانبني يأمرها العنصر أن تفعل مثلي ، فازداد إحساسني أنهم سوف يرشوننا لا ريب ، ولم أعد أحس ساعتها بنفسني . . كان كل شعوري مركزا حول النهاية التي دنت . . وكيف ستكون : رشا من الخلف أم إعداما بالمشنقة أم ماذا ؟ وكانني وقد تملكني الشعور بتحقيق المنية استجمعت بقايا جلدي والتفت " بحلاوة الروح " إلى العنصر المكلف بمراقبتنا فسألته : - لماذا أوقفتمونا بهذا الوضع . . ما الذي فعلناه ؟ قال بلا مبالاة : أنتم تعرفون ماذا فعلتم . قلت : تقصد أنهم سيعدموننا ! أجاب هازئا : لا . .

هل تظنين الإعدام يأتي بهذه السرعة والسهولة ! 20

إلى الفلق !

مرت نصف ساعة أو ربما أكثر ، فالوقت في مثل هذا الموقف لا معنى له . . أدخلوني بعدها على غرفة الأجهزة وأمروني أن أجلس فجلست . . ولم يلبثوا أن أحضروا ملك فأجلسوها على كنية أمامي في مواجهة الباب الذي كان مفتوحا بعض الشيء ، فما كادت المسكينة تلامس الكنية حتى نامت . . ولم تعد تحس بشيء . . وأنا أكاد من توتري أتقطع ، وصوت ماجدة في غرفة التحقيق يبلغ أذني مرة وبغيب مرة . . فلا أدري ماذا تقول ولا أعلم أي نوع من العذاب الآن تنال . . وألتفت إلى ملك وأهمس وبودي أن أصبح لتسمع : - ملك . . ملك . . حاولي فقط أن تنظري من طرف الباب وتعلمي ما الذي يجري . . ولكنها في غفوتها لا تجيب ! وظلت على هذه الحال حتى الصباح أراقبها وأحاول أن أحادثها ولا فائدة ، وأنا على أعصابي لا أستطيع حتى أن أستقر على الكرسي تحتي ، وقد اجتمع علي النعاس والتعب والخوف معا . . وبين كل فينة وأخرى عنصر قادم وآخر عائد . . هذا يلقي سؤالا بلا معنى وآخر يكتفي بالنظر والتبسم . . حتى أطل أحدهم مع إطلالة الصباح يسأل : - هل تريدون أن تفطروا ؟ ألم تجوعوا؟ قلت له : لا. قال : ماذا تشربين ؟ أجبت : لا شيء . . شكرا . قال : سأتي لك بكأس شاي تصحين به رأسك . وذهب فأحضر الكأس ووضعها أمامي ، ولكنني لم أستطع من توتري وتعبي أن أدنيه من شفتي . . وعندما بلغت الساعة الثامنة دخلوا من جديد فأيقظوا ملك ، وأخرجونا إلى تحقيق جديد في القبو هذه المرة ، 21 وبينما هم ينزلوننا درجات السلم قلت هامسة لملك : - اخ . . الان سيأخذوننا إلى الفلق لا محالة ! فانتفضت المسكينة تقول : لا تقولينها ! قلت : ومن الذي قال لك أن تنامي طوال الليل ؟ لماذا لم تسمعي ماذا قالوا لماجدة ؟ كنا استفدنا بعض الشيء أو فهمنا ما الذي سيحدث .

أنا . . ضد الوطن !

عبر ممر كئيب في القبو أخذوني إلى غرفة أخرى للتحقيق وجدت في صدارتها وجها جديدا هو الرائد تركي . . أجلسني على طرف سرير عسكري في طرف الغرفة وجعل على مدى نصف ساعة تقريبا يعيد تلاوة نفس الإتهامات علي بشكل سؤال وجواب ، ويدونها في سجل معه . كنت من تعبي وارهافي لا أستطيع متابعة كلامه أو حتى فتح عيني . . فكنت أكبو قليلا ثم أنتبه فأشد نفسي . . وعندما كان يبلغني صوته الأجنش بعربيته الثقيلة أحس وكأن أمعائي توشك أن تخرج كلها من فمي . . فلما انتهى كان أملي الوحيد في كل الدنيا وقتها أن أجد ولو بلاطة ألقى عليها جسمي المنهك وأنام . . لكن العنصر عاد واقتادني عبر الممر نفسه إلى غرفة أخرى في القبو وجدت فيها ضابطا اخر برتبة رائد استقبلني من فوره بعبارات بذينة وكلام قدر . . واللهجة العلوية واضحة عليه . . واستمر حوالي الساعة يسمعني العبارات ذاتها : - أنت من الإخوان . . وأنت منظمة اعترف عليك . . وأنت قمت بأعمال كثيرة تضر بالوطن ولا تستحقين أقل من عقوبة الإعدام . . كان كلامه أقرب إلى شريط تسجيل منه إلى الحديث . . يعيده بحرفيته ويكرره فلا أميز انتهاء المقطع من بداية مقطع جديد إلا من اختلاف الشتيمة أو تغير عبارات السخرية والإستفزاز . . ووجدتني وكأنما تحول رأسي إلى جرس كبير يقرع هذا الرجل عليه كل لحظة بكلماته فيرتج ولا يستقر . . وتتكرر فيه العبارات فيزداد اهتزازا وضجيجا : - الجميع اعترف عليك . . الجميع اعترف عليك . . أنت منظمة . . ضد الوطن . . إلى الإعدام . . إلى الإعدام . . إلى الإعدام ! وكأنما غبت عن الوجود اخر الأمر ، فما وجدتني إلا وعنصر اخر يدخل الغرفة وملك وماجدة في طرف اخر منها ويسأل : - ألم تجوعوا يا بنات ؟ قلناله : لا ، لم نجع . فرد بلهجة ذات مغزى : الآن سنطعمكم فروجا مشويا على أية حال ! قلت له وقد فهمت أنه يقصد التعذيب : نحن بغنى عن طعامكم . جذبنا نحن الثلاثة ، ووجدتهم يقتادوننا عبر الممر نفسه فالسلم حتى بوابة الفرع ، ولما سألته وقد دب في القلق من جديد : - إلى أين ؟ قال : الان سترون . أصدونا في سيارة عسكرية نحن الثلاثة قبالة بعضنا البعض ، وصعد عنصران

مسلحان وراعا ، ولم تلبث السيارة أن انطلقت بسرعة مجنونة كأنما تريد أن تقفز فوق بقية السيارات التي كانت تخلي لها الطريق من بعيد ، وأمامنا سيارة أخرى تطلق الصفير المدوي ، وثالثة من خلفنا للحماية أو المراقبة . . ولم نكد نبدأ مع انعطافات السيارة العنيفة في الصعود والهبوط حتى تملك ملك الدوار وأخذت في الإستفراغ ، فملأت السيارة من مخلفات جوفها ، وجعلتنا ونحن في حالتنا المبكية نكاد نختنق ، فأملنا رأسها للوراء باتجاه الباب الخلفي بين العنصرين ، فجعلت تكمل تقيؤها بينهما طوال الطريق ، من فرع التحقيق العسكري بالعباسيين إلى سجن أمن الدولة بكفر سوسة .23

" الفصل الثاني كفر سوسة :

رحله خارج الزمان يناير 1981 -اكتوبر م 1982
عبرت السيارات الثلاث بوابة السجن العامة مضيا نحو المبنى الرئيسي الذي انتصب أمامنا بطوابقه الثلاث ، والتلفط السائق حوله بين ممرات ومداخل معقدة حتى بلغ بابا كهربائيا توقف بنا عنده ، واجتذبتنا الأيدي مرة أخرى فاقتادتنا عبر ساحة المبنى الداخلية إلى باب آخر تنزل خمس درجات منه إلى القبو المعتم ، فإذا هو عالم آخر من عوالم الرعب التي قطعناها خلال اليومين الماضيين عن غير ما اختيار . مضت الأيدي القاسية عبر ممر القبو المظلم فالتفت بنا جهة اليسار وليس في طريقنا إلا الصمت والأبواب الحديدية الكثيرة ووحشة المكان ، ولم يلبث أن قطع لهائنا المتدفق صوت أحش أانا من وسط العتمة ينادي : -منيرة! فما كدنا نلمح المنادي حتى بدت من الجهة المقابلة في آخر الممر فتاة مضفورة الشعر ترتدي "جلابية" شاعت موضعها وقتذاك ، وجعلت تتقدم نحونا متمائلة يوحى مظهرها أنها سجانة أو موظفة هناك . . فلما اقتربت ومن غير أن يلتفت إلينا قال لها أبو عادل رئيس نوبة السجنين وقتذاك : - هيا فتشيهن واحدة واحدة . ودفع بي أول الجميع إلى غرفة علمنا بعدها أنها غرفة التحقيق والتعذيب ، ودخلت منيرة هذه ورأني وسألتنني ؟ - ما اسمك ؟ قلت وقد بلغ التوتر بي مبلغا : وماذا تريد من اسمي ؟ أحسست وقتها أن بإمكانني أن أقتلها من شدة توتري بيدي . . لكنها قالت ببرود : -وليش معصبة ؟ 27.

قلت : والله لا أدري ! ماذا تريدنني أن أفعل ؟ هل يمكن للإنسان أن يكون مبسوطا هنا ! أجابت بنفس برودها ورتابة صوتها : بس لا تعصبي . . أنا سجينه مثلك . قلت بحدة : لماذا تكذبين على ؟ شكلك هذا ليس كشكل السجنينات . قالت : والله العظيم أنا سجينه وقاعدة في مهجع مملوء بنسوان من الإخوان . لم أجرو أن أزيد معها وطننتها سجانة تريد أن تستدرجني في الكلام خاصة وأنها تتحدث بالقاف العلوية ، لكنها عادت وقالت لي : ما صدقتيني ؟ بكره بئلتقي بالمهجع وبذكرك . أحسست لهجة صدق في حديثها فاستأنست بعض الشيء وسألته دون أن أغادر الحذر : - ومن معك من الإخوان هناك ؟ قالت : هناك واحدة حاجة من حلب وأخرى اسمها أم شيماء و .0 وجلست تعد لي أسماء وألقاب لا أعرفها وأضافت : وأنا الشيوعية الوحيدة في المهجع والبقية كلهن من الإخوان فتشنتني منيرة بعد ذلك ، وفعلت الشيء نفسه مع ماجدة وملك بالتتابع ، وكان العنصر في انتظاري حينما انتهت ، فأخذني وأصعدني ثانية من القبو ، واقتادني عبر سلالم وممرات عديدة إلى المبنى الجنوبي للفرع ، ليبدأ التحقيق معي حسب الأصول !

بين يدي الجلاد !

كان كل ما حولي يثير الفزع والإضطراب : هذا داخل وذاك خارج . . باب يقفل واخر من أين لا أدري يفتح . . وكل قادم أو عابر يحمل بيده جهاز لاسلكي أو كبلأ أو أداة أخرى للتعذيب . . وفي البداية أدخلوني على مكتب رئيس الفرع ناصيف خير بك ، فأحسست وكأنني انتقلت إلى عالم آخر . . فالغرفة واسعة دافئة أنيقة التأثيث ، يمتد السجاد الفاخر

على أرضهما بمهابة وقد توزعت عليه كنبات وثيرة ومكتبة ومكتب فاخر يحتل تمثال لرأس الرئيس الأسد ركنا منه ، بينما ينتصب في زاوية الغرفة القصى تمثال برونزي آخر لرأس الرئيس بالحجم الطبيعي . وأما المقدم ناصيف الذي كان منهما بمحادثة لاسلكية وقتها فلم يعرني أكثر من نظرة ازدراء بطرف عينه ، وأوما للعنصر أن يعيدني إلى مكاني وأكمل حديثه . . ولم ألبث أن اقتادني ذاك ثانية إلى غرفة أخرى مقابل مكتب ناصيف ، فوجدت مجموعة أشخاص مجتمعين على شاب مقيد يعذبونه وبحققون معه ، وناصيف ممسك جهاز اللاسلكي بيده يتحدث فيه مرة ومرة مع الشاب المسكين والعناصر مرة . ولم يلبث أن أشار بيده إلى العنصر الذي أحضرتني فجذبني ذاك من منكمبي وأمرني أن أنتظر خارج الغرفة من جديد ، وأنا كالتائمة لا أكاد أقدر على متابعة المشاهد المتجددة والوجوه المتعاقبة والأصوات التي تختلط الشتائم فيها بالإستغاثات والآهات ! وسرعان ما عاد العنصر فأدخلني الغرفة ذاتها لأحضر تعذيب الشاب نفسه لعلي أخاف وأتكلم ما يريدون . كانوا أربعة أو خمسة يشتركون في التعذيب أمامي بالكابل والعصي والخيزران والكهرباء : ناصيف خير بك رئيس الفرع ، والرائد عبد العزيز ثلجة وهو رجل ضخم الجثة بالغ الجلافة ، وعناصر آخرون كان أحدهم لم يبلغ العشرين بعد مجندا من درعا كما عرفت لاحقا ينادونه حسين ، ولم أعرف من كان ذاك الشاب ولماذا يعذبونه ، لكنه كان يصيح طوال التعذيب ويستغيث مناديا : - والله العظيم موأنا . . ثم اعترف آخر الأمر لا أدري ليتخلص من مزيد من العذاب أم لسبب آخر فأقر أنه قتل أحد الضباط . . وعندما اشتد التعذيب عليه وكاد صراخه يصيبي بالإنهيار التفت إلى العنصر معي وسألته : - لماذا أتيتم بي هنا ؟ قال بسخرية : لا أعرف . . إسألهم 29. قلت بانفعال : لا أريد أن أسألهم ولكن أنا ما عندي شيء لأعترف به ويضعوني في هذا الموقف فأتفرج على تعذيب الناس . ولم يزد العنصر عن أن هز كتفيه وابتسم متهمكا وهو يقول : - لا أعرف . . لا علاقة لي بأي شيء هنا ! واستمر الضرب والتعذيب حوالي نصف الساعة أنهضوا الشاب بعدها مضرجا بالدماء والكدمات فكلبوا يديه ورجليه ، وفيما اقتادني العنصر وراءه لأكمل كما يبدو رؤية المشهد ، سحب الرائد ثلجة الشاب إلى رأس الدرج ، ثم ركله برجله بكل قسوة ، فتدحرج هاويا يئن ، ونادى على أحد ما هنالك لينزله إلى المنفردة في القبو أسفل المبنى ، وعاد فأمر العنصر ليدخلني إلى الغرفة مرة أخرى ، فأوقفني في زاويتها ، وجعل ناصيف وثلجة يتحدثان باللاسلكي لا أدري مع من ، ثم خرج الجميع فجأة ، ليعود الرائد ثلجة وحده ويغلق الباب كهربائيا بضغطة زر ، فاستوى الباب بالجدار حتى لم أعد أدري من أين دخل ولا أين كان هذا الباب . . ومن غير أن يلفظ أي كلمة أو يسألني أي سؤال لم أحس إلا وصفعة مفاجئة تأتيني علي حين غرة اصطدم رأسي من عزمها بالجدار وارتد ، وصارت الدنيا تدور كلها في ، وصرت أرى الرائد أمامي أربعة أشخاص معا ، وأرى رأسي أسفل مني ورجلاي فوق الرأس وفوقي ! لم يزد عن أن قال : - انظري . . إذا ما بدك تحكي ما بتعرفي ما الذي سيحصل لك .

بساط الريح !

خروج الرائد ثلجة برهة لم أكد أتمالك فيها نفسي حتى عاد مع ناصيف ورئيس الدورية التي أحضرتنا من البيت وشخص رابع لم أعرف من كان . وابتدرني ناصيف يقول : - وليك . . شو ما بدك تحكي ؟ ما بدك تقري وتدلينا فين أخوك ؟ قلت له : أخي ليس هنا . قال : إذا أين هو ؟

قلت : لا أعرف الظاهر أنه ذهب ليكمل دراسته . وواقع الأمر فإن أخي صفوان كان قد أخبر أمي عندما زارته في الأردن وقال لهما : إذا سألك أبي أين أنا فقول لي له ذهب ليكمل دراسته في الباكستان . تذكرت ذلك بمجرد أن سألتني عنه ، ولم أكن أدري وقتها بأن أمي كانت معتقلة في نفس السجن معي ، وأنه سأله قبل دقائق عن أخي فأجابته الجواب نفسه ، والتقى كلامي مع كلامها في هذه النقطة ، الأمر الذي أعفاني من التعذيب على ذلك السؤال

، ولكنه سألني بلؤم : -أنت تعرفين بأن أخاك هنا ، وسوف تأخذينا وتدلينا عليه ، أو على رفاقه والبيت الذي يجلسون فيه . قلت : لا أعلم أي شيء من هذا . . فنأدى على أحدهم وقال له : إذهب وأحضر لها بنطالا وأعطاها إياه خليها تنستر وضعها على بساط الريح . تقدم العنصر مني وطرحني على لوح من الخشب له أحزمة طوق بها رقبتني ورسغي وبطني وركبي ومشط رجلي ، ولما تأكد من تثبيتي رفع القسم السفلي من لوح الخشب فجأة فبات كالزاوية القائمة ، ووجدتني وأنا بين الدهشة والرعب مرفوعة الرجلين في الهواء وقد سقط الجلباب عنهما ولم يعد يغطيها إلا الجوارب والسروال الشتوي الطويل ، ولا قدره لي على تحريك أي من مفاصل جسمي . . وبكل وقاحة صاح العنصر يقول : - انظر سيدي .. رأيت ؟ قالت إنها ليست من الإخوان . . ولكن انظر كيف أنها منهم ومجهزة نفسها للفلقة ولا حاجة لها للبنطلون ! حاولت دفع أي من القيود الجلدية عن مفاصلي فما استطعت . . وقبل أن أحاول إعادة لوح الخشب إلى استقامته طلبا للستر كانوا قد علقوه من جنزير مثبت به إلى السقف ، وتقدم رئيس الدورية التي اعتقلنا ويده خيزرانة طويلة رفيعة وسألني بلهجة تهديد صريح : -شوما بدك تحكي ؟ 31

قلت : ليس لدي أي شيء لأحكيه . في نفس الوقت كان الرائد ثلجة فوق رأسي يجهز مولدا كهربائيا مربع الشكل موصولا بالفيش وله يد يدار بها وملاقط قربها مني وأطبقتها فجأة على أصابع يدي . . وفيما هوى ذاك بالخيزرانة على بطن رجلي أطلق هذا شحنة من الكهرباء سرت كالنار في بدني ، فقال دون أن يلتفت لصرختي : -هه إلسه مايدك تحكي ؟ صرخت : قلت لكم ما عندي شيء للحكي . قال ببرود : رأيت كم كانت الكهرباء قوية ؟ هذه أخف الموجود لدينا ! قلت : حتى ولو كان ، هل أعترف بأشياء أنا لم أفعلها ! قال : لا . . أنت تكذبين وتخين علينا . . بدك تقومي الآن تأخذينا وتدلينا على البيت الذي يسكن فيه أخوك ورفاقه والا فسنأخذك إلى تدمر ! وأقبل ثلجة هنا بصورة قربها من وجهي وسألني : - هل تعرفين هذا الشاب ؟ قلت : لا . قال : كيف ؟ ألا تعرفين رفاق أخيك ؟ قلت : لا . قال : لكن هذا رفيق أخيك الحميم . . هذا عبد الكريم رجب . . ألا تعرفينه ؟ قلت بحزم وقد تأكدت لي الوشاية الرخيصة التي حيكنت لي : لا . . لا أعرفه . تبسم الرائد ثلجة ابتسامة صفراء وشرع يقرأ من مجموعة أوراق بين يديه بعين ، وعينه الأخرى تتاج انفعالات وجهي : - هبة الدباغ : منظمة مع الإخوان وتتعامل معهم . . اشترت لهم بيتا ، وتعطي دروسا لسيد قطب في مساجد دمشق . . و . .

3 2

صرخت بانفعال وأنا أسمع قائمة الإتهامات الكاذبة للمرة الألف : كذب . . كذب . . لا أعرف أي شيء تتحدث عنه . دس الرائد ثلجة الأوراق بوجهي وهو يقول : -ألا تري ؟ هذا كله مكتوب هنا . . كله من اعترافات الرجب . . هو الذي تكلم عنك بهذا ، وهو من الإخوان مائة في المائة ويعرف عنك كل شيء ولا بدوأنك تعرفينه أيضا . . عدت إلى قولة كلا . . وعاد التعذيب من جديد ، وصار رئيس الدورية يضرب قدمي بكل عزمه ، حتى أصبحت الخيزرانة عندما تهوي عليهما تشق الهواء بصوت كالصفير ، وجاء عنصراخر بخيزرانة ثانية وجعل يشارك معه الضرب ، فيما عاد عبد العزيز ثلجة فقيع فوق رأسي وجعل يكوي أصابعي بالكهرباء من جديد . كان الألم أشد من أن يوصف . . وكنت في البداية أصيح : يا الله . . لكنني لم أعد أستطيع آخر الأمر أن أخرج صوتي ، فصرت ألوح برأسي فقط ولم أعد أحس بشيء . . ووجدتهم بعد عشر دقائق تقريبا من الضرب المتواصل يتوقفون فجأة ، ومع الشنائم والعبارات البذيئة طرق سمعي عبارة : - إلى تدمر ! وسرعان ما انفكت القيود عن مفاصلي ، وسحبني عنصر من غرفة التعذيب عبر الممرات والسلالم ثانية إلى سيارة متوقفة عند الباب ، ففوجئت برفيقتي ماجدة قد سبقتنني إليها بحراسة عنصر آخر . أركبانا معا ولكنني لم أجرؤ أن أتحدث معها بشيء . . وانطلقت السيارة بحركة مسرحية إلى أن

بلغت الباب الخارجي ، فسألني من جديد : -لسه ما يدك تحكي ؟ أحسست وكأن أعصابي المشدودة تصيح كلها معي بصوت واحد : -ما عندي أي شيء أحكيه . . أنا لا علاقة لي بأحد . . هل تريدون أن أكذب عليكم فقط ؟ هل تريدون ! توقفت السيارة ، ولم يلبث السائق أن عاد بنا إلى المبنى من جديد ، 33

وأعادوني مرة أخرى إلى التعذيب . . وعادت نفس الأسئلة والإتهامات تطرح علي ، لكن الضرب والتعذيب اشتد أكثر ، وزاد عدد المشاركين بتعذيبي حتى لم أعد أستطيع أن أعرف عدد من حولي أو عدد المحصي والخيزرانات التي تهوي على رجلي . . وبدأت أرى الغرفة كلها عصيا وخيزرانات . . والناس فيها من كثرة أسئلتهم كالضفادع تنق وتنق بصوت واحد غامض . . فلم أعد في النهاية أجيب على أحد ! وأتاني صوت الرائد ثلجة من جديد يقول : - ها . . أنت إذا مسلحة . . انظروا إليها . . تدعي البراءة وتنفي أنها منظمة وهي ليست من الإخوان وحسب . . ولكنها مسلحة أيضا! أحسست أن تهمة أكبر تلفق لي هذه المرة فصرخت بعصبية : لا . . أنا لا علاقة لي بأحد . . وأنا لست مسلحة . قال : ولكن رفيقتك ماجدة هي التي قالت ذلك عنك . قلت : لا تصدقها . . أحضرها لتقول ذلك أمامي . . ربما قالت ذلك من خوفها حتى تنجو من الضرب . قال : لا . . رفيقتك لا تكذب . . هي أصدق منك . . تكلمت عن كل شيء وما تعذبت ، وأنت إذا لم تتكلمي فستبقي تأكلي ضربا حتى تحكي . وتقدم ثلجة من جديد نحوي ويده بطارية كهرباء وضعها على فمي مباشرة وقال بلهجة التهديد : -الن تتكلمي ؟ قلت : ما عندي شيء أحكيه . . مهما وضعت لي الكهرباء أو أطعمتني ضربا فما عندي شيء أحكيه ولن أكذب على نفسي . وهنا صاح ناصيف بضجر : - هيا أنهضها وأعطها ورقة لتكتب ما لديها من معلومات وسنرى بعدها . والتفت نحوي مهددا يقول :

34

-إذا لم تتحدثي بكل شيء هذه المرة فاعلمي أن لدينا عناصر الواحد منم كالوحش يسد الباب . وأضاف : - هل تعرفين ألسوايا الديرية كيف يكون شكلهم ؟ إذا لم تعترفي فسأدخلهم عليه ك وسنرى بعدها ! الموت راحة المؤمن !

أنهضوني عن "بساط الريح " فوجدت نفسي مبللة من غير أن أشعر، وكنت كأنما أغمي علي أثناء التعذيب فدلخوا علي سطل ماء حتى أصحو . تلفت حولي كالسكري فرأيت الغرفة خلت تقريبا من الناس ، وأدركت من خلال نافذة كانت فوق رأسي أن الدنيا قد أصبحت ليلا ، فقدرت أن ساعتين أو ثلاث انقضت علي وأنا في التعذيب ! وبيننا أنا لا أزال أحاول استعادة توازني جاء أحد العناصر بورقة وقلم وجلس أمامي يقول : - انظري . . إذا حكيت فستساعدي نفسك ، وإلا فستطمسي أكثر مما أنت طامسة . قلت له : ما عندي أي شيء أحكيه . قال : لا أحد يأتون به إلى هنا وما عنده شيء . . ولا أحد يصل هنا إلا إذا كان مذنبا . قلت له : ولكن أنا ليس لدي أي شيء . قال : أنت حرة . وأعطاني استمارة معلومات عامة عن دراستي ومدارسي ثم عن علاقتي بتنظيم الإخوان . . أجبت بما أعرف وأعطيت الورقة للعنصر فذهب بها ، ولم يلبث أن عاد الرائد ثلجة يلوح بها وملامح الغضب بادية على وجهه وهو يصرخ في : - هل هذه أجوبة تلك التي أجبت بها يا أخت ال . . . واندلقت كل الشتائم والعبارات البيذية دفعة واحدة من لسانه وكأنها كانت تنتظر فرصتها للإفلات إوفى آخر عبار*أطلقها سمعته يقول : أنت تعرفين هذا البيت الذي يسكن فيه أخوك ورفاقه وبدك تدلينا عليه الآن لكن أنا أعرف لماذا لا تريدون ذلك . . تريدون أن تماطلي بالوقت حتى يهربوا وسجل دون أن أرد عليه بعض الكلمات على الاوراق التي معه وخرج ولم يلبث أن عاد وقالوخرج ، ولم يلبث أن عاد وقال : - إذالم تتكلمي فسننزلك

إلى القبو، والقبو إذا نزلت إليه لا تخرجى منه حتى تموتى قلت له : أحسن . . الموت راحة المؤمن !

قال بغيظ : وتجيبن بكل وقاحة وكل عين يخرب بيتك الم تحسى كم أكلت من قتل ؟ ألا تفكري في أن ترحمى نفسك وتعترفى لتخلصمن هذا العذاب قلت له : لكن أنا ليس لدي أي شيء حتى أعترف به . . قلت لكم ما عندى شيء : في تلك اللحظة دخل ناصيف خير بك من وسمعنى أقول ذلك جديد للرائد ثلجة، فابتدرني بتكشيرة ونظرة مرعبة وقال والشتائم البذيئة تسبق كلماته - إذالم تعترفى بكل شيء الان .. مباشرة . . فسوف أعريك من ثيابك صحت وقد هزني التهديد: لكن انما عندي شيء احكيه . قال بلهجة الأمر: إخلعي جليابك .

وقفت هنا ونظرت إليه والخوف الحقيقي يغمر قلبي لأول مرة . ل قال ألا تريدن أن تخلعيه؟ أنا سأخلعه لك .

" وتقدم مني فمد يده يريد أن يفك أزرار الجلياب فما وجد شيئاً . ففي تفصيلة ذلك الجلياب كانت الأزرار مخفية ، فحول يده وأنا أحاول 360

مدافعته إلى رأسي لينزع حجابي فلم يستطع . . أمسكني من شعري تحت الحجاب وكان طويلاً وقتها وملفوفاً للخلف أمسكني منه وبدأ يشده فينجذب رأسي كله من غير إرادة مني إليه ، ثم يعود ويخطه بالجدار . . وسيل . الشتائم البذيئة يرافق ذلك كله ، لكنه لم يتمكن رغم ذلك من نزع الحجاب لأن غطاء الصلاة كان قد نزل في أكمامي عندما لبست الجلياب فوقه ساعة الإعتقال . . فصاح بي :

وتقولي عن نفسك أنك لست من الإخوان وثيابك كلها ملتصقة بيدك التصاقاً والجلياب أزراره سرية ومخفية ومجهز - اخترتجهيزاً ! .

" ومع استمرار صمتي وسيل الشتائم منه نادى أحدهم ليعطيه "الكبل أو الخيزرانة ليجدد ضربى . . ووقتها كانت قدماي قد تورمتا من الضرب ولم يعد بإمكانني لبس الحذاء، فقال وهو يتناول ما طلب : كم الفرب ولم يعد بإمكانني لبس الحذاء، فقال وهو يتناول ما طلب لا تريدن الكلام ؟ أنا سأريك "

وتقدم ليبدأ ضربى ، فركضت بعفوية منه والتجأت وراء الطاولة فركض ورائى . . وبدأت أركض وأدور حولها وهو يركض ورائى ليمسك بي ويصيح :

يخرب بيتك 000 كل هذا التعذيب والضرب ولا زال فيك روح لتنطيو تركضى ونادى الحاجب وقال له : أمسكها من عندك

فلما تقدم العنصر وأمسكني صاح ناصيف فيه :

خذها . . خذها تنقل من وجهى . . خذها إلى المنفردة . . لا أريد أن أراها أكثر من ذلك لم أصدق أن حفل التعذيب قد انتهى ولم أع مامعنى أن أذهب إلى 10 المنفردة إلا عندما دفع العنصر حذاءى إلى وجذبني خارج الغرفة وجعل يقودن عبر السلالم والممرات ثانية نزولاً هذه المرة وهو يقول لى :

لماذا . " لماذا لم تتكلمي ؟ أما كان ذلك أفضل لك ؟ كنت على الأقل رأفت 370

بحالك . . أنظري كيف انتفخ وجهك وازرقت يداك وتورمت رجلاك وأكلت قتل الدنيا حتى لم تعودى تستطيعين أن تلبسى حذاءك . قلت : ما عندي شيء أحكيه . وأضفت وقد فاض بي الأمر ولم أعد ألقى بالا لكلماتي : الله لا يعطيهم العافية هؤلاء الظلام . . لكنه وكأنما كان يؤدي دوراً مرسوماً لم يلتفت لعبارتي وأكمل يقول : -

لكن لو أنك كذبت عليهم كنت خلصت حالك . قلت : - أنا لا أكذب وأعلم أن الذي يصدق هنا أو يكذب فنتيجته واحدة . سألتنى بدهاء : -

وكيف عرفت ذلك ؟ قلت : - لأنهم لم يصدقونني . . قلت لهم الحقيقة فلم يصدقوا فكيف سيفعلون إن أنا كذبت عليهم ! كنا قد وصلنا باب القيو أخيرا ، فوجدت حسين . . العنصر الذي كان يشارك قبل قليل في تعذيب الشاب في الأعلى يطل علينا بوجه مظلم وقد فتح فمه على ابتسامة سخرية تكشف سنا مقلوعة فى الوسط فكانها نافذة في بيت خرب . . استقبلني ويده كبل يتلوى مثلما تلوت كلمات الترحيب الساخر على فمه وهو يقول : - أهلا . أهلا وسهلا . . والله نورت !
قن الدجاج !

أمسكني حسين من كتفي وأنزلني الدرجات الخمس إلى أسفل ، واقتادني من جديد عبر الممر المعتم إلى ثاني زنزاة منفردة في ممر آخر لا يكاد يبدو آخره ، وقال وهو يشير إلى الداخل

-هذا مكانك . . غرفتك العامرة . . وان شاء الله نومة هنية ! أحسست بالنفور من الظلمة ووحشة المكان وكنت لا أزال متوترة الأعصاب جدا فقلت بلا وعي : -
لا والله . . لا أدخلها أبدا ! قال وهو يدفعني إلى الزنزاة بغلظة : -إي بدك تدخل بكسر رأسك .

التفت إلى أبواب الغرف الأخرى فلمحت صديقتي زميلات السكن معي يطلن بوجوههن من طاقات الزنازين التي وزعهن عليها ، فركضت نحوهن وأنا أصيح : فاطمة . . فلانة . . فجدبني بقوة وهو يقول : تعالي . . تعالي . . هل تظنين نفسك في فندق أو في زيارة ! وفجأة سمعت من آخر الزنازين (رقم 24) صوت أمي التي يبدو أنها سمعت صوتي أيضا فبدأت تدعو عليهم بصوت عال وتصيح : -هؤلاء حريمات تتقوون عليهن يا ظلام . . ما عندكم رحمة ! والله أنا طول عمري أسمع أنه لا رحمة في قلوبكم ولكنني أرى ذلك الآن بعيني ! بهرتني المفاجأة . . وركضت ثانية باتجاه مصدر الصوت وأنا أصيح بدوري : -أمي هنا ؟ الله يخرب بيتكم . . ماذا تفعلون بها ؟ إخوتي صغار وأبي مريض . . ولا حول جميعا لهم ولا قوة . فناداني حسين وهو يقهقه بسخرية : -وما حاجتنا لأبيك وإخوتك ؟ نحن نريد أمك فقط ! وذهب فأغلق نوافذ المنفردات جميعا ثم عاد يدفعني إلى المنفردة وأنا أحاول المقاومة وأتكىء على زاوية الباب ، فقال لي مهديا : -إذا لم تدخلي الان فساحضر كل عناصر الفرع ليدخلوك . 39

قلت : المكان معتم جدا ! أجاب بسخرية : أنت الآن ستنورينه . . هيا ادخلي . نظرت فإذا بعلبتين من الصفيح في زاوية الزنزاة واحدة فيها خبيص من أرز أو برغل مع مرق وفي الثانية ماء . . قلت له : والله هذا مثل قن الدجاج . . وهذه والله مثل معاملة الحيوانات ! قال : هذا عشاؤك الليلة إذا كان لك نفس لتأكلي فكلية . قلت وقد تملكني الغيظ : أنتم تعرفون أن الذي يدخل إليكم لا تعود له نفس ليأكل ! وهنا حضر عنصر آخر متقدم في السن كان يحسن معاملتي فيما بعد قدر المستطاع . . تقدم مني وقال بصوت منخفض : - ياالله يا أختي ادخلي وتوكلي على الله ولا تتركي له مزيدا من الفرص ليسخر منك .

فدخلت المنفردة وصوت أمي لا يزال يبلغ مسمعي . . ثم لم يلبث صوتها أن غاب وسط قهقهات العناصر وصياحهم وهذرهم ، وعمت المكان رائحة الخمر وصيحات المجون احتفالا بليلة رأس السنة ! فيما لفتني في وحدتي الظلمة ووحشة المكان فازدادت أعصابي توترا ولم أستطع حتى أن أغير جلستي ، خاصة وأنهم أخذوا ماجدة بعدي إلى التحقيق وكان من الممكن أنها تعذب في تلك الساعة مثلما كان محتملا أن تقول عني أي شيء . وبقيت على هذا الحال إلى ما بعد منتصف الليل ، حينما حضر أحد العناصر واقتادني إلى غرفة التحقيق من جديد .

لون الليمون !

في غرفة التحقيق وجدت الرائد ثلجة في انتظاري يستقبلني قائلاً : - لست من الإخوان ليس كذلك ؟ ولم تقومي بأي عمل لهم ولا تريد الاعتراف . . ولكن هناك من أرسله الله ليعترف عليك الليلة .

هذه رفيقتك - يقصد ماجدة - قالت بأنك مسلحة وأنها رأت السلاح معك بعينها . قلت له بتحد : أحضرها لأفقا لها عينها . . هيا أحضرها لتقول ذلك أمامي . قال : هي لا تكذب ، أنا قلت لك هي لا تكذب . هي أصدق منك ، والدليل على كذبك لونك الذي أصبح أصفر مثل الليمون . قلت له : لي ليلتان كاملتان لم أتم ولم أكل ولم أدخل الحمام مع القتل والتعذيب ولعيان القلب ، فكيف لا يصفر لوني ! هز برأسه وهو يطم شفتيه بلا معنى وصاح للحاجب كي يعيدني للمنفردة ، فعدت إلى جلستي القلقة ذاتها وعاد إلي التوتر والأرق ، حتى أنني لم أمد البطانيات خوف أن يأتي أحد العناصر فيفتح نافذة الباب أو يدخل علي وأنا نائمة . . وبينما أنا متكورة على نفسي وسط الزلزلة أرمق الصراير في تلك الظلمة تتسلق الجدران حولي دونما اكتراث بالنزول الجديد . . شق جدار السكون فجأة صوت مزلاج الباب الخارجي وصياح السجناء وتدافع أقدام تتخبط مهرولة فوق الدرجات وعلى الممر باتجاه منفردة قريبة . أدركت بحدسي أن دفعة من المعتقلين الجدد قد وصلت ، وعلمت لاحقا أنهم ستة أو سبعة شباب بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من العمر جمعوهم من مسجد واحد وحشروهم معا في هذه المنفردة التي لا تزيد بمساحتها عن متر بتمر ونصف ! والذي يبدو أن واحدا منهم أصابه إسهال من الخوف أو التعذيب فجعل يصيح طالبا الخروج إلى الحمام ، فلا يجيبه إلا صوت العناصر الغارقين في متعة الإحتفال برأس السنة : - سد حلقك !

لكن الفتى لم يكن يستطيع الصبر ، فيعيد الرجاء وينادي : -والله بطني بتوجعني . . يا عالم . لم أعد أستطيع ضبط نفسي . . عندها جاءه عنصر منهم وفتح النافذة وتناوله بضربة بالكبل وهو يكرر:40 سد حلقك واخرس يا . . .

وسكت الفتى لبرهة يا حرام ، بدأنا نشم بعدها رائحة من زنايتهم خنقتنا . . فعاد العنصر إليه يكفر ويلعن ويقول له : -فعلتها هنا يا ابن ال . . . وأخرجه إلى الممر وانهاه عليه ضربا كالمجنون ، وتعالى صراخ أمي من منفردتها ثانية تدعو عليهم وتقول له : -يخرّب بيتك . . مالك قلب بشر؟ سألك أن تخرجه فلم تفعل ففعلها تحته . ماذا يفعل المسكين بنفسه ؟ وعاد الأمر بعد هذه المهزلة إلى ما يشبه الهدوء من جديد . . ومضت ساعات الليل المتبقية تمر علي أثقل من الجبال ، وعلى الرغم من أنني لم يطرق لي النوم جفنا ليلتها إلا أنني بدأت أفقد الإحساس بما حولي ، وأتخيل ربما من شدة البرد أن الثلج قد غطى المكان كله ، وأن العناصر تستعد لاقتحام الزلزلة علي ليسحبوني في هذا الثلج فيعرونني ويعذبوني للمرة الأخيرة قبل أن يرشوني وأغادر الحياة ! لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ولم ألبث وقد دنا وقت الفجر أن أحسست بما يشبه الطرق الخافت على الجدار من الزلزلة الأخرى المجاورة حيث وضعوا ماجدة ، فعلمت أنها تنهني إلى موعد الصلاة ، ولم نكن خلال الفترة السابقة من الإعتقال كلها قد تمكنا من الصلاة ، فتيمنت وهممت أن أبدأ ، لكنني لم أستطع معرفة اتجاه القبلة فطرقت الباب ، ولم يلبث أن حضر حسين من جديد فسألته ، فقال بسخرية : -

كيف وضعت رأسك على الفلقة فهذا اتجاه القبلة ! كررت عليه السؤال مع الرجاء ، فقال بتبرم : - أنا لا أصلي . . لا أعرف ، لكنني أشاهد الشباب في المنفردات يصلون بهذا الإتجاه . فصليت إلى حيث أشار وظهري إلى الباب ، فكان قلبي ينتفض من الرعب طوال الصلاة خشية أن يفتح أحد العناصر علي فيراني وأنا أصلي ! فيحدث ما لا تحمد عقباه ! وبالفعل . .

وبينما أنا في صلاتي فتح السجن ابراهيم الطاقة ليعطيني الإفطار ، فلما رأي أصلي قال بما يشبه السخرية : - شو . . عم بتصلي ؟

فلم أجب ، ولكنني أحسست أن قلبي قد سقط بين يدي ، غير أن الله سلم ، ومضى إبراهيم فأكمل توزيع الفطور على الزنانات الأخرى ثم عاد ففتح وسألني باستهزاء : - خلصتي ؟ الله يتقبل ! هزرت برأسي دون أن أجب ، فاكتفى بدفع طبق الطعام إلي والذهاب . . ولم يكدي يفعل حتى فتحت الطاقة من جديد وكان القادم هذه المرة أبو محمد . . الرجل الذي ترفق بي لأدخل الزنانة ليلة أمس ، فسألني : - ألا تريد الخروج إلى الحمام ؟ أشرت بالإيجاب ، فلما فتح باب المنفردة أطلت على الممر برأسي فما وجدت أحدا . . سألته : - مالي لا أسمع صوتا هنا ؟ وهذه صديقتي ملك ألم تنزل من التحقيق ؟ قال : خرجوا . . كلهم خرجوا ، وما بقي إلا أنت ورفيقتك الثانية - يقصد ماجدة . - قلت بدهشة واضطراب : وأمي ؟

قال : أنت ورفيقتك وأمك فقط . . صفوكم ! أحسست أنها النهاية وأنها راحت علينا . . خرج الجميع وبقينا نحن . . إذا فهي النهاية ! سألته وأنا أشهق بالبكاء : - ولماذا أخرجوهم ولم يخرجونا نحن ؟ أنا لم يثبت أي شيء علي . . أنا بريئة .

أطرق وهو يقول : والله لا أعلم . . إسألهم ، أنا هنا مجرد موظف . 43

ثم غير مجري الحديث وقال : - أتريدون أن تأكلي . . أأست جائعة ؟ أنا أحضرت فطوري الخاص معي : زبدة ومربى وأشياء أخرى . . أأكلت منهم وزاد معي قطعة . تذكرت وقتها أنني لم أكن قد أأكلت شيئا إلى ذلك الوقت من قبل ، لكنني لم أشأ أن أأكل طعام غيري أيضا ، فشكرته واعتذرت . . ثم لما اشتد علي الجوع في اليوم الثاني بدأت أأكل القشرة الخارجية للضمون الذي يحضرونه لأن الداخل عجيب كله . . وقطعة الجبن التي لا يحضرونها إلا نادرا بطبيعة الحال ، وعلى هذه الحال بقيت طوال فترة بياتي في المنفردة ثمانية أيام بالتمام والكمال !

"الخط" ورعاه البقر !

طلع صباح أول أيامي في سجن كفر سوسة وأنا لا أزال قابعة أترقب في زنانتني المجهول بوجل ، وأطل على أحداث الأيام التي مضت مصدقة ومكذبة ! تلفت أتأمل "مسكني" الجديد فإذا به أشبه بالقبور منه إلى أي شيء آخر ، وعدا الصراصير التي كانت لا تزال تبحث بمجساتها المقرفة عن شيء رطب تفتت عليه لم أستطع في البداية أن أجد على الجدار القائم شيء ، لكن تسرب بعض الضوء واعتياد عيناى على الظلمة جعلني أبصر خطوطا مميزة بعض الشيء وشعار "الله أكبر ولله الحمد" محفورة أكثر من مرة وحولها أسماء أشخاص عديدين مروا على هذا المكان التعس قبي . . وكان ثمة نقش لمسجد كتب حوله "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وأسفل منه اسم الشخص الذي نقشه على الأغلب . . كذلك لمحت خريطة لفلسطين وتحتها عبارة "الله أكبر ولله الحمد" ! لم تكن أكثر من ساعتين على صلاة الفجر قد مضتا حين بدأت دورة يوم جديد من أيام السجن تأخذ مجراها . فكما الكلاب تفعل كان المحققون والجلادون والسجانون لا ينامون إلا إذا دنا الفجر ويستيقظون وقت الضحى ! وسرعان ما بدأت الشتائم واللعنات وعبارات الكفر بالله تختلط

44

بفرقة الكبلات على ظهور السجناء يقتادونهم إلى الحمامات أو إلى "الخط" بلغة السجن المتداولة . كان (ياسين) المجند العلوي المتطوع أحد أجهل خلق الله وأغابهم يتصدر لهذا العمل على الدوام ، فتراه يمسك بالكبل بيده ويتفرس في طابور المعتقلين المتجه نحو الحمامات لبرهة ، ثم لا يلبث أن ينقض على المساكين لطما ولسعا يسليخ جلودهم كالدواب .

. والويل كل الويل لمن كان يجرؤ وبصيح من الألم . . فجزاء ذلك مضاعفة العذاب حتى لا يعيدها ثانية! وسرعان ما انطلق صوت أمي من زنزانتها تنادي عليه : -
يا ولدي . . هل تظن أنك لا تزال في الضيقة التي جئت منها وهؤلاء قطع من البقر الذي كنت ترعاه ! ولم يكن ياسين ليرضى أن يقطع متعته الصباحية شيء فاستمر يجلد الشباب ويتلذذ في خلق هذا المشهد الرهيب . . وأمي تطرق الباب بأيديها وأرجلها وتبكي ألما عليهم وحسرة وليس من مجيب ! ولم تكذنته هذه المأساة ويهدأ المكان بعض الوقت حتى كان موعد التحقيقات قد جاء ، وعاد صراخ المعذبين وصيحات العناصر وشتائم المحققين تفرع اذنانا وتذيب منا القلوب ، ثم وكما بدأت بلا مقدمات خفتت الأصوات من جديد ، ولم ألبث أن وجدت باب الزنزانة يفتح وأحد العناصر يدعوني للذهاب إلى الحمام ، فلما أصبحت هناك وجدني وبدأت اللوضوء وكل ظني أنني قد أغلقت الباب بإحكام علي فوجئت بوالدتي أمامي ، فادهشتها المفاجأة مثلما ادهشتني . . واندفعت من فورها تحيطني بذراعيها وتسالني وهي بادية الإضطراب : - قتلوك ؟ عذ بوك ؟ قلت أريد أن أخفف المصاب عنها : لا . . أنا بخير . لكنني كنت وقتها أضع رجلي على الحوض وأغسلها للوضوء ، فأشارت مفاجئة إليها تقول :
45

-ولكن ما هذا ؟ رجلك كلها زرقاء وأصابعك مزرقاة أيضا ولا تكاد تظهر ! هل أذاك أحد؟ هل مسك أحد ؟

قلت من جديد : لا . . الحمد لله ما مسني أحد . سألتني وكأنا في سباق مع الزمن : ولماذا أمسكوك إذا ؟ قلت : والله لا أعرف . . يريدون أخي صفوان ويريدونني أن أدلهم عليه . فأخبرتني هنا أنها أجابت في التحقيق كما أجبت بأنه يدرس في الباكستان ، فشعرت بارتياح لتطابق كلامي مع كلامها ، ولكنني وجدتها تتركني وتخرج إلى الممر ندعو عليهم بأعلى صوتها ، فحضر حسين راكضا وهو يصيح بالعنصر الآخر : - كيف جعلتها تدخل والأخرى لا تزال هناك ؟ ألا تعلم أن اجتماع أكثر من شخص هناك ممنوع ؟ أجاب العنصر الذي أحضر أمي : لم يكن لي عالم بوجود أحد آخر . . لماذا أغلقت أنت باب المنفردة التي كانت فيها ولم تتركه مفتوحا لأعلم أنها لا تزال في الخارج ؟
واقناد كلاهما والدتي وهي لا تكف عن إطلاق دعواتها عليهم ، ولم تتح لي رؤيتها ثانية إلا بعد أيام ، ولم تتح لي معرفة سبب وكيفية اعتقالها إلا حينما اجتمعنا في المهجع بعد انتهاء التحقيق . . فقصت علي - رحمها الله - ما جرى بالتفصيل .
الكمين !

كانت والدتي - عليا الأمير - قادمة من حماة لتحضر لي بعض أغراض كنت قد نسيتهما أثناء الإجازة هناك ، ولتكمل بعدها إلى الأردن حيث استقر أخي صفوان مع كثير من الشباب الملاحقين بتهمة معارضة الحكومة والإنضمام إلى تنظيم الإخوان . . ومع والدتي حضرت أسرة ال مرقة ترافقها لزيارة ابنهم المقيم في عمان لنفس السبب . قالت والدتي 46 - استيقظ أبوك ليلة اعتقالك على منام مزعج أولمه شرا أصاب أخاك صفوان ، فقال لي اذهبي وا نظري أحواله ، فمضيت يرافقني ال مرقة وقد اتفقنا على المبيت عندكم ليلتها والتحرك إلى عمان في اليوم التالي . ، ولما وصلنا قرب بيتكم في دمشق وبت على خطوات من مدخل البناية سمعت صوتا ياتيني ويقول برجاء ظاهر : يا خالتي ارجعي . . لا تدخليني ! كان أحد الجيران ينادي من جهة لا أراها ويحذرني من الصعود بعد أن تم اعتقالكم قبل ليلة ، ولكنني لم أرد وما ظننت النداء كان لي ، فما أن طرقت الباب حتى استقبلتنا الرشاشات وأيدي جذبتنا إلى الداخل بغلظة ، ووجدنا أنفسنا بعد ساعة زمن في سجن كفرسوسة !

أحكم الأحكام . .

كنت وأمي تحدثني عن اعتقالها لا أقل تأثرا وحزنا على حالها من تأثري وأمي على حال هؤلاء المساكين أسرة عمر مرفقة الذين اعتقلوا معها ، فوالدهم لم تكن قد أفقت بعد من صدمة مقتل ابنها أيمن 18 سنة وأخته مجد 14 سنة حينما رشهما الخابرات في الشارع انتقاما من أهالي الملاحقين وحسب ! وكانت الأم حتى هذه الفترة فاقدة لتوازنها العقلي وقد نزعت حجابها وعصبت رأسها بعصابة تشد بها على الألم . . فلما وجدت نفسها قيد الإعتقال المفاجيء انهارت المسكينة . . وكنت وأنا في أول ليلة لي في المنفردة أسمع المحقق يصرخ في أذنها بأعلى صوته فيصل الصوت عندي وهي كالبلهاء لا تجيب . . وأما الزوج فكان أسوأ حالا وقد جاوز المسكين السبعين من عمره . . تجره والأم ابنتاهما اللتان اعتقلتا معهما وأغمي عليهما على باب المحقق ، فاضطرت والدتي أن تصفعهما لتفيقا ! وعندما لم يجدوا ما يهمهم من التحقيق مع هؤلاء البؤساء أرسلوهم للمبيت في القبو تلك الليلة ، لكن ولاغتصاص المكان ليلتها بالمعتقلين لم يجدوا مساحة يضعون العجوز فيها فتركوه بهرمة وشيخوخته

ينام على أرض الممر أمام منفردتي ، فكنت أدعو الله أن يخفف عنهم المصائب التي تتوالى عليهم واحدة بعد الأخرى . . وأما والدتي فقد جابتهم من البداية ما شاء الله بحزم . . قال لها المحقق : -خبرينا عن ابنك المجرم . . أين هو؟ فقالت : أنا ما عندي ابن مجرم . . دير بالك ها !

قال لها : ماذا لديك إذا ؟ مجرم ومغرر بإخواته أيضا على طريق الإجرام . . قالت : أنا لا أعرف نفسي إلا أنني ربيت ابني من الجامع إلى البيت ومن البيت إلى الجامعة . فقال لها ساخرا : الله يعطيك العافية . . تعيشي وتربي ! إذا لا تريدي أن تحكي . . والتفت إلى أحد العناصر وقال له : ضعها على الفلقة . فقالت له : كتر خيرك . . أنا في سن أمك وتضعني على الفلقة ؟ قال لها : ولكنك ما تكلمت .

قالت : وماذا تريدني أن أقول ؟ لا الذي يصدق بسلك معكم ولا الذي يكذب ! فتركها - سبحان الله - ولم يعذبها . . وكانت لا أدري كيف تقوم طوال فترة اعتقالها فتشد معهم وتواجههم وتدعو عليهم وكانوا مع ذلك يراعونها من دون جميع السجينات والسجناء الآخرين . . وكانت لا تكاد تنام لا في الليل ولا في النهار ، وتراقب كل صغيرة تجري وكبيرة فلا يفوتها شيء ! وفي بداية اعتقالها في المنفردة كانت تنادي أبا عصام مدير السجن - وهو من درعا - وتسأله : - ماذا فعلت أنا . . ولماذا تعتقلونني ؟ فيجيبها : أنا لا علاقة لي بذلك .

فترد عليه وتقول : بل بيدك كل العلاقة . . أنا أريد أن أرفع كتابا لرئيس الفرع ، أعطني ورقة وقلما . فينهرها وهو يكرر عليها : -ممنوع . . لا تصل . . مخالفة للأوامر . . 48 فيصيبها القهر وبشدد بها الغيظ وتنادي داعية عليه : شكيتك لواحد أحد . . لأحكم الحاكمين . . وإن شاء الله تقعد قعدتي وما بتصبر صبري . وسبحان الله لم يمر شهر أو شهران حتى قتل هذا الرجل كما بلغنا حادث سيارة . . ودخل المقود في بطنه . . وسمعت أمي بموته قبل أن تموت

رهائن !

ولقد استمر الكمين من بعد اعتقال أمي ومرافقيها ، فاعتقلوا من زميلات السكن ومن الزائرات من غير أي تهمة أو علاقة أكثر من عشر أشخاص : -فاطمة : من قارة ، طالبة تسكن معنا . - سوسن س : خريجة طب أسنان من حلب كانت في سنة التدريب بعد التخرج وتسكن معنا . أختين من ال جاموس إحدهما كانت تسمى منى فيما أذكر ، وهما طالبتا علوم من التل وتسكنان معنا أيضا . - يسرى ح : وهي أردنية كانت تدرس في جامعة دمشق كلية العلوم الطبيعية وتسكن معنا ، وقد اعتقلوا والدتها أيضا التي كانت في زيارة لها أيام الإمتحان . مها أ : طالبة طب في دمشق وهي فلسطينية لبنانية . طالبة أخرى من

اللاذقية من ال دروبش . كذلك اعتقلوا عادة ع طالبة جامعة تسكن معنا كما اعتقلوا أخاها وصديقا له حضرا لزيارتها فاعتقلا معا . والذي حدث أنهم أخذوهم إلى التحقيق جميعا بعدما انتهوا مني ومن ماجدة واحدة بعد الأخرى ، فلما لم يجدوا فائدة من احتجازهم أطلقوهم . . لكنني ومن شدة تعبي والامي لم أحس ساعتها بما حدث رغم أنني كنت يقظة متنبهة طوال الليل 49

أمسوا الإضراب

لم ينته اليوم الثاني علي من غير تحقيق جديد . . كنت خلال ساعاتي التي مضت في السجن قد أدركت مجمل ما يدور حولي ، وتذوقت في أول قدومي أشد العذاب وأبشع التهديدات ، فلما نادوني للتحقيق من جديد لم يكن هناك ثمة جديد ! أعادوا طرح نفس الأسئلة وتوجيه نفس الإتهامات بنفس الطريقة ونفس الأسلوب . . وعلى مدار أسبوع كامل استمر البرنامج نفسه ، ولم يتغير فيه إلا طريقة الضرب بعض الشيء ! فمع الضرب بالخيزران والعصي أرادوا مرة أن يضعوني على الدولاب فلم يكن على مقاسي ، فصار المحقق يعوض عن ذلك بالضرب بالخيزرانة وأنا واقفة ، فطال بذلك كل جسدي ، وزاد من بقع الألم وأثار المعاناة ، ولكن شيئا في الأسئلة أو الإجابات لم يتغير ! أما في المنفردة فكانت المتغيرات مستمرة هناك . . والمشاهد المفجعة والحوادث المحزنة لم تتوقف : كانت استغاثات السجناء لا تكاد تكف ليلا أو نهارا . . والويل كل الويل لمن يضبطه العناصر وهو يصلي ! كانوا يمرون عليهم بلا ميعاد ، فإذا ضبطوا أحدهم من الطاقة يصلي أخرجوه فأوسعوه ضربا وتعذيبا بلا رحمة ، وأما الكفر بالله والشتائم البذيئة فكانت ديدنهم حتى عندما يتخاطبون فيما بينهم ، لكنهم لم يكونوا ولله الحمد يضربوننا نحن النساء على ذلك ، وكنا نتمكن من الصلاة حتى تحت مراقبتهم . وكنت في بعض الأحيان أعطي ماجدة بعض الإشارات بالضرب على الجدار بيني وبينها ، وإذا تأكدنا من خلو المكان من العناصر كنت أكلمها وتكلمني عبر الجدار ، وأذكر أن عنصرا أحس بنا مرة تتحدث في الليل فنهض بسرعة وأتى نحونا يصيح : - أنا أسمع صوتا . . من هذا الذي يتكلم ؟ وحتى لا تكون سببا في تعذيب أحد من الشباب قالت ماجدة بثقة : - أنا . فسالها بغضب : مع من ؟ قالت : مع صديقتي . . أهو حرام 50

ومرت الحادثة ولله الحمد بسلام . وأما والدتي فلم تكن تدخر فرصة للإتصال بي إلا واغتنمتها . . حتى ولو كلفها ذلك الكثير . كانت كلما أرادت أن تخرج إلى "الخط 11 توقفت عند زنراني وتعلقت بقفلها لا تريد أن تتزحزح حتى يفتحوا لها فتراني وتحدثني ولو كلمتين ، فإذا ملوا أحيانا من سحبها ومدافععتها فتحوا لها الطاقة وقالوا : - هيا شوفيها ولكن بلا كلمتين . . فترفض وتطلب أن يفتحوا الباب لها . . فيقولوا : ممنوع . ولم تلبث في اليوم الثاني من اعتقالها وبعد خروج بقية البنات من دوننا أن أضربت عن الطعام وعن الخروج إلى الحمام وحتى عن النوم حتى تراني . . ولم أدر بذلك إلا عندما حضر أبو عادل رئيس النوبة يقول لي : - إذا التقيت أمك مرة ثانية فأعطيها دروسا في الدين . . قولي لها إن لجسدك عليك حقا . . ألم تدرسي ذلك في الشريعة؟ خليها تأكل . قلت له : هي أم وأنت تعرف كيف يكون قلب الأم . . والحق معها . وفي اليوم الثاني ومع استمرارها بالإضراب أتى الأمر بالسماح لها أن تراني وأراها ، فجاء أبو عادل ثانية وأخذني إلى زنرانتها وهو يذكرني بحديث الأمس ، وقال وهو يدفعني إليها : - مثلما اتفقنا . . قولي لها . . قلت له : ماذا أقول ؟ هي حرة . قال : ألا تريد أن تساعدنا لتفك إضرابها ؟ قلت : ماذا يمكن أن أفعل . . ألا ترى وضعها ؟ الله يعينها ويساعدها . فالتفت إليها بغیظ وسالها : هل رأيت ابنتك ؟ ولم تكن رفعت نظرها إلي طوال ذلك الوقت لتقهرهم . . فقالت : لا . فقال : إذا ماذا تريدین ؟ والله حيرتینا ! قالت : أنت تعرف ماذا أريد . . وحتى يأذن الله . . هو أحسن منكم جميعا وهو أحكم الحاكمين . . وهو قادر على أن يقصف رقابكم ! 51

فلم يجد ما يفعله إلا أن يضحك بغباء ويقفل الزنزانة عليها ويعيدني أنا لزنزانتني من جديد ، لكن إضرابها كان - والله أعلم - سببا للتعجيل بإنهاء التحقيق معنا ونقلنا بعد ثمانية أيام قضيناها في المنفردة إلى المهجع ، لننضم هناك إلى بقية النساء المعتقلات .
إلى المهجع

لم نكن خلال الأيام الثمانية قد رأينا أبا من المعتقلات أو اتصلنا بهن باستثناء منيرة التي فتشتنا أول وصولنا ، لكنهن كن قد رأينا من شق صغير في طاقة باب المهجع وعرفن بوجودنا كما أخبرتنا لاحقا ، وذات مرة وأنا في طريقي إلى الحمام رأيتي الحاجة مديحة إحداهن بجلبابي الأسود أعبر من أمام مهجعهن فدقت الباب تنادي أحدا من العناصر ، فلما جاءها حسين بادرته قائلة : -أريد أن أنفض البطانية . . افتح لي ! فأدخلني الحمام بسرعة ليخرجها ، فصارت تتحدث بصوت عال لنسمع صوتها ونعلم بوجود نساء وتصيح : فلانة . . هيا تعالي نظفي البطانية معي . . ثم مضت كعادتها تحاول استدراج حسين وسألته : - كان هناك أحدا في الحمام . . أنا أسمع صوت نساء ! أجابها وقتذاك : لا . . لا يوجد أحد . . لو أن هناك نساء لأتينا بهن إليكن . لكنها استمرت تلج عليه حتى ضجر وسألها : -خبريني أنت . . ماذا على بطانيتك ؟ لك ساعة تنفضين فيها ! قالت : صرصور . . والله ما عرفنا وين راح ! قال لها : إي يالله ادخلي وخلصيني . . فعادت وهي تلم البطانية تساله بصوت خافت : - هناك نسوان أليس كذلك ؟

52

فأجابها أخيرا : نعم . . وبكرة سيأتون إليكم فاطمئني . لكنها عادت تسأله : ألا تعرف من أين ؟ فأجابها : بكرة جابين لعندكم وستعرفي . . وتجلسوا يتحدثوا معا حتى تشبعوا حكي ! ثم أدخلها وأرجعني المنفردة ، لكنني كنت أسمعها وأنظر بين حين وآخر إليهما بدوري من شق باب الحمام ، فاستأنست بذلك بعض الشيء واطمأنتت إلى أن هناك نساء غيرنا في هذا المكان الموحش . . وفي اليوم الثامن وبينما أنا في المنفردة جاء مدير السجن وأعطاني استمارة معلومات عامة عن الإسم وتاريخ الإعتقال وسببه وعدد الأيام التي أمضيت في المنفردة . . فأجبت بشكل عادي وكتبت أنني اتهمت بالإتماء إلى تنظيم الإخوان ووقعت ، وبعد حوالي نصف الساعة حضر حسين وفتح الباب بسرعة وطلب مني القيام ، فسألته وقد ظننت أنها جولة أخرى من التحقيق والتعذيب والأخذ والشد والإتهامات : - إلى أين ؟ إلى التحقيق ؟ قال : لا . قلت : إلى الإعدام ! قال : الان سترين . قلت له : إذا كان الإعدام فسيكون أريح ! فأجابني ساخرا : لا . . لن نعدمك الان . قلت : وإذا فمتى ؟ قال بلؤم : حتى تعترفي أنك منظمة . قلت له : طيب . . هل تعدمونني فعلا إذا اعترفت ؟ قال : اعترفي أولا والأمر بعد ذلك بينك وبين رئيس التحقيق ! أخرجني من المنفردة وساقني عبر الممر إلى باب اخر كبير وأسود فقلت لنفسني : خلاص . . رحتم فيها . . إلى التعذيب من جديد ! فلما فتح الباب ودفعني باتجاه الداخل مددت رأسي بحذر فرأيت المكان مليئا

53

بالنساء وكلهن يضعن شاشيات صلاة بيض على رؤوسهن فارتحت قليلا وخطوت نحوهن سلمت ، ولكن الخوف كان لا يزال يملكني ، فيما أغلق السجنان الباب ورأيتي وعاد بعد هنيهة بأمي وماجدة فأدخلهما وعلقها إلى السقف من يديها المكبلتين خلف ظهرها ، ومضى يعذبها على ومضى ، وجعلنا في البداية نتلفت حذرات خشية أن يكون بين هؤلاء النسوة جاسوسة أو مخبرة ، ولم تلبث أمني أن انفجرت بالبكاء في اللحظة التي اندفعت أنا نحوها وعانقتها ، وكأنها أحست أنهم وضعونا في المهجع ولن يخرجونامننا إلى الأبد . . فجعلت تزداد بكاء وتدعو عليهم بحرقه وتجهربالدعاء . . في تلك اللحظة تقدمت واحدة من النساء وهي تمد إليها يدها وتقول : ابوي . . لا تبكي ولا على بالك . . حطتي إيديك ورجليك بمي باردة واقعدي . . ولاراحة لمؤمن لإبلاءعربه ! كانت هذه هي الحاجة مديحة .أول من دخل

السجن من النساء كانت الأيام التي أمضيها معها أكثر من كافية لنسبع منها ومن بقية السجينات حكاية اعتقالهن وقصص تعذيبهن ومآسيهن .

تعزية . . . وتعذيب . . . وقص اللسان!

كانت الحاجة مديحة في الأربعينيات من عمرها ، وهي امرأة معروفة في حلب تدرس النساء دروسا في الدين على الرغم من أنها تكاد تكون أمية لاتقرأ أوتكتب وكانت قد جعلت من بيتها قاعة سكن فيها بعض الملاحقين ، وبينما كانت ذاهبة إلى موعد خارج البيت لتسليم رسالة ألقوا القبض عليها نتيجة فسادة من سامح كيلاني - عيمل المخابرات الأخرى جاسوسهم داخل تنظيم الإخوان - وحملوها مباشرة إلى فرع مخابرات أمن الدولة ، وهناك ازدادت نقمة رئيس الفرع عمر حميدة عليها حينما استطاعت رغم التعذيب الشديد أن تراوغهم فترة كافية تمكن الشباب في بيتها من الهرب بعدمضي فترة أمان كانوا متفقين عليها فيما بينهم . . . ونتيجة جرأتها وصلابة ردودها ازداد حميدة غيظا منها فختم لها

54

حفلة التعذيب بأن قص لها طرف لسانها بالمقص . . . وفقدت قطعة منه بالفعل ! ولقد قصت علينا أن حميدة عراها في البداية من ملابسها وعلقها إلى السقف من يديها المكبلتين خلف ظهرها ، ومضى يعذبها على هذه الحالة ويسمعها أقذع الشتائم وأبشع العبارات . . ثم أمر بإحضار أخيها الأصغر وعرضها عليه بهذه الحالة وسأله : هل عرفتها؟ قال الولد بصدق : لا . . من هذه ! أجاب حميدة بتشفي : أختك مديحة . فأغمي على الولد فورا ولم يعد يحس بشيء ، وأعادوه إلى البيت وهو لا يزال في غيبوبته . . واستمرت حفلة التعذيب ساعات عديدة تأكدت بعدها أن الشباب غادروا البيت كما يفترض فدلتهم عليه ، ولما لم يجدوا هناك إلا آثارهم وحسب عاد حميدة غاضبا يقسم أنه سيقص لها هذا اللسان الذي كذب عليهم وخدعهم . . وقصه بالفعل ! لكنها ولله الحمد شفيت بسرعة وعاد اللسان فمما بشكل طبيعي ، بل إن مدير السجن المدني بدوما المقدم عماد وكان سييء الخلق جدا قال لها بعد ذلك بسنوات : - قطعنا لك لسانك ليقل كلامك فلا أراه إلا ازداد طولا ! وبعد اعتقالها الذي كان قد مضى عليه نحو الشهر أتوا بها إلى كفر سوسة مرورا بسجن المسلمية بحلب مع مجموعة السجينات الأخريات : أم شيماء ، وزوجة عبد العزيز سيخ ، وعائشة ق . فيما أفرجوا عن عدد آخر من البنات والنساء كانت بينهن - فيما روبن لنا - سناء و وكانت تسكن مع الحاجة مديحة وتلازمها في بيتها ، ولذلك كانت تدعوها الحاجة ابنتها ، وزوجة عبد القادر حربلي ووالدتها من بيت القطان ، وسيدة أخرى وكانت عروسا في شهرها السادس وفي السادسة عشرة من عمرها ، أمسكوا زوجها نتيجة وشاية من سامح كيالي أيضا وجعلوا يعذبونه ليعترف بمكان القاعدة التي اتهم أنه يديرها ، فلما لم يفعل 55 أحضروا الزوجة بأمر من حميدة أيضا واعتدوا عليها أمامه قبل أن يرسلوه إلى تدمر فيقتل لاحقا هناك في المجزرة الكبيرة التي جرت . . وأفرجوا عن المرأة وقد سقطت عنها كل الإتهامات !

وترك لها جوربان

تقدمت الحاجة مديحة تخفف عن أمي وعنا ، وتبعثها بقية البنات : أم شيماء ، وعائشة ق . ومن ورائهما كانت منيرة التي فتشتني أول دخولي تنظروا تبتسم ! وأما عائشة فهي طيبة من حلب قامت بعلاج جريح من الشباب الملاحقين فبلغ النبا المخابرات واعتقلوها من بيتها ، وقالت لهم وقتها إن أشخاصا أتوا إليها كأى طبيب وسألوها أن تعالج جريحا ففعلت ، ولم تسألهم عن هويتهم لأن مهمتها الإنسانية خدمة الناس لا التحقيق معهم ، لكن جوابها لم يرق لهم ، واعتقدوا أنها تداوي كل جرحى الملاحقين ومصائبهم ، وقد تولى التحقيق معها

مصطفى التاجر أول الأمر فسألها في البداية : -أترضي أن تبقى بلا حجاب ؟ قالت : لا طبعاً . . قال : فما رأيك إذا أن تبقى بلا جلاباب ؟ فانتفضت تتطلع إلى مكان تلتجئ إليه ، لكن المجرم لم يترك لها فرصة وهجم عليها كالوحش يصفعها ويضربها وهو يمزق ثيابها قطعة بعد قطعة وهي مكبلة تقاوم بكل ما أوتيت من قوة دون أن تستطيع الدفع . . فلما مزق كل شيء ووصل إلى جواربها قال لها : -سأتركهم عليك حتى لا تبردي ! وأمر فمددوها على "بساط الريح " ومر عليها بكافة أنواع التعذيب : الخيزران والعصي والكهرباء . . علاوة على نزع نظارتها الطبية وحرمانها من استعمالها فترة من الزمن . . ثم أتى دور عمر حميدة فأجلسها على كرسي وقد كبل أيديها وأرجلها من الخلف ببعضهم البعض وجعل يطفىء أعقاب

56

السجائر فى اعف منطقته بيدنها ليطفىء بعضا من نيران حقه الاسود ويودعها الزنزانه من ثم بضعه ايام قبل ان تنقل مع بقية المجموعه الى كفر سوسه فنون التعذيب !

كانت إيمان ت . "أم شيماء" راجعة إلى بيتهم مع زوجها وابنتها الرضيعة شيماء وكانت في الشهور السبعة أو الثمانية من عمرها ، وعندما بلغوا مدخل البناية لاحظوا مؤشرات غير طبيعية في المنطقة ، فتقدمت إيمان ووضعت المفتاح في القفل لتفتح ، فيما كان الزوج والطفلة معه ينتظر أسفل الدرج ، فما أن فعلت حتى أحست كما روت من بعدصوت تلقيم السلاح من الداخل ، فأعطته إشارة سريعة بالهرب ، في الوقت الذي فتح عناصر المخابرات الباب بسرعة وأمسكوا بها وسحبوها إلى الداخل ، وفي إحدى غرف البيت دخل عليها رئيس الدورية يسألها عن زوجها وعن الشباب الذين كانوا معها في البيت لأنهم دخلوه ولم يكن فيه أحد ، وهؤلاء جميعا أبلغ عنهم سامح كيالي ، فقالت إنها لا تعرف شيئاً ولا تعرف أين ذهب زوجها ولا من كان معه ، فجعل يهددها بالإعتداء عليها إن لم تبلغه المعلومات فأصرت على الإنكار ، فنفذ تهديده بالفعل وحاول فعل ذلك ، لكنها قاومته بشدة وراحت تتصارع معه فأنجاها الله وألقى في قلبه الرعب فلم يتمكن منها كما أراد . . وبعد ذلك نقلوها إلى الفرع عند عمر حميدة الذي اتبع نفس الطريقة معها ، فشبحوها في السقف بأن كبلوا أيديها خلف ظهرها وعلقوها منهما مرفوعة عن الأرض فكأنما هي الذبيحة بين يدي الجزار ، وجعلوا يضربونها ويعذبونها وهي على هذه الحالة لا حول لها ولا قوة ، ثم وضعوا لها الكهرباء في صدرها والحليب يقطر منه زيادة في التعذيب والإهانة . . وبعد انتهاء التحقيق ومن غير أن تدان المسكينة بشيء نقلوها إلى كفر سوسة مع عائشة والحاجة مديحة ، لنجتمع وياهن في هذا المهجع المقيت !57

سحل القتل

أما رابعة نزيلات المهجع وقتها فكانت أما من إدلِب لأربعة أو خمسة أولاد من إدلِب اسمها فوزية ح . هذه السيدة استشهد زوجها وهو يقاوم أثناء مدهامة قاعدتهم بحلب ، وقامت السلطة بعد مقتله بسحل جثته أمامها بالدبابة في شوارع المدينة ثم اقتادوها للسجن وعذبوها أشد العذاب . وعلى الرغم من أنها لم تتحدث عن ذلك كثيراً وكانت من النوع الذي يؤثر الصمت إلا أننا بقينا نرى آثار التعذيب على أرجلها والزرقة مكان أظافرها المقلوعة إلى حين ، وبقيت فوزية في الشهور الأولى معتدة على زوجها لا تكاد تكلم أحداً وتسارع كلما فتحو الباب أو الطاقة فتغطي رأسها بالبطنية وتدير وجهها إلى الجدار .
أبناء النظام ضد النظام !

هؤلاء كن السجينات الأربع المتهمات بالانتساب أو التعاون مع الإخوان ، وأما الخامسة منيرة كامل مصطفى فكانت من تصنيف آخر وحال مختلف : كانت البنت التي لم تجاوز الثامنة عشرة من عمرها واحدة من بنات القرى الساحلية العلويات ، شكل والدها وأخوتها وبعض

أصدقائهم تنظيماً ضد الدولة شيوعي التوجه وصاروا يصدرن منشورات تحض على كراهية النظام ، وكانت معتقلة مع أخيها أيضاً الذي لم يكن يجاوز السادسة عشرة من عمره ، فاعتبروهما مجرد مراهقين يقومان بأعمال طائشة ، وقالوا بأنهم سيتركونها في السجن حتى يكتمل عقلها وينضج تفكيرها ، لكنهم كانوا متساهلين معها إلى أبعد الحدود ، فسمحوا لها بالزيارات ، وبإحضار جهاز راديو إلى زنزانتها ، وبزيارة أخيها في القسم الجنوبي من السجن ومقابلته ، وعندما عرف الشباب المعتقلون معه بذلك صارون يقسمون زياراتهم (أي الأغراض التي تأتي لهم في الزيارات المتاحة) ويرسلون قسماً منها مع منيرة إلينا وكنا في البدايه نشك بها 58

جميعاً ونحذر أن تكون متعاملة مع المخابرات ، لكنها كانت لطيفة جداً وطيبة القلب ، حتى أن الحاجة مديحة سألتها مرة بين المزاح والجد : - نحن لن نبين لك أي شيء ولن نتكلم أمامك عن وضعنا لأننا نخاف أن تذهبي إلى المقدم وتحكي له . . فأجابته منيرة بطيب خاطر : تأكدي تماماً أنني لست من هذا النوع ، ولو كنت لما وجدتي معكم هنا . وعلى الرغم من أنها ظلت متمسكة بشيوعيتها بعد العديد من المناقشات بينها وبين البنات ، إلا أنها كانت تحترم تديننا ، فكانت تخفض صوت الراديو إذا كنا في صلاتنا أو تلاوتنا وتراعي مثل هذه الأمور ، وعندما أضربنا في وقت لاحق شاركت معنا ووقفت إلى جانبنا حتى النهاية . هافي طاقة !

هؤلاء كن صحبة المهجع الأوائل ولشهور عدة قبل أن يفد نزلاء جدد ويغادر البعض من بعد . . أما المهجع نفسه وهو الثاني في التسلسل العددي لمهاجع القسم فكان عبارة عن غرفة متوسطة الحجم ثمة حمام على يسار الداخلين إليها فوّه دوش ولكن من غير باب ، ولحل ذلك مددنا حبلًا استخرجناه من وسط إحدى "التنورات" التي معنا وعلقنا عليه إحدى البطانيات القليلة التي أعطونا إياها كحاجز . وكان الحمام يحتوي أيضاً على سخان كهربائي خصوا به مهجع النساء فقط ، فلم تكن لمهاجع الشباب لآحمامات ولا سخانات ولا حتى صابون ماء ! ولكن ذلك كان سبباً لكي يخرج الشباب مرتين أو ثلاث إلى "الخط" أو إلى الحمامات بعد كل موعد طعام ، وأما باب مهجعنا فلم يكن بابه يفتح غالب الأوقات ، ولم يكن له منفذ آخر غير فتحة تسمى نافذة اصطلاحاً وهي في الحقيقة مجرد فراغ بين أعلى الجدار من الداخل قريباً من السقف وبوابة السجن الرئيسية من طرفه الآخر على مستوى الأرض فيها ، وبين 59

الجهتين ثمة طبقات من القضبان الحديدية والشباك الخشن والناعم إلى درجة لا تسمح حتى بمرور الهواء نفسه وتحجب وصول أي شعاع ضوء ! ولذلك كنا في عز البرد نستغيث من الحرارة وانعدام الهواء النقي ، ونرجوهم أن يفتحوا لنا طاقة الباب أو أن يأتوا لنا بمروحة تحرك الأنفاس الراكدة على أقل تقدير ، فكان السجن يأسين على الأخص يرفض أن يفتح لنا الطاقة لتنفس ، فإذا رجته إحدانا ازداد تعنتاً وجعل يكرر كالألة على مسامعنا عبارة واحدة أثيرة لديه : - هافي - أي لا توجد - طاقة . فتقول له الحاجة : طيب أحضر لنا مروحة أو أي شيء يمكن أن يغير جو الغرفة فإننا نكاد نخنق . فلا يجيب إلا بنفس الإجابة : - هافي طاقة . . هافي مروحة . . هافي باب ! وكان يوم عيد لنا يوم أن سمحوا لنا بعد ثمانية أشهر من الإعتقال بالتنفس خارج جدران المهجع مرة أو مرتين في الأسبوع . . فيما لم يجيبوا طلبنا الثاني بشأن المروحة إلا بعد انقضاء أكثر من سنتين على الإعتقال . . وامتلاء المهجع بالنزليات حتى غص بهن ، وكدن من فرط المعاناة وشدة الإزدحام أن يقضين نحبهن !

الهمس ممنوع . . والزمن معدوم . .

والشكوى مذلة !

كانت الأيام تمر بطيئة ورتيبة . . وبدأنا لذلك نعتاد أن ننسى الوقت ونغفل عن جريان الزمن ! كنا لا نستطيع التفريق بين الليل والنهار ونصلي على التقدير . . ونحسب الأيام بتبدل

دفعات السجنين وبتباعد تاريخ اعتقال كل واحدة منا ، وأما ضوء المهجع الذي كان يشعل ويطفو من الخارج فكان يزيد تعميق الشعور لدينا بتساوي الليل والنهار . . وبالطبع 60 فلم تكن النافذة لتسمع عمقهما وتعدد طبقات القضبان والشبك فيها بالإشارة إلى أي تبدل في المواقيت أو الزمان ، علاوة على الظلمة التي تسود بطبيعة الحال في فصل الشتاء . وزيادة في إشاعة القلق الدائم والتوتر فينا لم يكن مسموح لنا بالكلام إلا همسا ، ومجرد أن يسمع أحد العناصر صوت واحدة منا كان يخط الباب بالكابل خبطة مرعية وهو يصيح بنا أن نخرس أو أن نخفض الصوت ! وعلاوة على ذلك كانوا إذا أرادوا مناداتنا لأمر ما خاطبونا باسم رجل لا بأسمائنا . . فكنت على سبيل المثال أنادى غالب الأحيان باسم محمد ! ويبدو أن أمي قررت بعد أسبوعين تقريبا من اجتماعنا في المهجع أن تكسر هذا الجو المرعب بطريقتها وتخرق أسوار الارهاب . . فطرقت الباب بلطف في البداية وسألت حسين أن يحضر لنا مصحفا فقال لها باستغراب : -وهل تظنين أنك في بيتك أو في قصر لتطلبي على كيفك ! ألا تعلمين أن المصحف ممنوع هنا؟ فسألته وهي لا تزال محافظة على هدوئها : لماذا ؟ قال بشراسة : لأنه لا توجد مصاحف هنا في الفرع . فقالت له : رأيتهم بعيني مكديسين في غرفة التحقيق وأصحابهم جالسين في المنفردات . وكانت تتحدث عن الشباب الذين أحضروهم يوم اعتقالنا الأول من المسجد دفعة واحدة ووجدوا معهم مصاحف حفاظ صغيرة فصادروها . . فأجابها بصلف : -لكن تلك المصاحف للحرق لا للقراءة ! فعادت ترجوه بلطف وتقول له : أعطنا واحدا منهم فقط ولن يراك أحد أو يحاسبك . . وحتى لو كان صغيرا فليست مشكلة . . فقال لها ممنوع وأغلق الطاقة . فعادت ودقت وكررت عليه الرجاء فأجابها نفس الجواب وصفق الطاقة بوجهها من جديد . فعادت ودقت بقوة فحضر عنصر آخر علوي اسمه ابراهيم فسألته نفس الطلب ، وكانت 61 أجابته كما أجاب من قبله : ممنوع . . المصحف هنا ممنوع . . فقالت له إذا أعطني ورقة لأقدم طلبا إلى رئيس الفرع . فقال لها: لا يوجد لدي ورق . . وبعد مفاوضات ومشادات كل ومل وأعطاها ورقة قدمت عليها طلبا للمقدم ، فأرسل ذلك وراءها وبهدلها وقال لها: لا توجد مصاحف هنا. وأضاف : لماذا تريدنيها لتقرأى وتدعى علينا فلما عادت وأخبرتنا بذلك قررنا الإضراب عن الطعام . . وامتنعنا عن استلام وجبتي الإفطار والغداء . . فهددونا إن لم نفك الإضراب بالعودة إلى المنفردات ، وقطعوا الماء عن المهجع زيادة في الضغط ، وكانت أول تجربة لنا فتوقفنا عن المطالبة وما عدنا تكلمنا بشيء وفي اليوم الثاني عادت أمي فطلبت ورقة وقلما لتقدم طلبا اخر للمقدم فحضر أبو عصام مدير السجن وسألها ماذا تريدين فقالت اننا نعاني ضيق الخلق ونريد أن نتسلى بالمصحف فقال لها ولماذا لا تتسلى بأشياء ثانية . قالت : مثل ماذا ؟ قال : كما يتسلى الشباب . . بشغل العجين قالت له : طيب علمنا . فقال لها: سأذهب فأسألهم لك وأعود بالجواب وبالفعل لم تمض حوالي الساعة حتى عاد أبو عصام ومعه مصحف قديم جدا لا أدري من أين أتى به ولكنه جيد وكبير فقسمناه من فورنا أجزاء أجزاء، وكانت لدينا كرتونة لا أدري من أين أيضا فغلطنا الأجزاء بها ورقمناهم وصرنا نتلو ونحفظ منهم ، وعاد عنصر بأمر من أبي عصام إلينا فعلمنا كيف يشتغل الشباب بالعجين . 62

اوراد 00 وأذكار 00 وتسالى

كان الشباب السجناء يأكلون من الخبز وجهها الناضج وحسب ويجمعون العجين من قلبه فيعجنونه مره ثانية اذا تكديست كميه كافية منه ويخمرونه بلعابهم ثم يعيدون عجنه حتى يصبح متماسك القوام فيصنعون به اشكالا وتمائيل مختلفه ومسابيح جميله جدا حتى ان رئيس الفرع احتفظ بطائرته من صنع الشباب فى مكتبه ظننتها اول ما رايتها هناك مصنوعه من الفضة وكان العناصر يحضرون للشباب الوانا يستخدمونها ايضا فى تجميل انتاجهم لياخذوه منهم آخر الامر بالتأكيد وهكذا دخل حياتنا الرتيبه عنصر جديد وبدانا بصنع المسابيح

اول الامر فكنا نمضى ساعات نعرك فيها العجين ونخمره ونكوره ثم انتقلنا بعدها الى صنع الاطواق وعلاقات المفاتيح والاشغال البسيطة وعندما تطورت خبرتنا ادخلنا التلوين بطريقتنا الخاصة فصرنا نطلب من بعض العناصر ان يعطونا طحل القهوة او بقايا لنلون به ثم لما سمحوا لنا بالادويه فى الفتره الاخيره استخدمنا بعضها بعد اذابته اوسحقه كعنصر تلوين وكانت المفاجاه بحق حينما وجدنا الحاجه مديحه د تمكنت من تهريب اسياخ لشغل الصوف حينما حضرت من سجن المسلميه وكانت واحده اخرى من البنات قد احضرت قطعه ملابس صوفيه قديمه معها فكررنا وجعلنا نتسلى بشغل الصوف ايضا وبدانا فى فتره لاحقه بجمع نوى الزيتون اذا حصلنا عليه وحفها وصنع مساييح منها لكن احد العناصر عندما اكتشف اننا نحفها على جدار المهجع لخشونته نهانا عن ذلك خشيه ان تكون اشارات نكتبها لاحد فصرنا نجتمعها وناخذها معنا فنحفها على ارض الساحه وقت التنفس وصارت امى تبتكر اشياء جديده بسيطه ومسلية لنا وتعلمنا من الالعب مالم نكن نعلم فعلمتنا مثلا لعبه الكاس وكان ل

لدينا واحده من البلاستك فكنا نتعلق حولها ونديرها الى ان تتوقف عند احدى البنات فكان عليها ان تجيب على اى سؤال يوجه اليها بسرعه وصراحه وكنا نجتمع على هذه الالعب 63 ونستمتع بها لا يشذ عنا إلا الحاجه مديحه التي كانت تسخر منا ولا ترتاح كأنما لاتفاقنا . . وترانا دائما أقل منها سنا ومنزلة وخبرة وتحسنا وكأننا ضد طباعها في كل شيء ! وبرغم المعاناة والتوتر استطعنا أن ننظم أوقاتا لتلاوة القرآن الكريم وحفظه وتلاوة الأوراد والمأثورات والتهجد . . حتى صارت البنات يتبارزن من تستطيع أن تصلي أكبر قدر من القرآن في تهجدها . . فإذا قدرنا دخول وقت الفجر صلينا وجلسنا إلى المأثورات - والضوء مطفؤ بالطبع لنبدأ بعدها بقراءة ياسين أربعين مرة وحزبا من القرآن على نية الفرج وتيسير الأمور ، ونكرر الشيء نفسه في المساء . وكنت أبقى مع ماجدة بعد انتهاء ورد الصباح تراجع حفظنا من القرآن حتى ننعس فننام أو نكمل اليوم بلا نوم . وكانت والدتي تظل صاحبة بعد الفجر حتى يدخل وقت الضحى فتصليها وتنام بعدها برهة من زمن .
أحاديث عبر الجدار !

وخارج جدران مهجعنا كان لأكثرنا تسلية وتسرية من نوع اخر ، فكنا نترب وقت خروج الشباب بعد الإفطار إلى الخط فيقبل بعضنا إلى شق في طاقة بابنا تراقب ما يجري وتترقب بعضهن أن ترى أختها أو قريبا بينهم . . ولم تكن هذه هي الصلة الوحيدة بيننا وبين الشباب ، فلقد اكتشفت البنات قبلنا وجود فراغ بسيط حول انبواب التدفئة بين مهجعنا والمهجع المجاور فطلبن من العناصر خرطوما بحجة استعماله في الحمام فأحضره لهم ، فمددوه عبر الفراغ وصرن يحدثن الشباب عبره أو يمررن لهم الماء من خلاله لأن المهاجع الأخرى باستثنائنا لم تكن فيها حمامات أو صنابير مياه كما قلت ، ولم يكونوا يسمحون لأحد بطلب ماء أو الذهاب للحمام إلا في المواعيد . . ولقد حدث بعدها أن واحدة من السجينات الجدد متهمه بالتعامل مع العراق اسمها أم كامل فسدت علينا ، فقام العناصر بسد الفتحة بالإسمنت ، فلجأنا إلى التخاطب عبر الأنبوب المعدني نفسه بالطرق عليه كإشارة أولى ، وكانت الحاجه تتولنا الحديث 64

بعدها أغلب الأحيان لأن مكانها كان مجاورا للأنبوب ، فكانت تنتظر هدوء الأحوال ونوم الحرس لتقرع على الأنبوب وتحادث الشباب بصياح مكتوم تخفيه قدر ما تريد أن تبديه خشية أن يسمعها أحد من العناصر ! وكانوا في تلك الفترة يتعمدون معاملة الشباب أسوأ ما يمكن ، وينقلون دفعات منهم إلى تدمر كل يوم ، وكان الشخص الموكل بذلك وينادونه أبا

طلال يأتي قبل صلاة الصبح فيقرع باب المهجع الذي فيه المطلوبون بكليشات يحملها بيديه ثم يبدأ بتلاوة أسمائهم واحدا بعد الآخر ، وبعد أن ينتهي من سرد القائمة التي كانت تبلغ عشرين أو ثلاثين اسما كل يوم يصطف الشباب المساكين في الظلام فيكلبش كل اثنين منهم من أيديهما وأرجلها معا . . فمنهم من يتجلد فيمضي ، ومنهم من يصيح ويستغيث ، ومنهم من يغمى عليه وقد أحس بدنو منيته ، فيشحطون هؤلاء على أرض السجن إلى سيارة بانتظارهم كالذبائح تماما تقاد إلى المسلخ . . وربما استفرغ بعضهم أو فعلها تحته من هول الخبر ، فلا نستطيع ونحن نسمع هذه المأساة كل فجر يوم إلا البكاء والدعاء . . وكانوا كلما نقلوا دفعة إلى تدمراتوا بثلاث أو أربع دفعات جديدة من المعتقلين مكانها ! فكانت الزنانات والمهاجع محشورة أيامها بالشباب حشرا ، حتى لجأوا إلى استخدام الحمامات كزنازين في بعض الأحيان !

لوعة الام . . ومأساه الولد !

ولقد كان من عجائب مشاهدات السجن وقتذاك أن والدتي أخبرتني يوم لقائنا الأول في المهجع بأن أخي وارف سيغادر سورية حسب معلوماتها إلى لبنان ، وسيخرج من هناك إلى بلد آخر ولن يعود ، ويبدو أنه أخبرها بذلك حتى لا تقلق عليه وحسب ، وحقيقة الأمر أنه كان لا يزال في سورية . . ففي يوم من الأيام صلت أمي التهجد ثم الفجر ، وانتظرت فصلت الضحى ثم اتكأت لتنام على عاداتها ، فما وجدتها إلا وقد انتفضت فجأة من نومها تقول لي :

65

- سمعت صوت مشي أخيك وارف في السجن ! وكان السجن وقتها في غاية الهدوء ، فالشباب عادوا من الخط . . والعناصر نائمة على الأغلب . . فلا تسمع أي حس . . فقلت لها : - ما هذا الكلام ؟ لا يوجد أي صوت . . وتقدمت من شق الطاقة لأتأكد فوجدتهم يقودون أخي وارف بالفعل من طرف سترته البنية التي أعرفها وقد طمشوا له عينيه وكبلوا يديه للوراء . . ورأيت حذاءه الرياضي الأبيض وحسين يسوقه ويقول له : - هيا إلى المنفردة . لكنني قلت لأمي وكأنني أحدثها من عالم آخر : لا أحد هناك . غير أن قلبي كان كأنما هبت النار فيه . . وغمرتني رغبة في البكاء وحاجة لإخبار أحد ، لكنني لم أستطع فعل أي شيء أمام أمي . . وبعد فترة وعندما أضربنا إضرابنا الثاني وأخرجونا إلى المنفردات فعلا عقوبة لنا تصادف أن وضعوا أمي وأم شيماء في زنزانة واحدة معا ، لى اذ بها نفس الزنزانة التي كان وارف معتقلا فيها ، في تلك اللحظات كانت أمي تتصنع وأم شيماء البكاء لترققا قلوب السجنانيين علينا ، لكنهما كانتا لا تكادان تتمالكان نفسيهما من الضحك . . فأخذتا منشفة ووضعناهما بين أسنانهما لإخفاء الضحكات ، والتفتت أمي كأنها تريد أن تدق الباب على السجناء فرأت على الجدار رسم مسجد محفور وقد كتب تحته بنفس الطريقة : لا إله إلا الله والله أكبر والله الحمد . . الشهيد محمد وارف دباغ . فانقلب البكاء الذي كانت أمي تتصنعه حقيقيا ، وصارت تنادي عليهم تريد أن تعرف أين ولدها ومتى اعتقال . . لكن أحدا لم يجيبها . . وظلت تعذبها الظنون وتقتلها الحيرة ولا من مجيب . . وتبين لي فيما بعد أنهم اعتقلوا وارف وغسان أول مرة في حماة وأفرجوا عنهما بعد أيام دون أن يثبت شيء على أي منهما ، ثم كان اعتقال وارف الثاني واحضاره إلى كفر سوسة والإفراج عنه من غير أن يدان بشيء أيضا ، وعندما استشهد بعد مدة استدعى المقدم ماجدة وقال لها ضمن ما قال :

66

-أمسكناه في المرة الأولى لما ظننا أنه مجرم ، فلما تبين لنا أنه بريء أخرجناه . . وفي المرة الثانية ظنناه بريئا فأطلقناه أيضا ولكنه طلع مجرما غرر به أخوه فنال جزاءه بعد ذلك . وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين !
نصف بلاطة للنوم !

وتستمر معاناة السجن وتزداد . . ووجدتني بعد فترة في المهجع قد ابتليت بالام شديدة في ظهري حتى لم أعد أستطيع رفعه ، وترافق ذلك مع حالة تقيؤ مستمر واسهال . . حتى كدت أموت يومها بالفعل ! كان نومي وقتها بجانب أنبوب السخان المركزي الذي كان عاطلا عن العمل بالطبع فلا تتلقى منه إلا برودته ورطوبة الماء المتكثف عليه ، ولم يكن لي خيار في المكان لأننا كنا لازلحام المهجع لا يكاد يجاوز نصيب الواحدة منا وقت النوم أكثر من نصف بلاطة وحسب ، ولو أرادت إحدانا أن تتقلب لاستدعى ذلك تحريك المهجع بأكمله لم أحس بالبرودة في البداية ، لكنني وجدتني فجأة لا أقدر على تحريك ظهري مع الأعراض المؤلمة الأخرى التي ذكرت . . فقامت البنات يطرقن الباب جميعا ويسألن العناصر أن يحضروا طبيبيا لعلاجي لكنهم لم يجيبوا ، فطلبت الدكتورة عائشة منهم طستا من البلاستيك أحضروه لها بعد إلحاح وطول رجاء ، فجعلت تعمل لي مغاطس ماء ساخن متتالية خفت عليها الأوجاع بحمد الله بعد يومين .

اضراب جديد

ومرت الأيام ، وفي كل يوم كانت لنا قصة جديدة وتجربة وعبرة . . وكانت أمي لا تفوت فرصة تحقق لنا فيها بعض السلوى أو توثق فيها السجنين والعناصر إلا واغتمتها ، وباتت سياسة واضحة عندها أن تبتكر مطالب لنا أو باسمنا تحقق منها إحدى الغايتين أو كلاهما . . وذات يوم وبعدما رأيناهم سمحوا لمنيرة بتقديم امتحان الثانوية خطر على بال بعض 67 البنات المطالبة بالمثل ، فكتبن إلى رئيس الفرع يسألنه السماح لنا بالكتب الجامعية التي ندرس بها ويتوفير جو ملائم للدراسة . . وبالطبع قوبل الطلب بالرفض والسخرية والتقريع ، فاقترحت أم شيماء أن نضرب عن الطعام حتى يستجيبوا ، وسرعان ما شجعتها أمي وأيدت أكثريننا الفكرة ، فلما أتوا بطعام العشاء رفضنا استلامه . سألونا : - لما ذا ؟ قلنا : مضربين . -السبب ؟ أجبتنا : نريد أن نقدم امتحاناتنا أيضا . رد العنصر ابراهيم : إذا لم تأخذوا العشاء فسناخذكم إلى المنفردات . فأجابته أمي : سيكون أحسن . . ستتنفس كل واحدة لوحدها على الأقل ! أغلق ابراهيم الباب بلؤم وذهب ليعود بعد قليل بضحكة صفراء يقول : - المعلم - أي رئيس الفرع يريدكم أن تتجهزوا لنقلكم إلى المنفردات بعد نصف ساعة . وبالفعل لم تمض الفترة التي تحدث عنها حتى حضر وأخذ كل اثنتين منا إلى زنزانة من المنفردات ، فوضع أمي وأم شيماء في واحدة ، وماجدة وعائشة في أخرى ، ووضعتني وفوزية حجازي في الثالثة ، وأما الحاجة مديحة فسألها ساخرا : - وماذا عنك أنت ؟ ألن تقدمي الثانوية أيضا ؟ فأجابته : أبوي . . أنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة ! فتركها في المهجع . . وبقينا بضع ساعات شاهدت أمي خلالها اسم أخي وارف على الجدار فازدادت ثورتها وعلا صياحها . . ولم يلبثوا أن أعادونا إلى المهجع آخر الليل ، ولم يستجيبوا لطلبنا بالطبع ، لكننا كنا سعداء بهذا الأثر الذي تركناه والحركة التي أحدثناها رغم كل الضغوط والترهيب . 68

رصاص بعد منتصف الليل !

وفي يوم من الأيام وبعدما انتهى العشاء وهجع أكثر السجناء والسجانين مزق السكون عن غير سابق إنذار صوت الرصاص يلعلع على مقربة من السجن وكأنه فوق رؤوسنا . . واستنفر الفرع كله وهرع العناصر فأغلقوا الطاقات كلها وأطفؤوا الأنوار ، وصاحوا بالمساجين وصوتهم يكاد لا يسمع مع أصوات خرطيشة الأسلحة وأزيز الرصاص : - ولا حركة ! لم نفهم ما الذي يجري بالتحديد هل كان اشتباكا أم هجوما على الفرع ، لكن الرصاص كان يصل إلينا فيصيب حتى جدار المهجع من الخارج ولم يكن بينه وبين الشارع إلا فسحة صغيرة يليها السور فنحس وكأنما اخترقه . . حتى أن أمي نهضت فتوضأت وصلت صلاة الشهادة ثم احتمت وإيانا بالجدار خشية أن تبلغنا الطلقات ! وبلغنا فجأة من بين الأصوات المختلطة صرخة كالزعيق تبعها صياح العناصر المضطرب ينادي : فلان قتل . . تعالوا . . فقدرننا أنه أحد عناصر الحماية على الباب . . وبعد حوالي الساعة من بدء الإشتباك هدأت الأمور

بالتدريج كما بدأت ، وحاولت الحاجة الإستعلام عما حدث من ابراهيم الذي كانت نوبته وقتها فنهريها وحذرنا من إعادة السؤال ، وعدنا إلى ما كنا عليه لأيام قليلة آخر دون أن نعرف حقيقة ما جرى بالتحديد . .

إفراج . . ولكن إلتدمر !

و ذات يوم . . وبينما كانت الحاجة تحدث الشباب في الزنزانة المجاورة عبر الأنبوب أتاها من وراء الجدار صوت سائل منهم يسأل إن كان بيننا حمويات . فقالت له نعم . . فقال لها : - يا خالتي نحن من حماة أيضا وسنخرج غدا إفراج ، فلو كانت لدى أي من الحمويات رسالة لأهاليهن أكتبوها وضعوها في شق الطاقة 69

ونحن سنسحبها بإذن الله أثناء خروجنا إلى الخط بطريقة لا تشعر العناصر ونوصلها لهم . والذي تبين بعدها أن هؤلاء الشباب المساكين وعدوا بالخروج في اليوم التالي بالفعل ولكن الخروج كان في الحقيقة إلى تدمر ! وفوجئنا عند الصباح بالمحقق يرسل وراء أمي بلا مقدمات أو سبب . . فتعود والدموع ملء عينيها تحرق في وتبكي . . فتملكني القلق والخوف عليها وهجمت أحضنها وأسألها ماذا حدث . . فقالت : - أخبرني أنهم سينقلونني إلى فرع اخر اليوم ولكنني أظنه كاذبا . . وأحس أنهم سيطلقونني اليوم . وقصت علينا أن المحقق لما استدعاها ابتدرها يقول لها : - جهزي نفسك وأحضري أغراضك بسرعة . فسألته : وابنتي ؟ قال : ستبقى رهينة عن أخيها صفوان ولن تخرج حتى يسلم نفسه . . أو فاعتبري أنك لم تلدي هذه البنت وانسيها ! وجعلت أمي وهي تقص علينا ذلك تخلع ملابسها عنها وتعطينا إياها قطعة بعد قطعة ، وما أبقت إلا ما يسترها وحسب لعلمها أنه ليس لدينا ما يكفيننا . . وسألتنا إن كان أي منا يريد إرسال رسالة أو توصيل خبر عنه ، فسارعت ماجدة وأخذت قلمنا من منيرة وكتبت رسالة لأهلها على ورق المحارم دستها أمي في كم سترتها ، وأخذت تعانقنا وتقبلنا وتدعو لنا وتدعو لها وخرجت . . ولم تكذب تبليغ الباب عند السلم وهي تستحلف العنصر أن يخبرها بموعد خروجنا لى اجابته الساخرة ورجاؤها المتكرر يبلغ مسامعنا فيزيدنا ألما وحسرة حتى انفلتت من بين يديه وقفلت راجعة ، ففتحت طاقة الباب وسألت بسرعة تقول : - نسيت هؤلاء الشباب جيراننا من بيت من كانوا ؟ ولم نكد نخبرها حتى كان حسين قد وصل إليها فأمسكها من ياقة جلبابها وجذبها مغلظا لها في الكلام . .

وهي ترد عليه الكلمة بأخرى 70

والعبارة بأشد منها حتى خرجت . . وكانت اخر مرة أراها فيها رحمها الله . وأما رسالة ماجدة فعلمنا بعدها أن أمي توجهت أولا إلى بيتنا في دمشق الذي اعتقلنا فيه وقصت أخبارنا على البنات اللاتي كن معنا فسألنها أن يرين الرسالة ، لكنهن اجتهدن أن ينقلنها على ورقة عادية خشية أن تتمزق المحرمة ، فلما ذهبت أمي بها إلى أهل ماجدة لم يصدقوها لأنهم رأوا الخط مختلفا . . وظنوا وقد فقدوا الأمل بابتهم أنها إنما تسري عنهم وحسب ، وظلوا في شكهم حتى فتحت الزيارات في سجن قطنا بعد سنين فرأتهم هناك ورأوها بعد طول فراق . معززات مكرمات !

وتم الإفراج عن أمي في السادس عشر من شباط . . وتأكد لنا الخبر حينما استدعى المقدم ماجدة بعد أسبوع تقريبا لأنها قدمت طلبا له تسأل فيه حلا للوضع ، فقال لها بكل صلافة واستعلاء : - انظري . . لا توجد أحسن من جلستكن هذه أبدا . . أنتن هنا معززات مكرمات . . ومثل هذا الفرع لن تجدوا ! وأضاف يقول : هذه أم هبة أخرجناها فجلست هنا على الباب فترة طويلة تبكي ولا تعرف كيف تتصرف حتى أعطيتها أجرة الطريق من جيبي أنا . . وبالتأكيد كان ناصيف يكذب لأن أمي ظلت جالسة عند الباب ترفض التحرك قبل أن تعرف مصيرنا وتأمل أن تسمع قبل ذهابها ولو إشارة بقرب الإفراج عنا وإلى أين ستتجه الأمور ، لكن الإفراج لم يتم . . وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، فلم تلبث أن انضمت دفعة

جديدة من المعتقلات إلينا . . لتفتح علينا قصص أخرى من الماسي والآلام . . ونبدأ فصلا
جديدا من الكرب والمعاناة . 71

مزيد من الضيوف . .

مزيد من الماسي !

لم تكن يومان أو ثلاثة من الإفراج عن أمي قد انقضت حينما قرع علينا أبو عادل مدير
السجن باب المهجع ضحى ذلك اليوم ودفع إلينا بسيدة تضع منديلا أسود انقلب لونه من
الأعلى إلى الصفار الباهت . . وترتدي بالطو من الجوخ الأسود أيضا وتحمل في يدها بقجة
جمعت فيها حاجياتها كما يفعل الشحاذون تماما ! أطلت ثم ارتدت للوراء لبرهة كانت كافية
أن نلمح هياتها الرثة وبقايا جدري أصابها منذ الطفولة فترك مع أصابع الزمن ندبا على وجهها
المرهق . . فتبادر إلى أذهاننا أنها متسولة ألقوا القبض عليها وأحضرها لتشاركنا المكان !
فحولنا وقلنا لأنفسنا ونحن بين النفور والإشفاق : وهل ينقصنا عذاب من هذا النوع مع كل
الذي نلقاه . . روائح ومناظر الشحاذين ! لكن الباب فتح على آخره مرة ثانية واندفع أبو
عادل يصيح بنا : - هيا . . انهضوا واستقبلوهن . . ودخلت السيدة نفسها تتبعها أخريات لا
يختلفن في الهيئة الرثة عنها كثيرا : فهذه كالخادمة . . والأخرى أشبه بالمتسولات . . وتلك
تلبس مانطو ممزقا . . ورابعة ترتدي تنورة أطول منها وقد عقدت إيشاربيها على رأسها أوثق
ما تستطيع ، وعليها كنزة ضيقة تلتصق على جسدها وقد عفا عليها الزمن ، وفقدت أزرارها
من الخلف فبقيت مفتوحة بعض الشيء . . ولم نكد نستوعب النظر إلى النساء الست
القادمات حتى اندفعت أولاهن نحو الحاجة مديحة تعانقها وهي تصيح : - أبوي . . أنت هون ؟
وانفجرت السيدة في البكاء ، وبادرتها الحاجة بالدموع تقول : - حاجة رياض . . الحمد لله
على سلامتك . أخيرا . . أخيرا وجدت ونيسا لي في هذا المكان . 72

وبحركة غير متكلفة دفعت الحاجة مديحة البنت التي كانت تجاورها في المجلس وأفسحت
لصديقتها الحاجة رياض المكان فأجلستها فيه وما عادت تحركت عنه أبدا ! وتحركت بقية
القادمات الجدد نحونا بتوجس طبيعي بادئ الأمر . . ثم لم تلبث النفوس أن استراحت . .
وانفتحت جعب الحكايات . . وغص المهج بالعدد الذي زاد عن سعته . . لتزداد المعاناة
وتتوالى أيام العذاب .

باب الحديد !

كانت القادمات من سجن المسلمية بحلب خمس هذه المرة : الحاجة رياض د . ولمى ع .
ورغداءخ . ومنتهى ج . وإيمان ق . وكانت مهزلة إحضارهن إلى كفر سوسة لا تقل ألما عن
مأساة اعتقالهن وتعذيبهن . . فلقد أركبوهن السيارة من سجن المسلمية بحلب وقد كبلوا
كل اثنتين منهما معا والخبر يقول إنه إفراج ، وكان قد سبق بالفعل إطلاق سراح حوالي 16
سيدة أخرى كن معهن ، لكن السائق اتجه بهؤلاء الخمس على الطريق الموصل إلى دمشق
، فلما عبرت السيارة الكرة الأرضية مغادرة حلب لاحظت الحاجة رياض ذلك رغم أن الوقت
كان مساء فقالت للسائق ببراءة : - أنا بيتي عند باب الحديد خيو . . يمكن ضيعت الطريق !
فأجابها بلؤم وسخرية : لا . . طولتي بالك . . ما وصلنا باب الحديد بعد . . أريد أن أعمل لكم
دورة حول حلب وأوصلكم بعدها كلكم إلى باب الحديد ! فلما فهمت الحاجة المقصود أغمي
عليها . . واصفر وجه لمى وقد ظنت أنهم سيأخذوهن الان إلى غرفة الإعدام . . وجعل
العناصر يسخرون منهن طوال الطريق ويزيدون قلقهن قلقا ورعبهن رعبا . . فلما وصلن
إلينا كن في غاية التوتر والإجهاد . . لكن دقائق تالية مرت كانت كافية لتغير الحال . . ولتفتح
كل منها جعبتها وتروي قصتها في رحلة الآلام . 73

تحويشة العمر !

كانت الحاجة رياض من النساء الطيبات البسيطات ، خرجت من المدرسة في الصف
السادس ولم تكمل تعليمها ، ولم تتزوج رغم بلوغها الأربعينات ، لكنها - كالحاجة مديحة -

من أسرة متدينة وأخت لأشقاء ملتزمين كانت لديهم منجرة في حلب ففتحوا فيها مخبأ للملاحقين قبل أن تنكشف فيعتقل واحد منهم ويهرب الآخر إلى عمان ، وفي مرة كانت الحاجة رياض ذاهبة إلى هناك لتزور أخاها في عمان قدمت لها إحدى السيدات بعض المال لتوزعه على أبناء الشباب الذين أعدموا ولا يكادون يجدون في هذا الطرف الصعب معينا أو مصدرا للكسب ، وبالفعل أخذت رياض المبلغ ووزعته كجزء من واجب أحسته نحو هؤلاء المساكين ، لكن اعترافا أتى عليها لا تدري من أين فاعتقلوها وجعلوا يعذبونها أشد العذاب ، وبعدما فتشوا بيتها ولم يجدوا شيئا جعلوا يهددون لها لتخرج النقود التي أحضرتها من عمان ، لكنها كانت قد وزعت المبلغ كله ، فزادوا عليها التعذيب حتى اضطرت أن تخبرهم عن مبلغ من المال كانت قد جمعته على مدار حياتها وخبأته للطوارئ تحت أحد الكراسي ، فأعطتهم إياه مرغمة لتنجو بنفسها ، وكانت كلما تذكرت ذلك بعدها تبكي وتقول للحاجة مديحة بحسرة : - أخذوا تعبي وعرق جيني يا حاجة وعملوهم من الإخوان . . إي ولي على الإخوان وساعتهم ! وكانت تنشد أحيانا بين الحسرة والطرافة تقول : - إلهي قد غدوت هنا سجيناً . . لأنني وزعت مصرات الإخوان المسلمينا !! وروت الحاجة رياض عن تعذيبها الأهوال بحق ، فلقد تمت تعريتها مثل أكثر المعتقلات بحلب ، وجعل عمر حميدة يسحبها من شعرها على الأرض فيرتطم رأسها بالأرض والجدار ، مما تسبب في كسر عظمة أنفها . . 74 وأصابها بعسر دائم في التنفس ، فكانت المسكينة بعد ذلك دائمة التشخير . . وزاد حميدة على ذلك العذاب الوحشي فسلط على وجهها خرطوم ماء شديد لتصحو من الإغماء فحرق لها طيلة أذنها ، وكان من المضحكات المبكيات أنها اعتادت بعد ذلك أن تنام على أذنها السليمة فلا تعود تسمع شخيرها الذي كان يؤرق نوم المهجع كله ، فنضطر إلى إيقافها آخر الأمر لتعدل من وضعيتها وتساعدنا على اقتناص ساعة نوم هنيئ ! وقام الجلادون أيضا بقلع أطرافها التي لم تنم حتى بعد وصولها إلى كفر سوسة ، وظل مكانها مزرقا لفترة طويلة بعدها ، وكان حميدة - كما روت يجلسها في ركن الغرفة ويناديها : - تعالي يا بقرة . . تعالي . وهو يومئ لها برأسه لتأتي ، فتفهم المسكينة الإشارة ولا تسمع الكلام وتجيبه . . فيضح والعناصر والمحققون عليها بالضحك وهو يقول : - والله بتعرفي اسمك يا بقرة ! أربعمئة ليره بثمانى سنوات !

أما منتهى ج . والتي لم تكن جاوزت وقتذاك السادسة عشرة من عمرها فكانت زوجة أحد الذين أعدمتهم السلطة عام 1979 بتهمة الإنضمام إلى تنظيم مسلح معارض للنظام ، وكانت منتهى قد تزوجت عن غير رضا والدها ، فلما أعدم الزوج وهي حامل رفض أهلها استقبالها في بيتهم ، وأمضت عدتها عند بيت إحماتها ووالدها يقول على الملأ "عيني لا تشوفها . . هذا جزاؤها لأنها لم تسمع كلمتي أا ! وعاشت المسكينة بعدها على الصدقات ، وكانت من ثم إحدى من أوصلت الحاجة رياض لهن مالا من تبرع السيدة في عمان ، فلما اعتقلت رياض أخذوها في الليل لتدلهم على بيتها فلم تستطع الرفض بعد العذاب الشديد الذي ذاقته ، ولما اقتحموا على منتهى البيت خرجت وابنتها الرضيعة على يدها ، فانتزعوا الطفلة من بين أيديها ودفعوا بها إلى الأهل

واقترادوا منتهى إلى فرع المخابرات . ومن سوء حظها أن اعترافا آخر أتى عليها في الوقت نفسه بأنها تلقت رسالة من مصطفى قصار عرض عليهما الزواج فيها ، فنالت كالأخريات أشد العذاب ، فعروها وعلقوها بالسقف وتناوبت عليها كل وسائل التعذيب . . وقالت لهم ببساطة أنها لا تنكر تلقي الرسالة لكنها أجابته من حينها بالرفض ، ولم تنكر تسلم المساعدة المالية التي لم تجاوز الأربعمئة ليرة . . لكنها أوضحت أنها كانت هدية نقوط لابنتها وهذا حق البنت ولا علاقة له بالأم أو بأي أحد آخر . . ولم يشفع ذلك لمنتهى فأرسلوها بعد التحقيق والعذاب المهين إلى سجن المسلمية ، ومن هناك إلى كفر سوسة . ومع الحاجة رياض ومنتهى حضرت فتاة حلبية أخرى اسمها إيمان ق . وكانت في صفها الثامن أو التاسع ، ولم

توجه إليها أبة تهمة سوى نقل الرسالة من أخيها مصطفى إلى منتهى بطلب الزواج ، ولذلك لم يشددوا عليها في التحقيق ولا في التعذيب واعتبروا عملها نوعا من الطياشة والجهل ، ونجت بذلك ولله الحمد من التعرية والإساءات . . وقد تم الإفراج عنها عام 84 مع أم شيماء . وأما رابعة القادمة برغداء خ . فقد اعتقلت مع الخامسة لى في بيروت عندما ذهبنا هناك على أساس أن تلتقيا بأحد الشباب الذي وعدهما بضمهما إلى التنظيم ، لكن الشاب كان قد اعتقل قبلهما فوجدتا المخابرات في انتظارهما واعتقلوهما من هناك ، ولم تعذبا كثيرا لصغر سنهما ، حيث كانتا في الصف التاسع ونجحتا وقتها على العاشر ، لكن لى تحدثت بأنهم أحضروا أثناء التحقيق معها ابن عمها المتهم بتنظيمهما ليعترف عليهما أمامها ، وقالت بأنها رآته يحمل عينه على كفه عندما أحضروه والدم لا يزال يخرج منها ! ولشدة طيبتهما ولما أرادوا إعادة التحقيق معهما في كفر سوسة عادت لى إلينا منفعة تبكي بحرقة ، فسألتهما الحاجة ملهوفة عم حدث ، فقالت بقلب محروق وانفعال بلغ مداه : 76 - نسفني كف وسب والدي . . واعتبرت ذلك غاية الإهانة وأشد العذاب !

حزب الهرموشية !

لكن العذاب كان أشكالا في السجن وألوانا . . ضرب الكف ولسع الخيزران والسب والشنائم بعض من أصنافه وحسب ، ونوع آخر من أصنافه أن تضيق الزنزانة على بضعة عشر شخصا لا منفس لها ولا مخرج . . تتباين بعض الأحيان عاداتهم وتختلف آراؤهم وتتعارض انتماءاتهم ولا يجدون بدا إلا المجاورة بالقسر ! ومن هذا الصنف أتوا إلينا مرة بسجينة من قري درعا تهمتها تهريب السلاح والمتاجرة فيه . دخلت علينا فجأة فرمتنا بنظرة غريبة ومن غير أية مقدمات قالت : - طمع . . كل من على شكله وقع ! لم ندر وقتها ما الذي كانت تتحدث عنه . . وعندما سألناها لاحقا قالت : - عندما نظرت إلى المهجع أول مرة رأيت هؤلاء الكبار اللاتي تتادوهن حجات قاعدات مع بعضهما البعض وأنتن لوحدكن فتصورت أن هؤلاء غير أولئك . . وكل واحد جالس مع شكله ! كان اسمها كما أذكر أم جبيري ، ضخمة البنية طويلة الجسم عريضة المنكبين ، لكنها كانت غاية في الجهل ابتداء بأولويات النظافة وانتهاء بالسياسة ! كانت وسخة جدا فلا تنظف لا جسدها ولا مكانها ولا حتى الحمام إذا استعملته . . والمكان كله شبر بشبر ! وزاد عليها وعلينا القمل الذي تسرب منها إلى المهجع لكنه ويا للعجب لم يطب له المقام إلا في رأس منيرة التي كانت تجاورها في مكان النوم . . فلما اشتد الأمر على منيرة قالت لها الحاجة : - عندي الدواء ! 77 وطرقت الباب منادية على حسين فلما جاء سألته أن يحضروا بابور الكازا وبغيره لنا ففعل ، فتناولته بيد وأدنت رأس منيرة باليد الأخرى وسكبت الكاز على رأسها . . لكن الكاز انتهى وظل القمل غاية في الحيوية والنشاط ! ولم يخرج إلا بخروج أم جبيري هذه بعد شهر أو شهرين بوساطة من محمود الزعبي رئيس الوزراء وقتها ، بعدما كادت تصيبنا وتصيب حتى المحققين بالجنون ! ولقد كانوا يسألونها وقد ظنوا أن وراء تهريبها السلاح أمر جلل : - من أي حزب أنت ؟ فتجيب : من حزب الهرموشية . . تقصد القرية التي أتت منها . . فيعيدها إلى التعذيب ظنا أنها تراوغه ، والمسكينة من جهلها لا تعرف ما الذي يغضب المحقق ولا الذي يستغربه من إجاباتها !

بلاء أخف من بلاء!

لكن "أم جبيري" كانت على ما فيها أرحم من صنف من السجينات آخر ابتلينا به . . وهن الشيوعيات الحاققات . . ففي وقت لاحق وأثناء حوادث الإعتداء على المحجبات بدمشق أواخر عام 81 ألقوا القبض على عضوة في التنظيم الشيوعي وهي طالبة طب من دمشق من زميلات أخي في الجامعة اسمها فاديا لاذقاني ، كانت توزع منشورات باسم الإخوان لتأجيج التوتر كما يبدو ، وسرعان ما انقلب لتصبح مخبرة تنقل أخبارنا إلى رئيس الفرع أولا بأول ! كانت تفتخر بشيوعيتها وتتعالى بها علينا . . وكثيرا ما كانت النقاشات تدور بيننا حول

ذلك بلا نتيجة ، لكن ذلك لم يكن ليمنع من إحسان الصحبة لولا أنها كانت تتعمد إزعاجنا والتشويش علينا ، فلقد سمحوا لها بالراديو مثل منيرة وبممنوعات علينا آخر ، فكنا إذا أردنا الصلاة أو قراءة القرآن رفعت صوته بالموسيقى والغناء لتشوش 78 علينا ، أو وضعت السماعات على أذنيها مطهرة لنا الإنزعاج . . ولم تغير من سلوكها رغم تكرار الطلبات والرجاءات . وعندما استشهد أهلي علمت فاديا بالخبر من المقدم وحدها ، فما وجدناها إلا وقد عادت بادية السرور تتدحرج على أرض المهجع وكأنما أصابها مس . . ولما سألناها عم حدث قالت : -سمحوالي بمسجلة . . لكن ذلك لم يدخل عقولنا ، فالراديو معها منذ وقت طويل ، والفرق بين الإثنين ليس بهذه الدرجة . . فعادت الحاجة بعد ذلك واستدرجتها على انفراد ، فما استحت أن تقول بأنها سمعت يومها خبر مقتل أهلي في أحداث حماة من المقدم فكان ذلك سبب فرحتها ! وكانت تتابع الأخبار بالراديو وتتبع ما يجري في حماة وقتذاك ولكنها لم تخبرنا ولا كلمة . . وتظل تسهر من إذاعة لأخرى طوال الليل ونحن لا ندري عما يجري في الدنيا . وبقيت فاديا في "كفر سوسة" عندما نقلنا نحن إلى قطنا ليفرح عنها لاحقا . . وبعد ذلك أتت بنفسها فزارتنا في سجن قطنا" ، وكانت وكأنما تريد إغاضتنا تتحدث كيف أطلقوا سراحها ونالت حريتها فذهبت لتكمل دراستها في فرنسا وعادت الان في إجازة .

مسرحية التجسس !

وذات مرة أحضروا امرأة فلسطينية إلى إحدى المنفردات ولعبوا لعبة علينا قامت بها هذه المرأة التي تبين بعدها أنها مخبرة مثل منيرة التي قامت بتكملة الدور . ففي البداية قالت لنا فاديا صراحة أنهم طلبوا منها أن تجلس معها وتستدرجها على أساس أنها سجينه مثلها وتحلل لهم نفسياتها وتنقل لهم أخبارها ، وذهبت من المهجع إلى المنفردة وجلست معها اليوم الأول ثم عادت تقص علينا قصصها ، وظلت تقوم بهذا الدور الأسبوع فتأتي وتقص علينا بصراحة كيف أنها تدرس شخصية تلك السجينة وتقدم التقارير بها وتنقل أسرارها للمقدم . . حتى إذا زرعت 79

الشفقة عليها في قلوبنا وجدناهم أحضروها إلينا من المنفردة ووضعوها معنا في المهجع بضعة أيام كنا نعاملها خلالهما أحسن المعاملة ونفتح لها قلوبنا كاية سجينه مظلومة ، وكانت من جهتها تنتقل من واحدة إلى أخرى تسمع قصتها وتستل الأسرار منها . . ثم لم يلبثوا أن نادوا عليها بالإفراج ففرحنا لها وجلسنا نودعها ، فجعلت تسألنا بكل تلقائيه إن كنا نريد إرسال أية رسائل أو معلومات لأحد لنا في الخارج ، ولا أدري ما سبب الشعور الذي تملكني والإحساس بانقباض القلب رأيتها تلح علي في طلب ولو حتى إشارة مني أو أثر تذهب بها إلى أقربائي وأهلي ، فبعد أن هممت بذلك عدت وانسحبت شاكرة وقامت أكثر البنات بإعطائها رسائل إلى أهاليهن وصلت كلها يد المقدم فاستطاع من خلال هذه الخبرة التي أجادت دورها بالتعاون مع فاديا أن يعرف الكثير عما يدور في هذا المهجع وبين نزلياته المعتقلات ، لكن فاديا ظلت من خبثها تدعي استغرابها مما حدث ، وكان من دهائها أن شاركت حتى في الإضراب الأخير ، وكانت أكثر المتشددات في مراقبة من يهم بالتراجع أو نقض الإضراب . . وكل ذلك تمويها وتديسا علينا لاستكمال المسرحية ! وفي نفس الفترة انضم إلى مهجعنا نزيلة جديدة اسمها ترفة لم تكن من اتجاهنا ولا من ديننا ، لكنها كانت على النقيض من فاديا هادئة الطباع سمحة الخلق لا تؤذي أحدا بقول أو فعل . وترفة سيدة مسيحية من باب توما بدمشق في الثالثة والعشرين من عمرها ، كانت لديها - كما روت - مشكلة في الإنجاب ، فذهب بها زوجها إلى الأردن أولا ثم إلى العراق للعلاج ، لكن الزوج اعتقل بعد عودتهما بتهمة التعامل مع العراق واعتقلت معه ، ورغم أنها نفت علمها بأي شيء أو معرفتها إن كان زوجها قد فعل شيئا أم لا ، إلا أنها اقتيدت من بيتها إلى سجن كفر سوسة

، وتم تعذيبها أيضا قبل أن ينقلوها إلى المهجع معنا ، فكانت بيننا كواحدة منا . وعندما قررنا الإضراب أضربت أيضا واستمرت ثابتة حتى النهاية . . وتم 80 نقلها عندما نقلونا إلى قطنا ، لتبقى معنا هناك إلى اخر فترة ولا يفرج عنها إلا بعدنا بشهور . الضيف ضيف الله !

وتتابع وفود معتقلات جدد ومأس أجد . . فبعد كل من وفد أحضروا إلى مهجعنا الذي غص بنزلائه أختين من اللاذقية هما منى وأمل ف . عمر الأولى 35 أو 36 سنة وهي أم لثلاثة أبناء : بنتين وصبي ، والثانية عزباء في الثامنة أو التاسعة عشرة . وقد بدأت قصة منى التي كانت غاية في الطيب إلى درجة السذاجة بالفعل . . بدأت حينما قتل زوجها برصاصة طائشة أثناء عبوره منطقة كانت مسرحا لاشتباك بين المخابرات وعناصر مضادة في اللاذقية ، وكان - كما روت - يحمل ابنته على كتفه حينما أصابته طلقة اخترقت يده التي يمسك الطفلة بها واستقرت في قلبه فقتلته ، وظلت البنت على قيد الحياة . وبعد مدة طرق بابها رجل من الملاحقين المشهورين في اللاذقية يسمونه أبا عنتر أو أحمد عنتر ادعى أنه بائع كاز فأرادت أن تشتري منه ، وبينما هو يؤدي عمله سألها إن كان يستطيع أن يختبئ عندها لأنه لا يجد له مأوى فوافقت على بساطتها وأدخلته فأوته . . ولكن أمره انكشف كما يبدو فداهمت المخابرات البيت ووجدوه مختبئا في إحدى الخزائن فرشوه مباشرة وأحضروها إلى السجن . . ولما ساكوها في التحقيق عن ذلك الشخص أجابت : -ضيف . قالوا : ضييط ؟ هذا أكبر مجرم وأنت تسكينه في بيتك ! قالت : لأن الضيف ضيف الله ! فسألها المحقق هازئا : ضيف الله ؟ قالت على طيبتها وبساطتها : إي والله ! واحد أتاني يقول لا يوجد لي أحد وليس عندي مكان ويسألني الضيافة هل أردته ! وكانت قد اتفقت معه أو اتفق معها أنه إذا سألها شخص عن سبب 81

وجوده معها تقول بأنه خطيب أختها . . فبلغهم ذلك أيضا . . وأحضروا الأخت التي لم تكن تعلم أي شيء عن أي شيء وأودعوها السجن معنا كل الفترة ، وأتوا بأبيهما وبأخيها فسجنوهما أيضا ، ثم أفرجوا عن الأخ وتركوا الأب . ولقد تبدت طيبتها من أول لحظة دخلت بها علينا وهي تبكي بحرقة وتنتحب كالأطفال . . وكالعادة التفننا حولها وحول أختها كآية قادمة جديدة خاصة وأنها محجة وسألناهما : - من أنتما . . ولماذا أحضراكما ؟ فقصتنا علينا القصة . . فسألناهما : -ولماذا تبكيان كل هذا البكاء وهم لم يعذبوكما بعد ولكما في الإعتقال مدة ؟ قالت منى : قال لي العنصر ادخلي فلما لم أدخل بسرعة سب أبي . قالت لها الحاجة : وماذا في ذلك ؟ قالت : أبي لا يسب ! ولقد ظلت منى معنا حتى عام 85 ثم نقلوها إلى اللاذقية ، وعادوا فأرجعوها بعد سنة إلى قطنا وانتقلت معنا إلى دوما حتى خرجنا جميعا ، وأما أختها فخرجت من كفر سوسة عام 1984 .

عصاة القبر !

ومن نزيلات مهجعنا كذلك كانت أم ياسين ساريح السيدة التي اتهم ابنها بتنفيذ حادثة الأزيكية بدمشق أواخر عام 1981 . وكانوا في البداية قد أحضروا إلينا صورته مقتولا وقد تمزق وجهه فلا يكاد يبين منه شيء وسألونا إن كنا نعرفه فكان جوابنا النفي ، ومرروا الصورة على كل المهاجع فلم يتعرف عليه أحد ، وفي المساء أحضروا أمه وسألوها إن كانت تعرف عنه شيئا - ولم يكن الشاب ملاحقا فقالت لا أعرف . . وعندما أروها جثته ثبتها الله فلم تزد عن أن تقول : - حسينا الله ونعم الوكيل . . 82

وكانوا قد اعتقلوا معها زوجها وابنيهما أيضا وكان عمر أحدهما 16 والأخر 12 سنة ، فوضعوا الأب والأولاد في الجنوبي ووضعوها في المهجع معنا ، وبقيت هناك فلم يفرج عنها إلا بعد نقلنا إلى سجن قطنا . ولا أزال أذكر أنهم عندما أخرجونا إلى "المحكمة الميدانية" عرض علينا رئيسها النقيب سليمان حبيب صورا من الجريدة لقتلى التفجير وهو يقول : -دماء هؤلاء الأبرياء هي السبب في تشكيل المحكمة . . وهذه الدماء سنخرجها والله من رقابكم أنتم

وبعد انتهاء من تلك "المحكمة" المهزلة ، وبينما كان أحد العناصر يعيدنا إلى المهجع قال لنا :
- شايفين الحادثة التي صارت ، هذه الإخوان فعلوها . . ولازم تتأكدوا أن كل حادثة تحدث
في الخارج ستعكس على الذين في الداخل ! وفعلنا كانوا كلما ضيقوا علينا نعلم لاحقا أن
أمرا ما قد حدث في الخارج . . ونحس ذلك من منع التنفس فجأة أو إغلاق الطاقة علينا
لعدة أيام . . وتتأكد أكثر من صياح الشباب الذي يتعالى وهم يتلقون مزيدا من التعذيب . .
وكانت الحاجة رياض ببساطتها تقول عندها : ولي على قامتكم يا اخوان . . تعالوا شوفوا
إيش صايرلنا . . أنتم تفعلون ما تريدون على كيفكم ونحن عصاة القبر علينا !
سجن أم دير !

وإذا كانت مشاهد السجن كلها مؤلمة وحالة السجناء وقصص المعتقلات تفيض بالأسى
والمرارة فإن قصة هالة ن . قد تكون من أشد المشاهد التي رأيت إيلا ما وأكثر ما سمعت
وعايشته في السجن من قصص مرة . . فبينما كنت أنظر من شق الطاقة يوما شد انتباهي
مشهد غير طبيعي أراه أمامي ، فالتفت إلى البنات وقلت لهن : 83-
كانهم والله أتوا بواحدة أجنبية لا تفهم العربي ! هذا حسن يكلمها ويجذبها من كتفها وهي
تنظر إليه مثل "الخوثة" ولا تفهم عليه . . لكنها تبدو أجنبية مسلمة لأنها تضع حجابا على
رأسها . كانوا قد أخرجوها كما يبدو من المنفردة إلى "الخط" حينما رأيتها أول مرة ،
وانتظرت فرأيتهم حينما أعادوها ، ثم جعلت أراهم يأخذونها ويعيدونها قرابة شهر كامل على
هذه الحال : كانوا يشحطونها شحطا ويدفعونها في كل خطوة لتنتقل إلى الخطوة التالية
وكان أعصابها قد أصيبت بالتشنج ، والجمود كسا سحنتها فلا تتكلم ولا تتألم ! كانوا يأخذونها
إلى التحقيق ويعيدونها سحبا كالدابة أو كالميت ، ولا تزيد هي على الحملقة فيهم والنظر
حولها نظرات بلا معنى ! وبعد شهر كأنما يئسوا منها فاتو بها إلى مهجعنا . . ولا أزال أذكر
لحظة أن فتح السجن إبراهيم الباب علينا وهو ممسك إياها من كتفها وناداني : هبة . .
قومي استلمي . . هذه وظيفتك . ودفع بنفس المرأة إلى المهجع ومضى . نظرت فرأيتها
وهي لا تزال بحجابها ترتدي بنظالا عريضا جدا يمسح الأرض . . وملابس كلها قدرة لم تنل
نصيبا من النظافة منذ زمن لا يعلمه إلا الله ! انتظرنا لحظة أن تتحرك فلم تغادر المكان
الذي دفعها إليه إبراهيم وظلت واقفة عنده لا تتزحزح . . تقدمنا جميعا نحوها وسألنا بلطف :
" ما اسمك ؟ فلم يجب أحد ! - من أين أنت ؟ لم ترد ! تقدمت الحاجة وقالت : - ابتعدوا
قليلا . . والله ضيعتوها . فتأخرنا جميعا وتقدمت الحاجة فسألتها من جديد : - ما اسمك يا
بنتي ؟ أجابت بصوت كأنما ينبعث من بئر خرب ونظرتها الوجلة مركزة على نقطة واحدة في
أفق بعيد لا نراه ولا تتزحزح عنه : 84

- من أنت ؟ ومضت قرابة الساعة والسؤال يتردد ومحاولات استنطاقها ولو كلمة واحدة
إضافية دون جدوى . . فيئسنا منها وتركناها . ظنا : لعلها خائفة . . لندعها تهدأ بعض الشيء
. وقتها كانت منيرة تستمع إلى الراديو . . وكانت عندما تلتقط إذاعة القرآن الكريم وعلى
الأض برنامج "ناشئ في رحاب القرآن" ترفع الصوت أو تعطينا الجهاز لنسمع . . وغالبا ما
كنا نضه على أنبوب التدفئة ليسمع الشباب في الزنزانة المجاورة أيضا ، وما أن فعلت
وقتذاك وعلا صوت طفل بالتلاوة حتى وجدنا ضيفتنا الجديدة هجمت على الراديو وقالت
بانفعال : -أغلقوه . . أغلقوه . . هذا يخلط بالقران . . حرام . . كل هذا كذب وافتراء ! قلنا
جميعا وقد تملكنا الدهشة : أستغفر الله . وقامت أم شيماء فأقفلت الراديو وهي تقول بجد
: -يابنات هذه فيها شيء ! لكن هالة ظلت على وقفها لا تتزحزح ولا تتحرك ولا تغير من
وضعها . . صار الليل . . بعد منتصف الليل وهي كالخشبة لا تتحرك . . وعندما حاولنا تحريكها
كانت كالمسمار المدقوق في الأرض ! فلم تتمالك الحاجة نفسها ودقت الباب وقالت
لإبراهيم لما حضر : -يا ابني هذه المخلوقة فيها شيء ؟ ما لها يبست مكانها ؟ نريد أن ننام
. . نجلس . . نأكل . . نشرب . . وهي واقفة على وقفها ! فقال إبراهيم : لا تصدقوها . .

إنها تمثل . فسألته الحاجة : وهل هي كذلك منذ أن أتت هنا ؟ قال : نعم . . لكنها تمثل . . كله تمثيل بتمثيل . . تظن أنها ستخلص من الإعتراف والتحقيق والشيء ثابت عليها . . لكن هذا شيء تحلم فيه ! 85

تركته الحاجة وعادت إليها ثانية فسحبتها من يدها شيئاً فشيئاً وأجلستها بجانبها فاستجابت وجلست . . سالناهم أن يطفؤوا الضوء ففعلوا وأتينا لننام ، ولم تمض دقائق على ذلك حتى وجدتها متربعة فوق قدمي تحديق في وجهي ، فلما رأيتها كذلك لم أتمالك نفسي وصحت برعب : -حجة . . من شان الله تعالي وخذيها ! قامت البنات كلهن وقامت الحاجة يسألنني ماذا هناك . . فنظروا وأوها . . وعادت هي فجلست منكمشة تنظر برعب وهلع إلينا ، فجاءت الحاجة وقالت لها بالإنسانية : -تعال لي لعندي وانتي ابنتي . . وجعلت تحضنها وتلفها حتى أرجعتها إلى جانبها . . وعاد الهدوء شيئاً فشيئاً إلى المهجع . . وفي الصباح وبعد أن أدينا الصلاة وعدنا للنوم ثانية أحسست وقد غفا الجميع تدفق أنفاس بالقرب مني ، فلما فتحت عيني رأيتها فوق رأسي هذه المرة تكشف الغطاء من جانبه وتتلصص بالنظر إلي ، فلما رأيتها هكذا تخيلت أنها تريد أن تخنقني فصحت صوتاً بالمقلوب ولم أعد أقوى حتى على التحرك ، فيما تحركت هي بلا أدنى انفعال وجلست على جنب وكان شيئاً لم يكن ! وكانت ماجدة قد استيقظت على الصوت فسألتها : - ماذا تريدين ؟ هل تريدين شيئاً ؟ فما وجدناها إلا وقد نطقت وقالت تسألها بلهجة جامدة : - ما هذا . . هل هذا بدير ؟ قالت لها ماجدة : لا . . هذا ليس بدير . . هذا سجن ! فعادت إلى صمتها وظلت على جلستها لا تتحرك . . قذيفة بطاطا !

كان حجاب هالة وثيابها حينما جاءت وسخة جدا ، وبمرور الأيام وهي على حالتها تلك ازدادت نتانة واتساخا ، لكننا كلما حاولت أحداً أن تقترب منها أو تلامس ثيابها انكمشت أكثر ومنعتها من الإقتراب . .

86

! وظلت على هذه الحال ثمانية أشهر لا تحكي ولا تأكل ولا تشرب ولا تخرج إلى الحمام ! كنا نسقيها الماء بالغصب وندس لها اللقمة في فمها دسا فتبقى فيه ساعة ولا تبتلعها ! وتقوم في الليل لتدخل الحمام فنتظاهر كلنا بالنوم ، فتبقي الستارة مكشوفة وتجعل تراقبنا دون أن تفعل شيئاً ، فإذا رأت أحداً تحرك تخرج مباشرة ولم تسحب ثيابها عنها بعد وذات يوم جلست عائشة بجانبها وأعطتها حبة بطاطا مسلوقة وهي تقول لها : -خذي . . هذه بطاطا طيبة وحلوة . . وقشرتها لها وأرادت أن تطعمها إياها ، فخطفتها من يدها بسرعة وأطبقت عليها ثم عادت فرمتها . . وكنت وقتها أغسل ملابسني في الحمام فما وجدت إلا شيئاً يرتطم برأسي . . نظرت فإذا بها قد قذفتني بالبطاطا فكادت أن تشجني ، فيما وقعت حبة البطاطا في التواليت !

كي . . واعتداء . . وافتراء !

وفي مرة أخرى وبعد شهر من حضورها قررنا أن نغير لها ملابسها بأي طريقة ، وكانت طوال هذه الفترة لم يمس جسدها الماء . لكنها ظلت تنفر وتزمر كلما اقتربنا منها ، فجاءت الحاجة وأم شيماء إليها معا وقالتا لها : - انظري . . هذه ثياب جميلة وثيابك وسخة الان . . فكشفت من جديد علامة الرفض ، فتقدمت أم شيماء لتخلع عنها ملابسها ، فصاحت صوتاً يا لطيف ويا ساتر . . ورفضت بكل إصرار ، فلم نجد بداً إلا أن نمزق لها ثيابها تمزيقاً لنلبسها الثياب النظيفة لأول مرة ، لكن جسدها ظل وسخا وطال شعرها فكانت تحكه بأظافرها الطويلة الوسخة وتظل تحكه وتحكه بشكل مقزز حتى رجحنا أن لديها قمل ، فقررنا إعادة المحاولة وجلست الحاجة والبنات يسايرنها حتى أدخلوها الحمام . . وما أن بدأنا بخلع ثيابها حتى خرجت أصواتها وارتفع زعيقها ، وهرع العناصر 87 يسألون ما الذي يجري فقالت لهم الحاجة : -

لا شيء . . نريد أن نحممها فقط . . نخاف أن تجرب إن تركناها مدة أكثر .
فقالوا لها : اعلّموا أنها تمثل عليكم . . هي سفيفة . . فاجرة . . وظلّوا حتى خروجها وانتقلنا
إلى قطننا يتكلمون عنها بهذا الكلام . . وعندما حمموها وجدوا آثار ما يشبه الكي بسبخ
محمى على أرجلها وفخذيها وجسمها من الأسفل . . لكن الأحية لم تكن لتحل بعد ، وسر
هذه المرأة ظل غامضا يستعصي علينا . . وفجأة وبعد خمسة أو ستة أشهر من وجودها معنا
لاحظنا أن بطنها تنتفخ وتكبر وقد بدأت تتأوه وتتألم ، ثم لم تلبث أن فقدت قدرتها على
الإحتمال . . فجعلت تصيح وتستغيث ، فشككنا أنها حامل - ولم نكن قد عرفنا قصتها بعد -
وقدرت الحاجة وقتها أنها ربما كانت متزوجة من أحد الشباب وكانا جالسين معا فحدثت
مداهمة لقاعدتهم واستشهد الزوج أمامها فأتتها صدمة . . وهى الآن حامل . ولما لاحظ
العناصر ذلك أيضا نقلوا الخبر كما يبدو إلى رؤسائهم ، فأتى رئيس التحقيق وسأل عن الأمر
وقال من ثم لعائشة : -

نريد أن نفحصها فربما تكون حاملا بالفعل .

فقال له عائشة : دعنا نفعل ذلك وسوف نخبركم . وقامت بالفعل ففحصتها بين الصراخ
والزعيق الذي صرع الدنيا فوجدتها قد تعرضت لاعتداء واضح لكنه لم يؤثر عليها كثيرا وليس
هناك ما يشير إلى حمل ، وظلت على هذه الحال يومين كاملين حتى ظننا من شدة الألم
الذي نزل بها أن منيتها قد دنت . . فجعلنا نقرع الباب عليهم وننادي : -هالة ستموت . . نريد
طبيبا . . فأتى أحد العناصر يسأل ماذا حدث ، فقلنا له إنها تكاد تموت من الألم . . فأجابنا
بكل برود وجلافة : -

وماذا في ذلك ؟ مسموح هنا حسب القانون أن يموت 7% من المساجين !

88

وأمام إلحاحنا الذي لم يتوقف ونحن نراها على هذه الحال أحضروا لها آخر الأمر طبيب
الفرع المخصص لا لعلاج السجناء بالطبع وإنما للضباط والعناصر ، فلما كشف عليها قال لهم
: -ليس لديها شيء . . مجرد إمساك .

وأعطاهما تحاميل ومرهما أذكر أنني وضعتهم لها بنفسى . . وبعد قليل يا لطيف دخلت
الحمام فخنقنا الرائحة حتى كدنا نموت ! وكان نهارا لا ينسى حتى طرقت الحاجة الباب
وسألتهم أن يفتحوه قليلا قبل أن نختنق جميعا ! فسألها مستغربا : -
ما هذا . . ماذا لديكم . . ماذا فعلتم ؟ فأجابته الحاجة تضحك : فعلتها المدللة !
شويط اللحم !

والذي يبدو أن مسؤولي الفرع قرروا بعد استمرار هالة بتصرفاتها تلك القيام بمحاولة
جديدة لامتحانها ، فأرأوا أن يخرجوا ابن خالها السجن في نفس الفرع ويجمعهما معا ليروا
رد فعلها من اللقاء ، فسألت الحاجة مديحة رئيس قسم التحقيق أبا فهد أن يسمح لها
بمرافقتها عليها تستأنس وتتكلم . . ففعل . فأخرجوهم معا إلى غرفة التحقيق بالقبو وكانت
هالة وقتها قد نزع الحجاب للمرة وما عادت تبالي بستر أو بلباس ، فخرجت منكوشة
الشعر تلبس تنورة ممزقة وتحملق في المجهول ، فما أن رآها ابن خالتها بهذه الحال حتى
أخذ يناديها بألم : -

هالة . . هالة . . لماذا تفعلين هذا بنفسك ؟ أنا ابن خالك . . وأمسكها يهزها وهي لا حياة لمن
تنادي . . والمسكين يبكي ويقول لها : -يا هالة . . أنا ابن خالك . . أنا فلان . .

ولكنها لم تبتد أي ردة فعل ولم تظهر أية حركة ، فأتى إبراهيم وفتح باب المهجع علينا ثم
جرها إليه جرا ودفعها لتدخل ونحن كلنا نراقب ما جري فما دخلت ، ووضع يديها على
طرفي الباب ووقفت مكانها

فاجتمع أربعة عناصر يدفعونها تارة ويسحبونها أخرى ولكنهم ما استطاعوا أن يزحزونها قيد
أنملة . . فأشعل أحدهم السيكرة وجعل يلسع لها يدها ويزيد ويكرر حتى وصلت والله رائحة

شويط اللحم إلى أنوفنا وهي لا تزحج أصبعا واحدا وكأنها لا تحس بشيء . . فلم أتمالك نفسي أمام هذا المنظر الرهيب وصرت أصرخ بلا وعي : - منشان الله . . والله حرام . . حرام . وفي آخر الأمر تعاونوا فحملوها حملا وألقوها كقطعة من خشب على أرض المهجع وأقفلوا الباب . ولم تمض فترة على ذلك اللقاء حتى وجدناهم يستدعونها ثانية لمقابلة والدتها التي علمنا من بعد أنها دفعت مبلغا كبيرا ثمن ذلك ، وكان والد هالة قد أصيب بجلطة إثر اعتقال ابنته فنقل إلى المستشفى ولكنه ما لبث أن مات هناك بعد فترة . . وحضرت الأم الملتاعة إلى السجن وهي لا تزال متشحة بالسواد ، لكن اللقاء أثر بالسلب على الأم والبنت معا ، ففيما ازدادت صدمة البنت وقد علمت بوفاة أبيها تعاطمت لوعة الأم التي هالها أن تجد ابنتها فقدت العقل وانقلبت في تصرفاتها وشكلها أسوأ من المجانين . . فأصاب الأخرى ما يشبه الإنهيار ، ولم يستطيعوا أن يخرجوها من الفرع إلا شحطا !
وتكلمت هالة !

وانتهت المقابلة ، ولكن عذاب المسكينة وتعذيبها لم ينته ، فبعد فترة من الزمان وكان قد انقض على وجودها معنا حوالي الثلاثة أشهر كان باب المهجع مفتوحا للتنفس ، فما وجدناها إلا وقد ارتدت ملابسها وحملت حقيبتها ووضعت غطاء صلاة على رأسها وركضت بلا مقدمات خارج المهجع . . فلما رآها السجن هيثم اندفع وراءها يريد الإمساك بها فزلقت قدمه ووقع على قفاه . . وركض بقية العناصر فأمسكوا بها وأعادوها إلى المهجع . فسألتهما
الحاجة :90

إلى أين كنت ذاهبة ؟

قالت : عيد ميلاد أمي . . رايحة أحضر عيد ميلاد أمي !

ودخل ابراهيم وقد التأم منها بشكل كبير وكانت جالسة على الأرض مثلما ألقاها العناصر فصفعها على وجهها صفعة خبطت رأسها مرتين في الجدار، ثم أمسك بها وهو يصيح : -
تريدن أن تخذعيننا وتهربي يا . . .

وبدأ يلف يدها وراء ظهرها . . ويصفعها . . ثم يدير يدها أكثر ويصفعها . . ونحن كلنا نصيح ونستغيث . . فلا هو يرحمها ولا وهى بين يديه تتلقى العذاب تنبس بينت شفة !
وعلى هذه الحال ظلت هالة تتعذب وتعذبنا لعذابها حتى كانت أول مرة تكلمت فيها معي حينما كانت مستلقية ذات مرة ، فلاحظت أن أظافرها قد طالت جدا فقلت لنفسي :
فلأحاول معها من جديد . وسألتهما : -قولي لي يا أختي . . ما اسمك ؟ ففوجئت بها تجيبني بصوت كأنما هو قادم من عالم آخر : -اسمي على كسمي . . اسمي مخبا بنسمي !
انتفضت وأنا أصيح : حجة . . حكيت . . حكييت ! .

وسألتهما من ثم وأنا بين مصدقة لما أسمع ومكذبة : - ما رأيك أن أقص لك أظافرك ؟
ومددت يدي أحاول أن أمسك بأصابعها فما وجدتها إلا وقد نترتهم من بين يدي نترا قطعني من الرعب ، فانكمشت على طرف وألغيت الفكرة وما عاودت الإقتراب ! وفي مرة تالية أردنا أن نحممها ثانية فقلنا لعلنا إذا أخرجناها إلى حمامات الشباب وجدت المكان أوسع فتستجيب بسهولة ، فلما أخرجناها وأخذنا معنا بقجة ثياب . . سألت : -
إلى أين أنتم تأخذونني ؟ إلى التلفزيون ! ولم تلبث أن انفجرت في الصراخ والبكاء فأرجعناها .

! وفيما بعد وعندما بدأت تتقبل فكرة الحمام قالت للحاجة عندما: سألتها أن تتحمم : -
لن أفعل حتى تخلع لي هذه ثوبها.-

مشيرة إلى ماجدة . فقالت لها الحاجة ! -

لكنها إذا فعلت فليس لديها ثوب آخر تلبسه . . أنا عندي ثوب

والله أرسله أهلي لي ومامسسته أولبسته وهوغالي علي . . : ولم تكن الحاجة قد لبسته من قبل بالفعل فأخرجته خصيصا لها لعلها تقبل به ، لكنها لم تفعل وكررت طلبها الثوب ماجدة ، فخلعته ماجدة لها آخر الأمر . . وقامت الحاجة فأعطت ماجدة بدورها الثوب الجديد! الأحمر ممنوع والماء مرفوض

وكان مما لاحظناه علي هالة أنها تخاف كل شيء أحمر اللون وتنفر منه فعندما كانت تشاهد ضوء سخان الحمام الأحمر كنا نحس بهلعا وتوترها وكأنه يثير شيئا بأعصابها لا نعلمه . . وكانت ماجدة تضع حلقا على شكل وردة فيه حجرة صغيرة حمراء ، فكانت هالة تحمق فيه أيضا وترتسم على وجهها معالم الخوف . . فقمنا وغطينا الزر بكيس ورق ، وخلعت ماجدة حلقتها وأخفته . وكانت عائشة تضع نظارات طبية ، فكانت هالة تحمق في النظارات فترة طويلة . . وتظل تدنومن وجهها وتبتعد وتعود فتدنون تنظر كما يبدو إلى صورتها المرترسة على زجاج النظارات ولا تمل

وبعد فترة وهكذا بلا مقدمات قالت إنها عطشى . . فملأنا لها كأسا ! من حنفية الحمام حيث نشرب كلنا ، فنظرت إلينا هكذا جميعا وقالت بترفع . " - هل يسقي أحد بوله للثاني !

فقال لها الحاجة : طيب . . سنأتي لك بأحسن كأس ماء في السجن كله 920

وطرقت الباب فجاء أبو عادل يسأل ما الأمر ، فقالت له الحاجة نريد كأس ماء للست هالة . . تريد أن تشرب . - قال مستغربا : أليوجد لديكم ماء؟

فأجابته الحاجة : الماء الذي لدينا لا يشرب مع هالة ! فذهب وأتى لها بكأس ماء أعطتها الحاجة إياه ، فنظرت في ثم فينا وقالت : هذا وسخ وبصقت فيه فسألته الحاجة أن يأتي بأخر ففعل ، ولما قدمته لها فعلت الشيء نفسه . وعادت الحاجة فرجته أن يجلب لها كأسا آخر فاستجاب أيضا وكأنما اندمج في هذه التجربة المثيرة !

لكن الفعل تكرر وعاد فتكرر حتى اجتمعت أمامها سبع كاسات مصفوفة بصقت فيها جميعا وما شربت ولا قطرة!

ومرة أخرى وفي إحدى جلسات التسلية كنا نمثل على أننا مثل اللاجئين الفلسطينيين نرسل سلامات لأهلنا عبر الراديو . . فكانت كل واحدة منا تعبر عن مشاعرنا وأشواقنا بهذه الطريقة ، فكانت الحاجة رياض تقول - أهدي سلامي إلى أمي . . يا حنونتي . . إيش عم عملي هلق . أ أي أنك جالسة تنشقي وتبكي . . وتنخرط في البكاء . . فتبدأ المناحة ويبدأ الكل في البكاء علي ! أثرها . فسألناها مرة : -

هالة . . ألا تريد أن تشاركي معنا في الإذاعة؟ وقالت لها أم شيماء : هيا هالة . . أنشدي لنا نشيدا .

فما وجدناها إلا وقد انبلقت مرة واحدة تنشد "توحيدربي . - ومضت بها فماتت وقت حتى نهاية النشيد

وجاء السجن وقال :

ما هذا؟ عاملين مولد نبوي 93

فقال لها الحاجة : دعنا الآن بحالنا . . أغلق الطاقة واذهب الآن وكأننا بفرحتنا بكلامها قد ولدنا أول مولود ، فجلسنا نحمد الله العالمين أنها نطقت وكسرت عن نفسها حاجز الصمت آخر الأم محاولة الإنتحار

ومضت الأيام . . وبدأت هالة تتحسن شيئاً فشيئاً حتى رجعت لطبيعتها بعد حوالي ثمانية أشهر من المعاناة، وعندما كنا نحدثها عن حالتها فيما بعد كانت تقول إنها ما أحست بأي شيء بعدما كانت على طريق اللاذقية -دمشق . . وما عادت وعت شيئاً . . وأما قصتها كما قصتها علينا بعد ذلك وسبب صدمته فكانت كالتالي : كانت هالة طالبة من أسرة متدينة تدرس في كلية العلوم في مدينتها باللاذقية، وكان لها ابن خال في صفه العاشر والحادي عشر يعتمد عليها بعض المرات في حل وظائفه وفهم دروس الرياضيات التي تستعصي عليه ، والذي يبدو أن هذا الشاب كان مرتبطاً مع مجموعة من الشباب اعتقل أحدهم فدل عليه فاعتقلوه . . وأثناء التحقيق معه كان السؤال التقليدي لهذا الشاب الصغير: من الذي يدرسك ويعلمك ؟ وكان القصد من السؤال الوصول إلى مسؤوله التنظيمي ، لكن الفتى لبراءته ذكر لهم اسم هالة لأنها تدرسه الرياضيات والفيزياء بالفعل ! فأحضروها إلى التحقيق فكبلوا أيديها وأرجلها . . ثم مزقوا عنها ملابسها . . ومع التعذيب الوحشي حاول رئيس الفرع الذي يحقق معها وعنصران أو ثلاثة آخرون معه الإعتداء عليها . . ثم ألقوها وحيدة في غرفة مهجورة تصفر الريح فيها فتجعلها تنتفض . . ويعرکہا البرد القارس فترتجف . . والعناصر تروح وتجيء خارج المكان فتوقع مع الرعب الذي يلف الأجواء ويلفها . . والعدوان الذي استهدف أشرف ما في حياتها . . ومن كثرة ما أخذوها وأعادوها إلى التحقيق . . تتوقع أنهم في كل لحظة سيدخلون عليها ليعتدوا من جديد وفي وسط دوامه الذعر هذه وجدت هالة قطعة زجاج أو حديد صدئة في الغرفة ظنت أنها حبل النجاة . . وقامت وهي لا تكاد تعي فقطعت بها شريانها لتنتهي المأساة . . وظلت تنزف وهم لا يشعرون بها حتى حان وقت التحقيق معها من جديد فوجدوها على آخر نفس . . فأسعفوها ونقلوها إلى دمشق . . وبينما هي في الطريق بدأت تصحون غيبوتها فوجدت ابن خالتها خلفها في السيارة مع عدد آخر من أصدقائه الأيام . تعرفهم جميعاً ، " " " " ووجدت نفسها البنت الوحيدة بينهم فظنت أنهم يقتادونهم وإياها إلى الإعدام ، فأصابها صدمة نفسية أفقدتها القدرة على الكلام ولم تعد تستوعب بسببها ما الذي يدور، وبعد شهر من المبيت في المنفردده لم يكفوا فيه عن تعذيبها والتحقيق معها وصلت الينا على هذه الحال 0
أولادى حارقين قلبى

واستمر الحال من سيء إلى أسوأ، واستمر مهجعنا الذي غص حنا لثماله يستقبل المزيد من النزيلات الجدد كانت أم محمود حليمه التاليه فى الترتيب بعد دفعة الحاجه رياض وأم محمود هذه سيده قرويه عمرها 35 عاما من قرية حريتان قرب حلب ، وزوجها صباب بيتون من قرية أخرى اسمها حيان . . وهى من الفلاحات الذكيات والواعيات جدا فلا يظنها المرء إلا دارسة ومتعلمة . والذي يبدو أن زوجها بنى في بيته مخبأ للملاحقين من أبناء منطقتهم وأوأمهم فيه ثم أكتشف المخابرات الأمر فأمسكوا به ولكنهم لم يكتشفوا مكان القاعده فكم من عناصر منهم في البيت بوجود أم محمود وأولادها الخمسة ، فلما طال مكوثهم خرج الشباب الملاحقون من المخبأ واشتبكوا مع رجال المخابرات الموجودين فقتلوهم وفروا فلم يعد لهذه المرأه المسكينه بد من الهرب فحملت من استطاعت حمله من الأطفال لوسحبت البقيه فى منتصف ليله مثلجه واتجهت الى بيت اهلها فى القرية المجاوره وليس ثمه من وسيلة للنجاة إلا المسير . . وبدو أن الخابرات اكتشفوا ما حدث 95 000 خلال ذلك ، فلما لم يجدوها في البيت تتبعوها إلى بيت أهلها وألقوا القبض عليها هناك ، واتهموها بأنها كانت على معرفة بالقاعدة وأنها تسترت عليها وساعدت على قتل العناصر . . فنقلوها إلى الأمن السياسي بحلب وهناك أذاقوها أشد العذاب حتى كسرت يدها وظلت طوال سجنها لا تستطيع أن تحركها بشكل طبيعي ، كما كسروا عظمة أنفها أيضا . . وبعد شهرين أو ثلاثة أتوا بها إلى كفر سوسة وأعادوا التحقيق معها من جديد فنكرت معرفتها بأي شيء ، وقالت أن زوجها بنى البيت ولم تكن موجودة . وغالب الظن أنهم أعدموا الزوج في

تدمر ، فيما بقي الأطفال الخمسة وهم بين 4 و 9 سنوات من العمر مع أبويها العجوزين ، فكان ذلك أكثر ما يؤلمها ويؤرقها . . فلا تفتأ المسكينة تردد : - أولادي حارقين قلبي من جوه . .
وتدمع عيناها دون أن تبكي كباقي النساء . . ولم يفرج عن أم محمود إلا عام 84 من قطنا .
جو اسيس وعميلات . ورهينات !

ومن شركاء المهجع أيضا نزلت علينا ذات يوم امرأتان شقيقتان مسيحتان من حلب متهمتان بالتجسس لصالح اسرائيل . . الصغرى اسمها جورجيت ويسمونها مارييت أحيانا عمرها 35 سنة ومتزوجة من علوي من القرداحة اسمه زهير كان هو زعيم الشبكة ، وأختها أم جورج في الستينات من العمر وزوجها علوي أيضا وهو مساعد في الشرطة . وعلى الرغم من الفترة الطويلة التي أمضتها الأختان معنا في المهجع نفسه إلا أننا لم نستطع الإلمام بحقيقة القصة التي وراءهما لحرصهما وتكتمهما الشديد ، ولأن القصة كما بلغتنا بعض أطرافها معقدة جدا . ولقد أحضروا الأختين في البداية مع زوج مارييت ، وعلى أثر ذلك اعتقل عدد كبير من الشبكة . . وكانوا في البداية يأخذون جورجيت كل يوم إلى التعذيب فيضج الفرع كله من صراخها ولا تعود الا على آخر
نفس ، وكانت عائشة تجلس فتمسد لها أرجلها المزرققة بالماء الساخن وتربط لها الجراح وتشد الكدمات بشاشيات البنات ، وتظل تعمل لها "المساج بكل طيب خاطر ، حتى إذا هدأت الآلام عليها انتفضت كالجنية ومضت تلعب الورق مع الشبوعيات الأخريات . .
وتستغرق في اللعب بكل عقلها وكان شيئا لم يكن ! وعندما سألتها الحاجة مديحة مرة :
-كيف كنت تصيحين من قليل والآن رحبت ؟

أجابتها : أنا أريح من الطرفين !
وبينما لم تكن الأختان تتكلمان الكثير عن وضعهما في البداية إلا أن أم جورج بدأت عندما اجتمعنا ثانية في قطنا تتكلم عن شقيقتها جورجيت وتتهمها بأنها كانت سبب وقوعها وتدعو عليها أن يحرقها الله في قبرها ! وكانوا قبل نقلنا إلى قطنا قد أتوا ونقلوا الأختين إلى سجن المزة فأعدموا جورجيت بعدما أمسكوا بقية الشبكة وأعادوا أختها إلى قطنا لنلتقيها ثانية هناك ، وهناك سمعنا أيضا نبأ إعدام زوجها من راديو صوت لبنان .
ومن السجينات اللاتي شاركننا المهجع من غير الإتجاه الذي صنفونا عليه كانت أختان أيضا من أرمن حلب من تنظيم معارض موال للعراق أتوا بهما مع بدايات عام 82 الأخت الكبرى اسمها كاميليا والصغرى جميلة ، وكانت هذه حاملا عند اعتقالهما اخر 81 أثناء عودتهما من العراق ولكنهما لم تكونا تتكلمان عن قصتهما ولم تعذبا ، وعاشتا مثلما عشنا وبقيتنا إلى أن نقلنا إلى قطنا ، وخرجتا بعد نقلنا .
كذلك أحضروا وبشكل عابر سيدة من حمص من بيت النشواني اعتقلوها رهينة عن زوجها الذي هرب وأتوا بها إلى كفر سوسة ، ولكن هذه السيدة لم تبق كثيرا لأن لها ابن عم رائد في مخبرات اللاذقية سارع في التوسط للإفراج عنها .
العلاج الصحي . . شتائم

! كانت ظروف السجن وافتقاد أولويات الإحتياجات الصحية والغذائية سببا لإصابة الكثيرات منا بأمراض وعلل متعددة . . لكن الحسرة لم تكن بالإصابة قدر ما كانت من طريقة العلاج التخصصي لدى إدارة السجن ومسئوليه . . فبعدها أصابتنى كأكثر النزيلات "زنتارية" في بداية قدومي وتخلصت ظاهر الأمر منها لم ألبث أن بدأت أحس الأما في معدتي تتزايد باستمرار . . واشتد الألم والأعراض علي حتى صرت أستفرغ دما ولا أكاد أستسيغ تناول أي طعام . . وسرعان ما شخصت عائشة حالتي بالقرحة . . وصارت وباقي البنات يحاولن تخير غذاء صحي مناسب لي من هذا الذي كان ينالنا منهم . . لكن الأمر ازداد سوءا بانعدام الغذاء الصحي وتراكم الإنفعالات والحسرات . . ووصلت الأمي مرحلة متقدمة ، فقدمنا طلبا

للمقدم نشرح فيه حالتي ونطلب فيه غذاء يناسب المرض . . فاستدعاني متكرما ببعض من وقته الثمين ، كل ما قدمه لي وقتها أن أسمعني محاضرة مطولة حافلة بالشتائم عن أخي "المجرم" . . ثم أعادني أسوأ حالا مما أتيت ! ولقد شاعت بيننا كذلك إصابات فقر الدم وتسوس الأسنان ، وذات مرة اشتد على أم شيماء النخر في ضرسها فسألتهم أن يعطوها مسكنا فلم يجيبوا طلبها ، لكنها استمرت مع تعاضم الألم في الإلحاح ، وصارت البنات تلح في السؤال معها وقد كادت تموت بالفعل من الألم ، وأخيرا أخذوها إلي طبيب لم تدر من هو أو أين كان ! فلقد قيدوها وعصبوا عينيها ونقلوها بالسيارة المخصصة لنقل المساجين إليه ، وهناك ومن غير مخدر خلع هذا الطبيب لها الضرس وأجرى لها في جلسة واحدة جراحة في فكها الذي أصابه الإلتهاب ووصل التسوس فيه إلى العظم ، فعادت بالألم أشد ومعاناة استمرت معها لفترة غير قليلة . كذلك أصيبت كثير من البنات بنقص في الكلس تسبب لرغداء بدوخة مزمنة ، حتى أنها عندما أرادت أن تنهض من التواليت ذات مرة لم تستطع فسقطت على الأرض وارتطم رأسها بالجدار وأسرعت البنات فحملنها من مكانها حملا . . ومن حينها بدأنا نأكل قشر البيض الذي نحصل عليه . . ندقه ليصبح ناعما كالطحين ونستفه ! وكذلك بدأنا نفعل بقشر البطاطا إذا وصلتنا ! ومع مرور الأيام بدأ بعض العناصر يسمحون لنا في أحيان نادرة باستخدام غلاية كهربائية لتسخين بعض الماء ، وكان بعضهم يمن علينا ببقايا الشاي الذي شربوه فنسخنه من جديد ونشربه ، وفي فترة لاحقة استطعنا أن نستعير منهم "البابور" لطهي الطعام أو تسخينه ، فكنا إذا حصلنا على بقايا الفروج المخصص لنا ففتناه ولوحناه على النار بلا أية إضافات على الأغلب . وكانوا يأتون بفروج واحد للمهجع كل أسبوع فيستل العناصر منه القطع اللذيذة ويرسلون البقايا لنا ، فتنوزعه وقد بلغنا 14 سحينة اخر الأمر بأن نفرطه كله ونفتته كالخيطان ونضع عليه بعض البهار وتنوزعه بالملعقة ، فتنال واحدتنا نصف ملعقة منه تفردنا على الخبز وتلفه بغطاء اخر من الخبز وتتناوله ملتذة وهي تجهد في تخيل أن ما تمضغه الان لحم دجاج بالفعل !

عقوبات حسب المزاج !
وعلى الرغم من سوء حالنا وشدة معاناتنا إلا أن حياة السجناء الشباب بالمقارنة معنا كانت جيعا بالفعل . . ففي الوقت الذي كنا نكاد نختنق من ضيق المكان حينما بدأ عددنا في المهجع يزيد على بضعة عشر امرأة كانوا يحشرون حوالي الخمسين من الشباب في المهجع الواحد فلا يجدون حتى النفس الكافي أثناء النهار ، وإذا ناموا لا يملكون لضيق المكان إلا أن يرفعوا أرجلهم على الجدار ويتناوبون برغم ذلك النوم ! وكان هناك عنصر يتجول أمام المهاجع باستمرار ، فإذا سمع أدنى حركة من داخل المهجع ضرب الباب الحديدي بالكابل الذي معه وصرخ فيهم ليخرسوا . . ويظل يذهب ويجيء في الليل و الطاقات مفتوحة عليهم ، فإذا شاهد أحدا يتمم أو يتقلب فالعقوبة حسب ما يقتضيه مزاجه وهواه ليلتها . . أبسطها السباب والشتيمة وغالبها الفلق في منتصف الليل ! وكان كل 99 عنصر يتحكم فيهم حسب مزاجه : ناموا الآن . . أفيقوا الان . . الآن طعام . . أو موعد "الخط" . . وفي اخر الأمر لم تعد تفرق مع الشباب فصاروا يقفوا ويصلوا جماعة ويجهروا بها حتى يصل صلاتهم وتكبيراتهم إلينا . . لدرجة أن الحاجة كانت تقتدي بهم بعض الأحيان ! فإذا سمعهم العناصر نالوا نصيبهم برضا وتسليم وإلا مرت بسلام ! وأذكر أن واحدا من المهجع المجاور لنا عاد ذات مرة بعدما أخرجوهم إلى "الخط" وطلب الخروج ثانية للحمام ، فكان الجواب الأول شتائم مقذعة ، لكن الشاب كان كما يبدو محتاجا للذهاب بالفعل فعاد يرجو العنصر ويسأله الإذن من جديد ، فجاءه ذلك وأخرجه مع أبشع المسبات والشتائم واقتاده أمام مهجعنا وجعل يضربه ويضربه ولا يتوقف ، وفي اخر الأمر دقت الحاجة الباب تقول له : -

إي خيوايش عمل ؟ إي والله ما كفر ! بدو يطلع على الحمام . . إي حضرت جنابك بتطلع في اليوم عشرين مرة ! أليس بني آدم أيضا ! وأما خروج الشباب للإغتسال فكان عذابا آخر . كانوا يخرجون سكان المهجع مجموعة بعد أخرى ، فكان إذا ضرب على الباب بالكابل أو بالعصا ضربتين وخاصة ياسين فمعناه أن يكون الجميع جاهزين في الخارج ! فكان المساكين يدخلون بشياهم ولا يكادون يفتحون الدوش عليهم حتى تحين إشارة الإنتهاء . . وأظن بعضهم لم يكن يتحمم تفضيلا منه السلامة على النظافة ! كذلك كانت الحلاقة إحدى عذابات الشباب الدورية التي لا بد منها . . فكان العنصر الموكل بذلك يتربع هو على الكرسي ليمر الشباب واحدا بعد الآخر بين يديه راكعين على ركبهم ، فيتناول رأس الواحد منهم وكأنه دابة بين يديه ويمر بالآلة عليه لا يبالي جرح له خدا أو شج له رأسا أو أصاب عينا . والشباب المسكين لا يجد فرصة للتأوه أو التشكي لأنه إن فعل ضوعف له العذاب وخص بفلقة أو لسعة كبل هو في غنى عنها ! وأما نحن فقد عفيانا من الحلاقة ولله الحمد ، ولكن انعدام النظافة وقلة الماء

0100

جعل شعورنا التي طالت مشكلة وعبئا علينا ، خاصة وأن صغر السخان لم يكن يتيح لأكثر من واحدة بالإستحمام كل يوم ، وصعوبة الغسيل مع قلة الملابس كان يضطرنا للبقاء فيها فترات طويلة . . وكثيرا ما كانت واحدتنا تضطر إلى انتظار ثيابها لتجف فتلبسها ثانية . . وحتى تجف كنا ننشرها على حبل مطاط أخرجه من إحدى قطع الملابس التي معنا ، لكن صغر الغرفة وكثرة نزلائها كان يكتف الأ نفاس على رطوبة الثوب فتبدأ القطرات المتكثفة تنقط فوقنا ، وليس لنا من حيلة حيالها إلا الصبر والإحتساب !
الدم 000 والقمل . . والسل !

ومن برامج السجن الدورية كان التفتيش على أمن المهجع كل أسبوع ! كان ابراهيم يأتي في نوبته فيتفقد النافذة التي في الجدار فيهب قضبانها الحديدية ويتأكد أن أحدا لم يمسه بسوء ، فتصبح به الحاجة دون أن تتمكن من ضبط نفسها : -
ماذا يمكن أن يحدث في رأيك ؟ هل يمكننا نحن النساء أن نخلعه مثلا ! فيجيبها ببرود : إنها الأوامر . . وينبغي أن أنفذهما !

لكن ذلك لم يكن الإزعاج "الوقائي" الوحيد . . فيوم تعقيم البطانيات - حفاظا على الصحة العامة كما يفترض - كان يوم عذاب شنيع آخر لنا ! فقد كانوا يجمعون بطانيات المهاجع كلها ولا ندرى بماذا يجمعونها ثم يعيدونها رطبة إلينا ورائحتها تعم السجن كله حتى نكاد خنتق بالفعل منها . . لكن الأمر كان أشد رهبة وأسوأ وقعا حينما تنتشر الأوبئة والأمراض أو الحشرات ! فبعد شهرين تقريبا من دخولنا السجن انتشر القمل بين السجناء دون أن يصيبنا هذه المرة ، لكنهم دخلوا مهجعنا ورشوا المبيد ونحن فيه بالطبع فقط على سبيل الإحتياط ، فصرنا نتقيؤ كلنا ولا نكاد نقوى على التنفس لساعات ! ومع ذلك وجدنا بلاءنا أخف مما نزل بالشباب الذين كانوا ينادونهم واحدا بعد الآخر إلى طاقة المهجع أو الزنزانة ويأمرونهم أن يمدوا رؤوسهم منها ليغرقوا الرأس كله بالمبيد

وبعد سنة تقريبا واشتداد العذاب وانعدام أبسط الإحتياجات الغذائية والصحية انتشر السل هذه المرة بين المساجين المساكين ، فكنا نحسهم من صوت سعالهم في جوف الليل أو نراهم عند خروجهم إلى "الخط" يعكز بعضهم بعضا أو يحملون من شارف منهم على النهاية حملا إلى الحمام . وأذكر أنني كان دوري مساء أحد الأيام لرمي القمامة كالعادة في المطبخ ، وكان ابراهيم قد فتح الباب لي وسبقني إلى المطبخ ، فوجدته ويده سكين يقول لي من غير سبب : -والله هذه حلال تدخل بقلبك !

لكنني لم أرد ودخلت بالقمامة لأرميها ، فلما أصبحت في الداخل وجدت حسين قادما دون أن يراني ويده طاسة الطعام مملوءة بالدم يقول له : -

سيدي مات ! فقال له ابراهيم : إلى جهنم . . أغلق عليه باب المنفردة الآن لنرى ماذا نفعل

فلما عدت إلى مهجعنا نظرت بعد قليل من شق الطاقة فوجدتهم يحملون أحد الشباب ميتا بالفعل وينقلونه من المنفردة حيث كان ، وحكيت ما جرى للبنات فقالت الحاجة أنها رأتهم ينقلونه بالأمس من المهجع إلى المنفردة ويكاد من ضعفه يحملونه حملا . . ولم يلبث أن حضر أحد العناصر فجعلت الحاجة تستدرجه كعادتها وسألته عن هذا الشاب الذي مات . . فأجابها اخر الأمر أنه مات ميتة طبيعية . . بمرض السل !
الشيء والجزار !

وإذا كانت صور المرض ومشاهد أيام انتشار الأوبئة مؤلمة لا ريب فإن مما لا يمكن نسيانه مشاهد الذين ماتوا تحت التعذيب أو أولئك الذين كان الموت أكثر راحة لهم ربما من العذاب ! فذات ليلة أطفأوا الأنوار فجأة 102

وأغلقوا الطاقات ولن يبق منيرا إلا ضوء الممر الذي مكنتنا أن نراهم يحملون جثة شاب يلبس طقما وكرافة ويرمونها في المنفردة . . ولم تفلح الحاجة ولا أحد سواها هذه المرة في معرفة ما حدث ، لكن الأرجح أنه مات ليلتها تحت التعذيب . وفي مرة غيرها رأيناهم وقد أحضروا أحد القرويين وقد عروه من ثيابه كلها ووقفت مجموعة من العناصر في أول الممر ومجموعة غيرهم في آخره وجعلوا يلسعونه بادئ الأمر بالكابلات والخيزران ويأمرونه بالجري بينهم جيئة وذهابا ويحملونه أن يضع يديه فوق رأسه ، وكان الأمر له أن يسرع مرة وأن يبטيء أخرى . . وهكذا حتى أنهكوه . . ثم اقتادوه - ونحن نتابع ما يجري من خلال شق الطاقة أو من تتبع الصوت - إلى الحمامات ، فكانوا يفتحون الماء البارد عليه لوهلة ثم يحولونه إلى الساخن مرة . . والمسكين بين يديهم لا حول له ولا قوة يصيح وبولول كالشاة بين يدي الجزار!

عملية تجميل 000 وهستيريا!

وتزامنا مع أحداث حماة - التي لم نعلم عنها بالطبع وقتذاك - ازدادت عمليات التعذيب في الفرع حتى صرنا نحن الذين نسمع الأصوات فقط نستجير من هولها . . إلى درجة أن الحاجة مديحة قالت لهم آخر الأمر ترجوهم أن ينقلونا إلى مهجع آخر بعيد بعض الشيء عن غرفة التعذيب لأننا لم نعد نحتمل ! وبمقدار ما كان التعذيب يشتد كان عدد الضحايا في ازدياد . . وكثيرا ما صرنا نراهم يسحبون الشباب محطما أو ميتا فيلفونه بالبطنيات وبأخذونه إلى حيث لم نكن نعلم . . ولا أزال أذكر كيف أخرجوا أحد هؤلاء المساكين من غرفة التعذيب وألقوه أمام باب مهجعنا ليفسحوا مكانا لغيره حتى يتذوق الأهوال . . فجعل هذا المسكين وقد تدلى لسانه والدم يغطي جسده كله يسألهم جرعة ماء ولا من مجيب . . فلما طال به الأمر قرنا له من تحت الباب بعض الماء فجعل يلغقه بلسانه لعقا من على الأرض . 103

ولقد تسببت وحشية التعذيب في إصابة عدد غير قليل من السجناء بالإنتهايات العصبية والهستيريا . . وأذكر أن واحدا من هؤلاء كان نزيل المهجع الذي يجاورنا ، فكنا نسمعه ينخرط في نوبة ضحك مفاجئة حتى لا يكاد يتوقف ، أو ينشج بالبكاء فيعم الحزن المهجع كله وهو على هذه الحال لأيام . ولقد أتى العناصر مرة إلينا وسألونا إن كان لدينا حبا مهدئا - وكانت الحاجة مديحة تستخدمه أحيانا لعلاج رجفة أصابتها بسبب تعذيب الكهرباء - فسألته كعادتها بين المزاح والجد : -

وماذا هناك . . من هستر منكم ؟

فقال لها : هناك واحد بعيد عنك معه هستيريا بكاء حتى أقلق لنا نومنا بيكائه ! وفي مرة أخرى أصابت شابا اخر هستيريا الضحك حتى كأنما فقد عقله ، فرأيتهم من شق الطاقة أخرجونه إلى الممر وخلعوا عنه ثيابه وأجلسوه على الدرج وجعلوا كلما هدا أزوه ليضحك فينفجرون بضحكاتهم الفاجرة لا يراعون قيمة لإنسانية أو حرمة لضعف ولا مرض .

ومن المشاهد التي لا تنسى أيضا ليلة تفجير الآمرية الجوية بدمشق عندما قرعوا علينا الباب وسألونا إن كان لدينا قلم كحل أو أصبع حمرة . . قالت له الحاجة مستغربة : - وهل ترانا جايين من عرس أبوي ! من أين لنا بالكحل والحمرة في هذا المكان !
قال العنصر: لعل وعسى . . ثم مضى . . ولم يلبثوا أن أخرجوا شابا من زنزانتة وأجلسوه قريبا من باب مهجعنا ، فرأينا آثار التعذيب تملؤ وجهه وجسده . . ورأيناهم وقد كبلوه من يديه ورجليه بالكروسي . . التفوا حوله يحاولون إخفاء ما أمكن من آثار التعذيب عن وجهه وعمل "مكياج" له . . وبوسائلها الخاصة أيضا فهمت الحاجة مديحة بعدها أن الآمرية قد ضربت وقتها ، وأنهم أرادوا أن يخرجوه في تلك الليلة ليعترف بشيء يريدونه على التلفزيون !
104 !

تبييض السجون !

وتتعدد عذابات السجن وتتنوع . . لكن عذابات الجسد كانت على شدتها تندمل ولو بعد حين ، أما عذاب الروح وقلق النفوس فلم يكن من السهل التخلص منه . . وكان طبيعيا مقابل انعدام حريتنا وطول معاناتنا أن نتلهف للفرج كل حين ، ونتعلق بالأمل ولو كان قشة ، ويبدو أن حال الناس في هذا المقام مختلف . . وقدراتهم على الإحتمال تتفاوت . . تماما مثلما كانت قدرة العناصر والضباط على اللعب على هذا الوتر فائقة ! ولعل أكثر من برع في هذا أبو رامي رئيس إحدى النوبات . . وأكثر من وقع ضحية لاحتياله وكذبه الحاجتان . . فطالما كان يعدهما بدنو العفو واقتراب يوم الإفراج فتصدقانه وتمضيان معه ، فإذا تكشف كذبه عاد ونسج لهما كذبة جديدة سخرية بهما وتسرية عن نفسه المريضة ! وكان قد أخبر الحاجة رياض يوما أنه إذا قال لها عبارة "دقي البابور" فهي الإشارة . . وأتى مرة يتمشى بجانب المهجع فلقى هذه الكلمة ومضى . . وسرعان ما نهضت الحاجة تدق الباب وتستفسر عنه وتسال وهو لا يجيب . . وتعاود فترسل وراءه فلا يأتي ، وانقضت الساعات وهي على أعصابها تترقب حتى عاد ثانية فقال لها : - غدا الساعة 12 بكل تأكيد ، ولكن قبل أن تخرجوا أتيت لك بكمية من الصوف وأريدك أن تغزليها لي كنزة قبل خروجكم . فوافقت المسكينة على الفور وجلست والحاجة مديحة تعملان فيها طوال الليل ، فما طلع الصباح حتى كانتا قد أتمتاها ! فلما استلمها أحضر كمية أخرى من الصوف وقال لهما : - أريد كنزة أخرى بلا أكمام هذه المرة . . وموعدا قبل الثانية عشرة . . فجلست المسكيتان تغزلان فيها حتى أتمتاها أيضا وأرسلتاها إليه . . ثم جمعتا أغراضهما وهياتا أشياءهما وجلستا تنتظران . . وممرت الساعة الثانية عشر . . وحل المساء . . وانتصف الليل . . ولم يظهر أبو رامي ولا
105

جاء العفو فأدركتا اللعبه وجعلت الحاجة رياض تدعو عليه وتشكيه باللهوالمسكينه تكاد من فيظها ان تموت

وتكررت اللعبه ولكن اللوعه والمعاناه التي كنا فيها كانت تجعلنا نأمل حتى بالوهم وذات مرهقالوا لنا الشيء نفسه فتجهزنا جميعا وجلسنا ننتظر الساعه الثانيه عشرخلف الباب لكن الموعد مر وفات ومضى اليوم كله وانقضى الليل ولم يأتى الفرج 0
فاذا سألنا قالوا :تأخر الموعدلساعات فقط لأنهم يشغلون لكم بالاوراق وجاء ظهر اليوم الثانى دون نتيجته فلما عاودنا السؤال فاجأنا احد العناصريقول:خلاص ليس هناك خروج الاخوان ضربوا أمر به الطيران بدمشق وألغيت الطلعه وأنتم هنا الان بسبب جريمه الاخوان وكلما فعلوا شيئا فستدفون الثمن 0

ولقد كان من المضحكات المبكيات فى قصه وعود الافراج الكاذبه الحديث الذى سرى عن (تبييض السجون) فاندفعت لحاجه رياض تسأل بلهفه :متى؟
فأجابها بعد يومين 0

وكان كل الذي دار فى خاطر ان التبييض يعنى الاخلاء والعفو العام ولكننا لم نجدهم بعد يومينالا وقد أتوا بجرادل الدهان وصبغوا ممرات السجن كلها بالابيض ليغطوا ما تلطخت به من دماء السجناء وجنايات السجنائين 00 فقالت لهم الحاجه بمراره:

هل هذا تبييض السجون عندكم ؟

أجاب :نعم ها نحن فعلا قد بيضناها

فكانت مناسبة جديده جدت فيها الحاجه رياض الاحزان لايام تاليهوهى تندب وتبكي فبكينا وتحرك فينا الاحزان واللوعه والجراح 0106 المحكمة الميدانيه

كانت قرابه ثمانيه شهور على اعتقالنا قد انقضت حينما نادوا فجأه اول ما نادوا على رغاء خ ولمى ع وجاء العنصر فأخذهما معا

ظنا بادىء الامر أنها زياره لكن ساعه تلتها ساعه اخرى مرتا دون أن نسمع لهما حسا ولم يلبث العناصر ان اتوا بعد قليل وأخذوا واحده ثالثه ورابعه 00وعندما وصلوا الى السابعه ولم يعد اى منهن قلنا لها: اذا أنزلوك وكانت زياره فقط فتصنعى السعال ،وإذا كانت غير ذلك فلا تفعلنى شيئا وسنفهم ان الامر مختلف 0

فلما أنزلوها من الطابق العلوى الى القبو ثانيه ساقوها الى غرفه اخرى لكننا شعرنا بقدمها وتنصتنا جيدا ننتظر اشارتها فلم تسعل ولم تفعل شيئا فتأكد لن أن هناك شيئا ما وبعد ما مرت ساعه أخرى وجدناهم فجأه وقد أحضروهن جميعا مصفرات الوجوه باديات الاضطراب ومن شفاههن المرتعشه سمعنا لاول مره عباره (المحكمة الميدانيه)!

كانت المحكمة برئاسة النقيب سليمان حبيب وهو ضابط من القرداحه كث الشعر هزيل الجسم قصير القامه لايكاد يظهر من وراء الطاولة ومعه اربعة ضباط آخرون كانوا يعيدون قرائه ملف كل واحده من البنات عليها ويسردون ما ألصق بها من تهم واعترافات ويسألونها ان كانت تقر بما تسمع ام لا ثم ما كانالا ان توقع وتمضى !لم يكن هناك تعذيب وقتها ولكن التهديدات لم تتعدم فعلى سبيل المثال وعندما نفت ماجده الاتهامات وقالت بأن اعترافاتها اخذت كلها تحت التعذيب قال لها النقيب حبيب: اذا لم تقولى الصدق فسأرميك من الشباك وأحكم عليك بالاعدام وأحرمك شمه النفس!

ثم لم يلبث المقدم ناصف ان أرسل ورائها فى اليوم التالى وقال لها :انت قلت فى المحكمة بالامس أنهم عذبوك من هذا الذى عذبك ؟ 107 هل ضربك أحد ؟ هل اذاك أحد حقا؟

فقال له بارتباك وهي تعلم أنه عذبها بنفسه وأذاقها طعم السياط والخيزران بيديه : نعم . قال لها مزمجرا : من ؟ من عذبك ؟

قالت وقد تملكها الخوف والاضطراب : لا أعرف . .

فقال لها بدهاء : لا ،لم يعذبك أحد ولم يمسك أحد ، عندنا هنا ممنوع أن يلمس أحد أحدا أبدا ولكنك غير صحيانه ! الظاهر أنك كنت خايفة جدا . . ولبش حتى تخافي ؟ !

ولم تكن التهديدات بأقل إيلا ما من عبارات السخرية وبذاءة اللسان لدى أعضاء المحكمة ورئيسها كلهم ، فعندما نفت ماجده أمامهم الإتهامات الملفقة عن علاقتها بخالد الشيخ (أحد المعتقلين) صاح فيها رئيس المحكمة :

هل من الضرورى أن أحكي لك ماذا قال خالد الشيخ عن لون رجلك !

فانفجر الضباط الأربعة بالضحك الفاجر وأخذوا يتندرون عليها ويهزأون بها والمسكينه

تنتحب بحرقه حتى كادت أن تصاب بانهيار . .

كذلك عادت الحاجه رياض من هذه المحكمة وهي تندب وتبكي ، فلما سألناها عم حدث قالت أنه صاح فيها :

أنت لازم ما تخرجي من السجن وتبقي فيه مثل أهل الكهف . . فكانت تبكي من طيب قلبها وتقول للحاجة مديحة :

أبوي يا حجة . . بكرة انت بتطلعي وأبقى أنا هنا أسند الحيطان ! وأما هالة المسكينة فكانت لا تزال مريضة وقتها لا تعي ما حولها ورغم ذلك قرروا أن يأخذوها إلى المحكمة كالأخريات ، فكانوا يسحبونها كالدابة سحباً لتعود دائماً متسخة الثياب معفرة بالطين الذي كان يملأ الدرج والممرات أيامها في فصل الشتاء .

108

عرض بالزواج . . و آخر بالعمالة !

وبعد أن انتهت اللجنة من مقابلة سيع منا وحسب انتقلت تؤدي الدور نفسه في سجون أخرى ، ثم عادت بعد شهرين لتحاكم جميع نزيلات المهجع من المتهمات بالإنتساب إلى الإخوان فقط ، فلما أخرجوني أنا إلى المحكمة وقرأوا علي إضارة التحقيق وما تضمنته من اتهامات سألتني النقيب بعدها :

- ما هي علاقتك بمخلص قنوت ؟

قلت : لا أعرفه .

قال : ألا توجد بينك وبينه علاقة تنظيمية ؟

قلت : أبدا .

فعاد يقول : لكنه اعترف بأنه يعرفك .

قلت : هذا غير صحيح .

وبالفعل فلم أكن أعرف هذا الشاب ولا التقيته رغم أنه كان طبيبا من أصدقاء أخي ، وهذا كله من افتراءات عبد الكريم رجب . وسرعان ما وجدتهم يدخلون المسكين علينا يسحبونه على الأرض سحباً ولا تزال واضحة عليه آثار الرصاصات التي أصابته وهو يحاول الهرب أثناء القبض عليه ، فلما أدخلوه سأله رئيس المحكمة :

هل تعرفها ؟

أجاب : لا .

فسألتني ؟ هل تعرفين هذا الشخص ؟

قلت : لا .

فقال للذي أحضره : خلاص . . خذه من هنا ، هذا انتهى أجله !

وبالفعل وحسبما سمعت فقد تم إعدامه فيما بعد في تدمر وكانوا قد أتوا به من هناك . . فلما أخرجوه عاد النقيب وسألتني : -إذا فأنت لا تقرين بالتهم التي سمعتها تتلى عليك ؟

109

قلت : لا .

قال : لماذا ؟

هل أجبرك أحد على أن تقولي هذا الكلام وتعتري به ؟

قلت له : أنا لم أقل هذا الحكلي وأكلت قتل الدنيا قبل أن يكتبوه على لساني . .

فسألتني مبديا استغراباً كاذباً : يعني عذبوك ؟

قلت له : نعم عذبوني ، ألا تعرف ذلك ؟

قال : لا ، لا أعرف ! وكان "أبو فارس" رئيس قسم التحقيق وقتذاك والذي أحضرني من المهجع يقف في الخارج فناداه

وقال له : - انظر . . هذه ورفيقتها ماجدة بتشكلا لهما مجلس رحمة . .

وأمرني بالذهاب بعد أن طلب مني التوقيع على المحضر الجديد الذي يكتبه . وبعد أربعة أو

خمسة أيام استدعتنا اللجنة ثانية أنا وماجدة بشكل منفرد ، وعندما ذهبت طلب مني النقيب

سليمان نفسه أن أحكي له لمحة عن حياتي ، فتكلمت بصفة عامة وأكدت له أنني لست

منظمة ونفيت الإتهامات من جديد ، فقال لي : - طيب أريد أن أسألك سؤالاً : لو أردنا أن نزوجك واحدا بعثيا من عندنا هل تقبلين ؟

قلت على الفور : لا .
قال : لماذا ؟ قلت : لأنني أولا لا أتزوج من غير إرادة أهلي وعلمهم ، وثانيا لأنني لا أريد أن أتزوج الآن . . .

قال ثانية : لماذا ؟

أجبت : لأنني أريد الآن إكمال دراستي والفكرة ليست على بالي
فقال بخسة : إي والله لو أنني أخرجت لك الآن واحد من تحت يقصد من الشباب - بتوافقي عليه برجلك قبل إيديك ! قلت له : لكن هذا الكلام غير صحيح .

110

قال : إي علي !

ثم غير دفة الحديث فأشار إلى جريدة كويتية بين يديه وقال لي : - انظري كيف يشحد

الإخوان عليكم في الخارج . . في الكويت والعراق . .

ولم أستطع أن أرى شيئا بالطبع ولكنه جعل يقرأ لي أن هبة وزوجها وأولادها في سجون سوريا . . وماجدة وأولادها كذلك بعد أن استشهد زوجها . . مبالغات وتضخيمات من هذا النوع . فقلت له : الحمد لله أنني هنا لا أدري ما الذي يجري في الخارج ! وانتهى "مجلس الرحمة" هذا من غير أن نعرف ما الذي انتهى إليه ولا الأحكام التي صدرت عنه . . وعدت إلى ، المهجع لتتبعني ماجدة بعد قليل ، لكنها سرعان ما اتجهت إلى فراشها وجلست وحدها متفوقة على نفسها لا تتكلم لا تجيب ، ثم وفي منتصف الليل نهضت إلي تقول لي بحرقه :
- لم أعد أستطيع التحمل . . أكاد أن أنفجر . .

سألتها : ما الذي جرى ؟

قالت : منشان الله لا تقولي لأحد ، ولو أحد سألك قولني بأنك ما سمعت شيئا . . قلت :

خير إن شاء الله !

قالت : هذا أبو فارس عرض علي أن يخرجونني مقابل أن أتعامل معهم وأنا لم أعرف بماذا أجيبه فأعطاني مهلة يومين لأرد له الجواب . . فلما أدركت ما تعنيه وتعاني منه قمت واحتضنتها وأنا أقول لها : لا تجزعي ولا تصدقي . . هو يكذب عليك فقط حتى يرى ردة فعلك ويلعب بأعصابك وحسب . . فلا تصدقيه ولا تهتمي . ومضت الأيام بالفعل . . لم يفتح أحد الموضوع معها ولم يكلمها أبو فارس بشيء . . فتأكد لها أن الأمر كان لعبة خسيصة منه وحسب . . وتأكد لنا جميعا أن هؤلاء القوم لهم قلوب أقسى من قلب الوحش ، ونفوس أخط من أن يحيط بها وصف أو بيان !

111

التنفس !

وفي يوم من الأيام وبعد أكثر من ثمانية أشهر وقد اشتد الكرب وضاق بالمهجع الأنفاس وازدحمت الفرش وتلاصقت الأكتاف . . وبعد طلبات عدة جاءنا الإذن أخيرا بالتنفس من عشر دقائق إلى نصف ساعة كاملة . . كل بضعة أيام !

كانت هناك باحة خاصة لهذا الغرض في القسم الجنوبي من السجن نزل إليها بأربع أو خمس درجات تحت الأرض ، كانوا يقتادوننا إليها مشيا يرافقنا ثلاثة أو أربعة عناصر وينزلوننا إليها ، فإذا نظرنا أعلى منا لا نكاد نرى السماء لكثرة ما يحيط بالساحة من أبنية وجدران اسمنتية صماء . . وسرعان ما علمنا أنهم يخرجوننا أولا ثم يعيدوننا ليخرج الشباب إلى الساحة نفسها للتنفس . . فوجدناها وسيلة للإتصال غير المباشر معهم خاصة حينما رأت الحاجة رياض توقيع أخيها على الجدار وعلمت أنه هناك . . ووجدناهم يكتبون بضع كلمات لنا على الجدار فيسألون : هل فلانة موجودة ؟ فكنا نجيب بما نعلم .

وفي مرة تالية سألتهم الحاجة رياض عن أخيها فكتبوا : لا . . فعلمنا أنه نقل إلى تدمر على الأغلب .

وسألتهم أنا في مرة غيرها عن خالد الشيخ الذي طالما سألوني عنه في التحقيق وكان أحد أصدقاء أخي صفوان ، فكتبوا : لا . . ورسموا ما يشبه الجمجمة وعظمتين ، ففهمت أنه أعدم !

وذات مرة ونحن في فترة التنفس تمشى أنا وماجدة وكنا معا بجانب الجدار فوجئنا برأس يعلوه الصابون يمتد من نافذة على الجدار ثم يختفي . . فعلمنا بعد التدقيق أنها نوافذ حمامات الشباب وأن واحدا منهم حاول كما يبدو اغتنام الفرصة ليتكلم معنا لكن العنصر لمح فعاد . . فلما عرفنا ذلك صرنا إذا شعرنا بوجود أحد في الحمام ذهبت إحدانا إلى العنصر المكلف بمراقبتنا لتلهيه بالكلام ونحاول نحن خلال ذلك التحدث

112

مع السجناء ، فكانت وسيلة مبتكرة للسؤال عن سجناء نعرفهم والإستعلام عن لها أقرباء أو أهالي معتقلون .

وذات مرة فوجئنا بأحدهم ألقى إلينا مبلغ مائة ليرة دون أن يشعر العناصر بشيء ، فأخذتها إحدى البنات ووضعتها في الحساب الجماعي للمهجع . وتكرر الأمر مرة ثانية فرموا إلينا بمائتي ليرة ، لكن عنصر المراقبة اكتشف الأمر في الثالثة فقامت القيامة على الشباب المساكين ، ونال المهجع الجنوبي كله نصيبا وافرا من الإهانة والتعذيب فما عادوا لتكرارها أبدا ! وتجدد الأضراب . .

والذي حصل أن الحادثة على مرارتها لم تكن نهاية الإتصال بالشباب قدر ما كانت بداية لمرحلة جديدة ومنعطف هام في حياتنا كلها . . فذات يوم لاحق ، وبينما كنا عائدات من التنفس بشكل عادي لمحنا طفلين صغيرين أنبقي الثياب تبدو عليهما سيماء النعمة والرفاهية . . ولم نلبث أن علمنا من العناصر أنهما ابنا المقدم ناصيف أحضرهما معه كما يبدو لشان ما ، فلما لمحانا بدورهما نادى الأخ أخته يقول : - تعالي . . تعالي جاءت السجينات .

فحرك ذلك في أم محمود حليلة شوقها لأولادها الذين لم تكن تكف عن التلوع عليهم ، وهمت أن تحضن الطفل فخاف وهرب ، فلما وصلنا المهجع كانت ثورة عواطفها وأشواقها قد انفجرت ففجرت معها شجون بقية الأمهات ، وعلا النشيج والنحيب فأغرقتنا جميعا في حناياه . . وفاض بنا إلى حالنا الالم حتى أطل السؤال الذي لا يغيب : - حتى متى ؟ ولم نلبث أن طرحنا فكرة الإضراب من جديد إلى تلبى مطالبنا ويجدوا لنا حلا . . وكان وقت العشاء قد دنا فقمنا وجمعنا كل ما كان قد توفر لنا من طعام وصلنا عن طريق الشباب بالخفية أو وفرناه من بقايا الزيارات فتوازعناه وأكلناه . . وعقدنا عزمنا على الإضراب ، فلما أحضروا

113

الطعام لم ينهض أحد لاستلامه من الطاقة ، فسأل العنصر باستغراب : - لماذا لا تردون ؟ قالت له الحاجة : لا نريد أن نأكل ولا أن نشرب .

قال مندهشا هذه اللهجة الجديدة : أف ! خير . . خير . . طولوا بالكم ! قالت : لا نريد . . خذوا أكلكم ونحن بغنى عنكم . وأغلقت الطاقة . . فذهب العنصر وأخبر رئيس نوبته أبا عادل الذي جاء محموقا وفتح الطاقة بسرعة وقال : - ماذا هناك ؟ خير ! ردت الحاجة وقد وسكت الجميع : لا شيء . فسأل ثانية : - لماذا لا تأخذون العشاء ؟ ونادى على العنصر ليفتح الباب وأمره أن يضع الطعام قريبا منا ففعل . . فعاد وأغلقه وهو يقول بجفاف : -

اللي بياكل على ضرسه بينفع نفسه . . وذهب . .
وبعد حوالي نصف الساعة عاد ففتح الطاقة وسأل : - شو أكلتم ؟ فلم يجبه أحد .
فلما نظر ووجد الطعام مكانه احتد جدا وأمر العنصر بإخراجه ثم انصرف بادي الغضب وهو
يقول : -

أنتم أحرار . في اليوم الثاني أحضروا الفطور فلم نأخذه . الغداء كذلك . . وصار العناصر
ورؤساء الدفعات يذهبون ويعودون إلينا يقولون لنا : -
ما بصير . . أنتم الآن لا تضروا إلا أنفسكم ولن يرد عليكم أحد.. ولأن أحدهم إذا أفلح في
كسر إضرابنا يرفع وبأخذ مكافأة فقد جاء من الجملة أبو شادي رئيس نوبة في القسم
الجنوبي يحاول معنا أيضا ،

114

وجعل يحاول فتح حوار معنا مظهرا عذوبة في الكلام ولطفا مصطنعا في الخطاب . . فقلنا
له بصراحة : -

إما أن تجدوا لنا حلا فتفتحوا لنا الزيارات لنلتقي أبناءنا وأهاليها أو تخرجونا وتعدمونا !
فأجابنا بكل تبجح : - تأكدوا أن أهاليكم إذا وصلوا هنا فنحن لا نردهم . . ولكنهم هم الذين لا
يسألون عنكم !

فقال له ماجدة وقد أخذتنا الحماسة جميعا : لأن أهلنا يخافون أصلا أن يأتوا هنا . . اسم
الفرع وحده يخيفهم .

ولم يصل الحوار بنا إلى شيء ، ومر اليوم الثاني على هذه الحال ، فلما حل الثالث جدت
بعض التطورات . . فقست المعاملة ، وحضر أبو رامي رئيس النوبة الثانية ونادانا بجفاء : -
هيا . . كل المضربات إلى الخارج .

فراعه أن خرجنا كلنا بما فينا الشيوعيات والمسيحيات والمتهمات بالبعث العراقي . . فنظر
إلينا نظرة ملؤها الإستغراب والغضب معا يقول : - والله حلوة . . عاملين اتحاد افرو -
اسيوي ! واقتادنا إلى غرفة التحقيق في القبو فيما بدأ اثنان من العناصر بتفتيش المهجع
وتقليب الأغراض والبحث عن أي شيء يمكن أن يؤكل ليصادروه ، فعثروا على بعض
المعلبات مما كان الشباب قد أرسلوها لنا ، فأخرج منيرة وأمرها أن تفتح كل العلب وترمي
بها في برميل الزباله أمام عينيه . فيما أخذ عنصر اخر يتسلى ويسألنا عما نريد وما هي
طلباتنا ، فقطعنا عليه الطريق وقلنا له : - أنتم تعرفون ما هي طلباتنا وماذا نريد ولا حاجة
لمزيد من الكلام . وبعدها انتهى تفتيش المهجع أعادونا إليه ، وقطعوا الماء عنه ، وبدأ الجوع
والعطش ينهشان في بقية جلدنا المنهك نهشا أمر من السكاكين .

115

من أجل سن نوم !

وواقع الأمر فإنني ومنذ اليوم الثاني فقدت القدرة على الاستمرار من الإعياء ، وبدأت أتفرغ
دما بسبب القرحة ، ولم نلبث أن اكتشفنا أنا وماجدة طبق بيض سبق واشتريته من
المشتريات كان على سطح أرفف حديدية ركبوها لنا في المهجع فأعماهم الله من أن يعثروا
عليه ، وكانت هالة مصابة بالقرحة أيضا فخبأت قليلا من حليب النيدو وبعض السكر للإحتياط
، فجعلت البنات يذبن بعض السكر بالماء اخر كل ليلة ويشربن منه ملعقة ملعقة لكل واحدة
ليتقوين بعض الشيء ، واتفقت ماجدة وهالة أن تتركا الحليب والبيض لي وحدي ، ولم تخبرا
أحدا بذلك حتى لا يفت من عزم أي منا ، ولأن الإتفاق تم على أنه إذا فكت أي واحدة منا
إضرابها فسيتبعها الجميع ويضيع كل الجهد هباء ، لكن حالتي الصحية المتردية جعلت ماجدة
وهالة ترخصا لي في الإنفراد ببعض ما يقيتني ، فصرت ألعق من الحليب بعض الشيء ،
وكانت ماجدة تأخذ بيضة كل يوم إلى الحمام فتنقرها من طرفيها وتتركها هناك وتخرج ،
فأدخل بدوري فأشرقها نيئة بالطبع وأرمي القشر في الحمام . . ولم تدر البنات بذلك إلا

عندما صرنا في قطنا وأبحنا لهم بالسر . . فكذن من استغرابهن وغيظهن وقتها أن يخنقنني !

ولقد حدث ذات يوم أن انتشرت رائحة ثوم في المهجع فجأة ، فصرنا نتساءل ونسأل ، إلى أن أحسسنا بالرائحة تصدر من فم أم شيماء ، فلما سألوها أقسمت أنه سن ثوم واحد وجدته بين ثنايا فراشها فأكلته ، فقامت القيامة أيضا على سن الثوم ذاك ! ولكن الإضراب صمد واستمر ، ولم يفلح الترغيب ولا الترهيب في إثباتنا عن الاستمرار ، رغم أن حالة البنات بدأت تسوء وتسوء . . والإعياء ألقى بكلكته عليهن . . 116 .
زعيمة الإضراب !

ودخلنا رابع يوم للإضراب . . وفوجئنا بأبي عادل يفتح الباب علينا عند الصباح وينادي بشراسة ظاهرة : -

تعالوا هنا . . من زعيمة الإضراب بينكن ؟
فأجبنا بصوت واحد : ما عندنا زعيمة في المهجع .
قال : من اقترحت عليك الإضراب ؟
قلنا : لا أحد .

قال بحنق : لا بد وأن واحدة منكن قالت تعالوا نضرب يابنات . . فمن هي ؟
ولما لم يجبه أحد جعل يتفحص وجوهنا فوقع نظره على أم شيماء فوجدها أكبرنا جسما وأطولنا قامة فقال لها : -

تعالى . . أنت زعيمة الإضراب !
فسألته الحاجة : إلى أين أنت اخذها ؟
قال : لتنال جزاءها .

فهبت ماجدة تقول له : لا . . أنا زعيمة الإضراب . . لماذا أخذت أم شيماء ؟
أجاب : لأن شكلها يوحي بذلك ، ولكن ما دمت اعترفت فتعالى . . ولا أزال أذكر كيف لبست المسكينة حذاءها المهترئ وخرجت وهي ترتدي ثوبا كان أخضر اللون قبل سنين ، ولكن الأيام جعلته انقلب إلى الصفرة . . وتحتة بنطال بيجاما على غير مقاسها يصل الأرض ، وعلى رأسها شباشبية كالفلاحات أكل الدهر عليها وشرب ! فلما وصل بها غرفة التحقيق في القبو نفسه سألها ثانية : - أنت إذا زعيمة الإضراب .
قالت له : لا . قال : ولماذا تكذبين إذا ؟

117

أجابته : لأنه ليس لدينا لا زعيمة إضراب ولا زعيمة مهجع . . ومع ذلك أردت أن تأخذ أم شيماء بالتهمة .

فقال لها وقد اشتد غيظه : إذا ولأنك بدلت نفسك عن أم شيماء فلا بد وأن تعذبي مكانها . .
وجعل يحاول وضعها على الدولاب وهي تصيح به : -
لا أريد أن اكل . . ما دخلكم في ؟ أنا أتحمل مسئولية نفسي . . فلما وجدها على هذا الإصرار والثبات أعادها وأعفاها من التعذيب ونجت برحمة الله .
ترغيب . . وترهيب !

وإذا كانت ماجدة قد نجت من التعذيب فإن الشباب الذين تضامنوا معنا وأضربوا نالوا الأمرين بسبب ذلك ! فعندما بلغ نيا الإضراب المهاجع الأخرى أعلن الشباب في السجن كله حتى الجنوبي منه الإضراب أيضا تضامنا معنا . . لكن الأوامر صدرت بسرعة وأسرع الجلادون والعناصر فعمموا عقوبة الفلقة" على كل سجين على الماشي جعلتهم يتوقفون عن المتابعة ويكسرون إضرابهم تجنباً لمزيد من التعذيب . . ولم يلبث المقدم ناصيف أن أتى بنفسه صيحة اليوم الخامس فأخرج عائشة إلى غرفة التحقيق وحدها وأتى برغيف خبز وجبن وقال لها : -

ستأكلي الان أمامي .

فرضت . . فثار عليها وجعل يشتمها ويقول لها : -

أکید أنتم لكم صلة بالخارج وتريدون استغلال أحداث لبنان لإجراج الحكومة . .
ولم ندر وقتها ما الذي يجري لا في لبنان أو سورية ولا حتى في الزنزانة التي بجانبنا ! فلما
اشتد بالكلام والتهديد عليها خافت من أن يعذبها من جديد فتناولت قطعة جبنه وأكلتها ، فلما
عادت إلى المهجع وقصت علينا ما جرى قامت قيامة البنات ثانية وخربوا الدنيا فوق رأسها
118

على هذه اللقمة . . وصبيحة اليوم التالي عاد المقدم وجعل يخرج البنات واحدة إثر أخرى
ويحاول أن يدس الطعام في فمهن بالغصب فكن يرفضن ويمتنعن ، فإذا أفلح وأدخل اللقمة
في فم واحدة منهن رفضت أن تتلعها . . فلما وصل الدور على هالة وتصرفت التصرف
نفسه - وكانت قد عادت طبيعية وقتذاك - رماها على الأرض وجعل يركلها برجليه ويصفعها
كالمجنون بيديه ويقول لها : -

أصلاً أنت عقوبتك ستكون لوحدك . . وسنعيد لك محكمتك (الميدانية) على ما تفعلين . .
مشيراً إلى الرسالة التي كتبها لوالدتها وأرسلتها مع السجينة الفلسطينية التي تبين أنها
نقلتها للمقدم . لكن أحداً برغم ذلك لم يأكل ، وتوقف عن إحضاري وكنت الوحيدة التي
بقيت في المهجع ، فلما عدت هناك ازدنا كلنا صلابه وتصميماً على الإستمرار والتحدي وقد
لمسنا تأثير الإضراب عليهم ، وعاد العناصر يحاولون واحداً بعد الآخر باللين وبالخادعة أن
ينهوا إضرابنا ، فأعادوا لنا الماء أولاً ، وصاروا يتفننون في إحضار الأطعمة الشهية التي لم
نحلم أن نراها في هذا المكان ليغرونا بها . . وذات مرة حضر هيثم بطبق من لبن سميك ما
عهدناه من قبل أبداً ، وآخر من أجود أنواع المشمش وأشهاها ، وثالث من صنف آخر . . لكن
أحداً برغم الجوع المفرط والإعياء لم يمس أي شيء . . فلما عاد ووجد مسعاه قد فشل كما
فشل سابقوه تملكه الغضب . . ونزلت عليه اللعنات . . فأمر عنصرنا أن يخرج الصحون ،
وجعل وهو يشتم الرب والدين يركلها بقدمه فتتطاير في الممر وتتناثر محتوياتها على الأرض
والجدران . . واشتد الإرهاق بالبنات وزادت المعاناة ، وصارت بعضهن تسقط مغمياً عليها
وتقيء أخريات . . وغالبتنا مصابات بفقر الدم أصلاً . . ولم تعد إحداً تقوى حتى على
النهوض ، فشددنا البطانيات على بطوننا وصرنا حتى الصلاة نؤديها إيماء . . ويعد ذلك كله
وحيثما أسقط في أيديهم جاءنا أبو شادي فسألنا بلهجة بادية الجد : - قوموا وقولوا لي ما
هي طلباتكم .

119

فقال له رغداء والكل ممد على الأرض لا يقوى على الحراك : - أنا أريد إذا متنا أن تقبرونا
في حفرة واحدة .

فأجابها ساخراً : طلبك على العين والرأس ، ولكن ألا توجد لديك أية طلبات أخرى ؟

قالت ماجدة : أريد أن أرى أبي قبل أن أموت ولو لدقيقتين . فسألها : لماذا؟

قالت : لأقبل يديه وأكسب رضاه وحسب .

فقال متهمكاً كعادته : والله مرضية كثير! لو كنت مرضية بالفعل لما كانت هذه حالك .

ثم أغلق الباب بلؤم ومض . . ولم يلبث أن عاد ومعه عدة صناديق من المحارم النسائية
"دليلة" . .

فقال له الحاجة مستغربة : ماذا تفعل . . وماذا تريدنا أن نفعل بكل هذه الصناديق ؟

قال : ألم تطلبوها بأنفسكم ؟

ألا ترون كيف نلبي لكم كل طلباتكم في الحال !

فقال الحاجة وقد تملكنا الغيظ جميعاً : ماذا ؟ طلبناهم من أول ما وصلنا الفرع وبقينا

نطلب ونطلب ولم تردوا . . الآن فقط !

قال : الان فقط وصلني الخبر ! فأجابته وقد كللنا جميعا من التعاطي الممل معهم : خلاص .
لا نريدهم ولا نريد شيئا غيرها . . فقط أغلقوا هذا الباب علينا حتى يأتينا النزع ونموت ثم
افعلوا بنا ما تشاؤون !

فقال بلؤم وتهكم : لا . . اطمئني فلن تموتي . . أنت كالقطة بسبعة أرواح !
وجعل يروح ويغدو على مدار اليوم مكررا محاولاته السمجة عسانا نفك الإضراب على يديه
فيحوز الجائزة . . حتى ضقنا منه أكثر من ضيقنا بالجوع . . وأنهكنا من كثرة الأخذ والرد أكثر
مما أنهكنا العناء والتعب !

120

رحلة جديدة إلى المجهول !

واستمر الإضراب . . ودخل يومه السابع لنفاجاً في الصباح الباكر بكلبشات الحديد تطرق
باب المهجع ففزعنا جميعا ونهضنا برغم الإعياء خائفات ، وكنت وقتها في الحمام فسمعت
أبا طلال ينادي اسمي بصوت عال يختلط بصوت الكلبشات تتأرجح بين يديه . . وكرر النداء
مرتين أو ثلاث وهو يقول : -

بسرعة . . بسرعة . .

فما ظننت إلا أن ساعة الإعدام قد دنت بالفعل ، وها هو ذا أت ليقنادني إليه . . فجلست
مكاني من الرعب لا أستطيع أن أرد أو أنهض ، وما عدت أعرف ما حصل ! فجاءت البنات
وأنهضنني ثم أخرجنني إليه ، فرأيتنه وأنا شبه غائبة وضع القيد في يدي . . فنادته الحاجة : -
فقط وحدها ؟ خذونا معها . . أهي الوحيدة التي تستاهل الإعدام ! كلنا نستاهله . . هيا دعونا
نرتاح من هذا العمر!

لكنه لم يلتفت إليها وجعل ينادي أسماءنا واحدة تلو الأخرى ويخرجنا إلى الممر ويضع القيود
بأيدينا . . ولما لم يأت اسم سجينات التنظيمات الأخرى في القائمة اندفعن نحونا تتقدمهن
منيرة وهي تقول له بانفعال : -

انتظر . . نريد أن نذهب معهن . . فصاح فيها بحنق وهو يدفعها بكل فظاظة : ش . . ر . .
فوقعت على الأرض ، ورد الباقيات بنفس الغلظة إلى المهجع ثم اقتادنا إلى مكتب الأمانات
فدفعوا إلينا أشياءنا هناك ، واكتشفت الحاجة في هذا الموقف الحرج أنهم سرقوا ذهبها
الذي أخذوه منها ساعة القدوم ، ورغم إلحاحها وإصرارها إلا أنها لم تفلح في الحصول على
شيء منه ، واقتادنا أبو طلال بعدها إلى باحة الفرع ، فوجدت نفسي أول الواصلات ، ووجدته
يجذبني بقوة ويقول لي :

121

-قفي هنا .

فلما تلفت وجدته في منتصف الساحة وقد اجتمعت حولي جميع العناصر ، والمقدم
ناصر يطل علينا من الأعلى من خلف شباك مكتبه .

وأتاني صوت أبي طلال وقد أطرقت رأسي ينادي : - ارفعي رأسك .
قلت له : لا أريد أن أرفعه .

قال : سأنزع لك الحجاب في الحال .

قلت : افعل ما تريد .

قال : ألا ترين كم يوجد عناصر حولك ؟ إذا لم تفكي الإضراب الان فسأهينك أمام هؤلاء
جميعا .

قلت له : إفعل ماتريد . . ماذا يمكن أن تفعل أكثر مما فعلتم ! فعصب كثيرا وجعل يشتمني
بعبارات قبيحة ويسب الدين . . فلما لم أرد بشيء التفت وصاح لمامجة فوضع الكلبشات لي
ولها سوبا وعاد يقول لي : -أتعرفي لماذا يقف هؤلاء العناصر هنا كلهم ؟ قلت وأنا في غاية
التوتر والإرهاق : لا . . لا أعرف .

أجاب : هؤلاء أخرجناهم ليتفرجوا عليكم لأنكم صرتم فرجة ! وجعل يهدد البنات ويقول لهن بصوت عال : - نحن أخرجناكم الان ليتفرجوا عليكم . . وإذا لم تفكوا الإضراب فسنزاع الحجاب عنكن وسنهينكن . . وأنتن تعرفن كيف تكون إهانتكن . . وجعل يرغي ويزيد وينادي كأنما أصابه مس : -يا بنات الـ .يا كذا . . والله سنفعل بكن . . . ثم جعل يخرجنا بالتتابع فيكبل كل اثنتين منا سويا ويقتادهما إلى السيارة مباشرة . . ووجدت نفسي الأولى بينهن فلم أجرؤ على الصعود ولم أعد أقوى حتى على رفع قدمي . . ووجدتني تدفعني أياد من ورائي قسرا لأجد نفسي وماجدة مكبلة معي في قفص حقيقي له قضبان وباب
122

وقفل ! ووجدنا بقية البنات تدخلن بعدنا واحدة تلو الأخرى لاهثات الأنفاس . . عندها أحسنا أن الأمل في الإفراج عنا أو في حل مشاكلنا قد مات . . وأيقنا وقتها أنهم سيققادوننا الآن إلى تدمير أو إلى ساحة أخرى للإعدام وأنها النهاية . . فداخ البعض . . وأغمي على بعض . . ووجدنا الحاجة أخرجت ليمونة لا ندري من أين وجعلت تقشرها بيديها وتمسح بها على وجوههن . . فيما أقفل باب السيارة علينا . . وبدأت رحلة جديدة بنا إلى المجهول !
123

الفصل الثالث

سجن قطنا

الموت البطئ

أكتوبر 1982-1985

أخذت السيارة تنهب الأرض نهبا وتكاد في كل انعطافة لها تلفظنا إلى الخارج لولا أن تتلقانا القضبان الصماء تارة وأجساد بعضنا البعض المنهكة تارة أخرى . . وفيما جلس اثنان من الحرس بيننا وبين حجرة القيادة واثنان اخران بين القفص الذي أغلق علينا بإحكام والباب الخلفي مدججين كلهم بالسلاح ، بقي أبو طلال في المقدمة بجوار السائق وحده . كنا أنا وماجدة وأم شيماء والحاجتان ومنتهى وإيمان ورغداء ومنى وحليمة وأم محمود وأمل . . وفي بداية المشوار الذي استغرق قرابة الساعة أصابني الدوار ، فلما تلفت لأستجد بأحد حولي وجدت أكثر البنات مغمى عليهن ! فقد اجتمع علينا الجوع والإرهاق والرعب والهـم . . وكانت شهور قد مضت علينا لم نركب فيها سيارة ولا سطعت علينا الشمس بهذا الطول . . وأما أنا وبعد أن بدأت استعادة وعيي حاولت أن أحرك يدي في القيد فشدد عليها أكثر ، فلما حاولت تخفيف هذا الضغط ازداد واشتد حتى ازرققت أناملتي وأحسست أنها ستنقطع ! ولم نلبث وقد بلغ الكرب مداه أن توقفت بنا السيارة عند حاجز للشرطة المدنية ، وتقدم أحدهم ففتح الباب الخلفي لبرهة وكأنما أرادوا أن ينزلونا . . وقتها استطعت أن ألمح قوسا معدنيا فوقنا مكتوب عليه بخط عريض "سجن قطنا المدني" لكن الباب عاد فأقفل ، وعادوا فساروا بنا إلى الداخل ليتوقفوا عند باب اخر جرت عنده كما تبدى عملية التسليم والإستلام ، وبعد انتظار ربع ساعة تقريبا ريثما سلموا الأوراق واستلموها جاء أحد أفراد الشرطة ففتح باب السيارة ودعانا للنزول . كنا لا نزال كالخارجين من القبور لا نستوعب ما يدور ولا نقوى من الإعياء أن نتحرك . . وأذكر أنني سحبت نفسي سحبا وجاء الشرطي فأسندني ثم أمسكني من يدي وأنزلني . . وارتمينا جميعا من فورنا على
127

الأرض وافترشناها كالشحاذين ! فيما تحلق بعض رجال الشرطة حولنا يتهامسون ويحوقلون ، وأخذ آخرون يطلون من شبابيك المخفر علينا وكأننا مخلوقات من كوكب اخر ! كان منظرنا محزنا مثلما كان غريبا ورهيبا . . فالوجوه مصفرة من الهزال باهتة من اعتياد الظلمة والبعد عن ضوء الشمس ، والثياب رثة ممزقة تراخت فوق أجسادنا المنحولة وقد تغيرت ألوانها واختلطت الرقع عليها فكادت أن تغطيها . . وفوق ذلك كنا لا نزال مقيدات

الأيادي تتحرك - إذا استطعنا - أزواجاً بالكليشات ! وتبين فوق ذلك أن أبا طلال قد نسي مفاتيح الكليشات في كفر سوسة عمداً لا ندري أم سهواً ، فتركنا على حالنا في القيود فوق الرصيف ومض ليحضرها . . لكن وما أن تحركت سيارة المخابرات حتى أقبل الشرطة علينا يدعوننا للدخول إلى غرفتهم إكراماً لنا ، ولما لم نقو حتى على الانتقال سحبونا سحباً وأجلسونا هناك في انتظار عودة أبي طلال بالمفاتيح . كانت غرفة الخفر بسيطة المحتويات تضم طاولة مكتب وخزانة السلاح وبعض الكراسي ، وكان العناصر يطلون من الباب بين الحين والآخر ينظرون إلينا نظرات يختلط الإشفاق فيها بالإستغراب ، ولا تالبت أن تدمع عيونهم ويبكون مثل النساء ! وأقبل واحد منهم في الخمسينيات من عمره وحاول أن يفك الكليشات من أيدينا مرات عديدة فلم يستطع . . فجعل يواسينا والدموع تسيل على خديه ويقول : -

اطمئنوا أخواتي اطمئنوا . . الان ستنتقلون إلى الداخل وتعيشون عيشة طبيعية من جديد . . وجعل يشير من النافذة ويقول وهو لا يتمالك نفسه من البكاء : انظروا . . يوجد أولاد هناك . وشجر . . ونسوان . . هناك واحدة من حماة اسمها غزوة . . وهناك غيرها فلانة وفلانة ، يالله إن شاء الله الآن تنتشطوا وتعودوا إلى حياتكم الطبيعية . . وعندما لمحت أم محمود ولداً هناك تنهدت وقالت له :

128

- وهل إذا وجدنا أولاداً هنا سيعوضوننا عن أولادنا ؟ فقال لها : منشان الله . . والله إن شاء الله سيأتي أولادك وتربنهم وتطمئني عليهم . . ومض الرجل الطيب مسرعاً فأحضر لنا شايًا نشربه ونحن لا نكاد نصدق ما يجري ، ولم يلبث مدير السجن المساعد أبو مطيع أن جاء مع وصول أبي طلال بالمفاتيح بعد قرابة الساعتين ، ففك لنا الكليشات واحدة بعد الأخرى ، ومن غير أن يقول لنا أية كلمة مضى بالعناصر والسيارة . . فيما أخذ أبو مطيع يهدئ من روعنا ويؤكد لنا أن هذا المكان مختلف جداً ، ولن يكون هناك أي تعذيب ولا خوف بعد اليوم . . ودخل إلى منطقة المهاجع ونحن نتبعه ، فلما دخلت أولانا - وكانت أم شيماء - وجدنا السجينات جميعاً هجمن عليها يعانقنها ويحملنها إلى المهجع حملاً . . وهي تناديهم ولا يسمعون ترجوهم أن يتركوها لتمشي بنفسها . . والذي تبين أن أبا مطيع دخل على السجينات وأخبرهن بأن نساء خارجات من أحداث حماة أتبن إليكن . . منهن المكسورة والمجروحة والمصابة ، . وهن في أسوأ حال . ولم يكن الرجل متصنعاً ولا كاذباً وقتها ، وطننا كذلك فعلاً نتيجة الحالة المزرية التي كنا عليها بعد ثلاث سنوات من العيش في قبو لا يشبهه من بقاع الدنيا شيء إلا حفرة القبر!

أحكام شكلية : عشر سنوات فقط !

كان سجن قطنا عبارة عن بناء حجري أشبه ما يكون بالبيوت العربية القديمة تتوزع الغرف فيه على محيط باحته ، وتفصل بين هذه الباحة وبينهم القضبان الحديدية فتجعل من كل حجرة مهجعاً مستقلاً بذاته . وعلاوة على مهجع مخصص من قبل للسجينات السياسيات كانت المهاجع الأخرى موزعة حسب القضايا التي حبست السجينات على ذمهما ، فثمة مهجعان للمتهمة بالقتل ، وآخر للحشيش والمخدرات ، والرابع للدعارة . . وثمة غرفة خامسة أشبه بالزنزانة المنفردة كانت والدة

129

مهدي علواني الذي أعدم مع مجموعة من الشباب في أواخر عام 79 مسجونة فيها وحدها ثم أفرج عنها قبل أن تأتي . . لكن وبرغم المجاورة فإن الإختلاط بين السياسيات والقضائيات كان ممنوعاً ، وكانوا ساعة أن وصلنا قد سمحوا للسياسيات بالخروج لاستقبالنا ، لكن بعضاً ممن كن يعرفتنا لم تتمكن من التعرف علينا بادئ الأمر ! فسناء س . التي كانت معي في الجامعة جعلت تحملق في وتقول : - غير معقول . . هل هذا أنت ؟ ماذا حصل . .

هل جففوكم في العلب ! وأقبلت غزوة ك . أيضا تستقبلنا بضحكتها وفكاهاتها . . وغمرت الفرحة قلوبنا وقلوبهن وكأنا التقينا في بيوتنا معززات مكرمات ! وبين خليط من القبلات والدمعات والتنهدات جلست كل واحدة تقص قصتها . . ولم يلبث أن حضر العقيد موفق السمان قائد المنطقة ورئيس السجن فسلم علينا ورحب بنا وقال لنا أنتم هنا في أمانتنا ولن تجدوا إلا خيرا ، وجعل يؤكد علينا أنه لم تعد للمخابرات أية علاقة بنا ، وأنه لم يعد لذلك أي معنى للاستمرار في الإضراب ، راجيا إيانا أن نهييه للتو ونصبر ونحتسب حتى يأذن الله بالفرج . . وحضر أحد رجال الشرطة بكرسي للعقيد فجلس عليه أمامنا ، ولم يلبث أن أخرج أوراقا بيده وقد ارتسمت معالم الجدية أكثر على قسمات وجهه وقال لنا دون أن تختفي ظلال الحرج عن نبرته : - اسمعوني الآن . . لا أريد بكاء ولا نواحا . . اسمعوا فقط . فسألته الحاجة : ليش إيش في ؟ قال : هذه ورقة الأحكام التي بلغتنا سأقرأها عليكم لتعلم كل منكم حكمها . ومن غير أن يترك لنا فرصة لاسترداد الأنفاس شرع يقرأ : حكمت محكمة أمن الدولة على المتهمه هبة دباغ بعشر سنوات مع الأشغال الشاقة . . فصاحت الحاجة رياض : اه . . ولي على قامتي انشالله يا هبة . 130

وهجمت علي وضمنني وهي تبيكي وتنوح . . وردت الحاجة مديحة معها : -ولي على قامتي انشالله . . عشرسنين ! لكن أثر المفاجأة والتأثر بما سمعوه لم يلبث أن تقلص عندما تذكرت كل منهن نفسها وجال بخاطر كل منهن عدد السنين التي حكمت بها أيضا ، وسرعان ما اتجهت الأنظار إلى المقدم ثانياة وقد بدأ يكمل قراءة بقية الأحكام : - حكمت محكمة أمن الدولة على المتهمه رياض د . بعشرين عاما مع الأشغال الشاقة ! فصاحت به بانفعال : وقف أبوي ليكون دبانة عملت نقطة هنا بالغلط ! ماذا ؟ هل قلت 25 عاما ؟ غير معقول فتركوني واتجهوا إليها وقد تضاعف حكمها يواسونها ويخففون ما وسعهم عنها . . ثم تابعت قراءة الأحكام : - منتهى ج . عشرون سنة . الحاجة مديحة عشر سنوات . رغداء خ . ومنى ع . أربع سنوات (لكنهما جلستا معنا السنين العشرة) ! أم شيماء 4 سنين . عائشة ق . أربع سنوات . حورية أم محمود عشرة . منى ف . وأختها عشرة . ماجدة ل . عشرون . هالة عشرة . ترفة عشرة سنين . . ولما انتهى من الأسماء كلها ورأى حالة الوجوم التي كستنا وتأثرنا وبكاء من يبكي منا ونحن مضربات بالأصل وحالتنا حالة قال لنا مواسيا : 131

- هذه مجرد أحكام شكلية وحسب ، وان شاء الله تخرجوا قبل ذلك ولا تطولوا ، ولا أحد جاء هنا إلا وخرج . . ثم جعل يحدثنا عن حقوقنا هنا والمزايا المتحققة لنا ، وأخذ يشجعنا هنا لكي نتناول الآن طعام الإفطار ونعود إلى حياتنا الطبيعية . . وخلال ذلك أعدت البنات لنا مائدة طويلة على طول المهجع الذي خصصوه من فورهم لنا نحن القادمات الجدد ، فالتفت إلى ماجدة وأنا أصبح ولا أكاد أصدق نفسي : - بندورة . . خيار . . بقدونس . . وبيض ! لكننا وعلى الرغم من الجوع الشديد والطعام الشهوي إلا أننا وما أن ابتلعنا اللقمة الأولى بعد سبعة أيام من الإضراب حتى أصبنا جميعا بمغص في المعدة وعجزنا عن الإستمرار . . لكننا أنهينا إضرابنا واستعدنا بعضا من حيويتنا ، وكانت سعادتنا غامرة وقد لمسنا نجاح إضرابنا ولو إلى حد ، وبدأنا وقد حدثنا سابقاتنا عن نظام الزيارة الأسبوعي لكل الأهالي . . بدأنا نعد الأيام انتظارا ليوم الجمعة الآتي . . وننسخ الأحلام من ظهيرة يوم الأربعاء الذي وصلنا فيه ترقبا لهذا اللقاء الذي طال .

أشغال شاقة !

كان مهجعنا عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل لا يجاوز طولها خمسة أمتار تقع في زاوية السجن اليسرى ، وبعد أن يتجاوز الداخل درجة حجرية في البداية تنخفض أرضية المهجع بما يسمى "العتبة" ثم تعود لترتفع إلى المستوى الأول من جديد . وفي الزاوية اليسرى هناك حجرة الحمام ، وثمة نافذتان تطلان على باحة السجن على يمين الباب . وبعد أن استلمنا المهجع وعلمت كل منا حكمها عاد مدير السجن فسلمنا فرش إسفنج ومخدات وبطانيات

على عددنا ، لكنهما كانت كلها قديمة ومستعملة وممتنة ، وسرعان ما دب الخلاف بين القادمت وهن يتسابقن للفوز بأحسن الفرش والبطانيات وأفضل الأماكن ، وبالطبع لم تتسع الغرفة لنا جميعا ، وحسما للخلاف صارت فرشتي انا وأختي على العتبة ونصفها الآخر على الخلاء ! وبعد أن مرت الأزمة على خير واستطعنا آخر الأمر الإستقرار على حال جعلنا ننتظف المكان معا ونعد مسكننا الجديد فيه . وخلال ذلك لاحظنا أن بعض زوايا الغرفة متآكلة من القدم ، وجانبا من الدرجة التي على الباب مكسور بما يهدد أي عابر بالزلق ، فسالنا مدير السجن أبا مطيع إن كان بالإمكان السماح لنا ببعض الإسمنت لترميمها فوافق ، وفي اليوم الثاني جاءنا مبكرا وفتح علينا الباب فخرجت الحاجة رياض أول من خرج ، فما أن راها ونادها حتى وجدناها وقد أغمي عليها ، وأسرعت الحاجة مديحة فسكبت عليها الماء وصحتها ، فلما فتحت عينيها تشبثت بها وهي تقول : - أبوي يا حاجة ، يريدون أن يأخذوني إلى الأشغال الشاقة ! من شأن الله تكلمي معه . . قولي له لا أستطيع . . ضغطي يرتفع . . ونفسي والله يضيق ولا أتحمل . . وصارت المسكينة تبكي كالممسوس . . فخرجت الحاجة مديحة وقد تملكته الدهشة وسالته : - ما الذي حدث . . إلي أين ستأخذها ؟ قال الرجل باستغراب واضطراب : - والله لم أفعل لها أي شيء . . لم أزد عن أن أقول لها تعالي يا حاجة وخذي الإسمنت . لكنها وكما علمنا بعده ، ولضعف سمعها من جهة ورواسب الخوف التي لا تزال تملؤ نفسها من جهة أخرى ظنت أنه يريد أخذها لتبدأ تنفيذ حكم الأشغال الشاقة . . فأغمي عليها !

ولاده "معقل" في المعتقل !

كان مهجع السياسيات قبلنا غاصا كذلك بنزيلاته القادمت من شتى المحافظات : غزوة ك . من حماة ، وسناء د . من دمشق ، وأم معقل 133 وولدها الذي ولدته في السجن أيضا ، وأم هيثم من جسر الشغور ، وأم عبد الباسط وابنتها عائدة وهما من الجسر أيضا ، وسنيحة وفاطمة من اللاذقية ، وأم محمود كامل من اللاذقية أيضا . ولكل من هؤلاء كانت قصة . . ولكل منهن مأساة وغصة . كانت غزوة طيبة أسنان من حماة ساعدت بشراء بيت في دمشق للشباب الملاحقين ، ولكن عبد الكريم رجب اكتشف ذلك وأبلغ عنها فاعتقلوها من عيادتها في صوران ، وفي البداية أحضروها إلى فرع الأمن السياسي بحماة ثم نقلوها إلى فرع التحقيق العسكري بدمشق ، وبقيت هناك حوالي 6-8 أشهر أحضروها بعدها إلى قطنا لتبقى معنا إلى النهاية . أما سناء ر . فبيدوان أحدا ما قد استعمل هويتها في شراء بيت وهي لا تدري ، وانكشف البيت بعدما تبين أنه باسمها فاعتقلوها وأتوا بها ، وسناء من مواليد 1965 وكانت معنا في كلية الشريعة ، وقد اعتقلوها في نفس اليوم الذي اعتقلت فيه ولكن الجهة التي فعلت ذلك كانت التحقيق العسكري ، وأثناء التحقيق معها سألوها عني ثم طلبوا منها أن تأخذهم إلى بيتي في دمشق ، وبالفعل ذهبوا معها إلى البيت وقدموها أمامهم لتقرع الباب ، فلما فعلت خرجت لها أمي وكنت بالطبع قد اعتقلت الليلة السابقة ولا يزال العناصر كامنين في البيت ، فلما رأتها أمي قالت لها إذهبي ولا تعودي ثانية في محاولة لإنقاذها من الإعتقال ، لكن الدورية التي وراءها والعناصر في الداخل سرعان ما اتصلوا معا وعلموا أن جهة أخرى اعتقلنتني فعادوا بها إلى الفرع من جديد . وأما ثالثة السجينات مطيعة ح . أم معقل فكانت معلمة مدرسة شملها قرار تحويل المدرسين المشكوك في ولائهم للنظام وتحويلهم أواخر السبعينات إلى الوظائف الإدارية ، فمنعت من التدريس وتم تحويلها إلى أحد المستوصفات كموظفة إدارية . . وأثناء ذلك لوحق زوجها ولكنه تمكن من الهرب ، فأتوا واعتقلوها مكانه إضافة إلى اعتقال والده كرهينة ! وكانت مطيعة أيام اعتقالها في أواخر الثلاثينات من عمرها وأما لأربعة أولاد ، 134

وتحمل الخامس في اخر شهور الحمل ، لكن ذلك كله لم يشفع لها ، فأتوا وأخذوها رهينة عن زوجها ووضعوها مؤقتا في مستوصف عسكري تابع للأمن السياسي بالجسر ، وهناك وفي الحجرة التي اعتقلوها فيها ونتيجة الخوف والتهديدات التي أسمعوها إياها جاءها الطلق على غير موعد ، فجعلت تدق الباب عليهم وتستغيث وهي تخبرهم أنها تضع مولودا دون أن يجيبها أحد ، فلما خرج المولود وعلا بكأؤه سمحوا لإحدى الممرضات بالدخول إليها لمساعدتها . . لكن كل شيء كان قد تم ! وبعد ذلك نقلوها والمولود إلى فرع التحقيق العسكري بدمشق وبقيت هناك عدة شهور قبل أن ينقلوها إلى سجن قطنا فنلتقيهما هناك ولم يكن معقل قد جاوز شهوره السبعة أو الثمانية بعد . . ولقد أطلقت حليلة عليه اسم معقل تيمنا بالصحابي معقل بن يسار إضافة إلى أنه ولد في المعتقل . . وعلى الرغم من أنها كانت غاية في الصبر إلا أنها ذقت المر كثيرا من أجله ، وعلاوة على لوعتها المستمرة وهي ترى ابنها يقضي طفولته العضة في السجن من غير ذنب ولا سبب ، وترى مستقبله مجهولا كمستقبلها رهن المهاجع والزنازين والسجون . . علاوة على ذلك الإحساس المؤلم فقد كانت أشد ما تعاني بشأنه وهي تراه بين أيدي الجميع ووفق هواهن . . وكل منهن تفرغ فيه شوقها لبنيتها أو تسلي به مللها من رتابة الحياة حولها فتحاول أن تعلمه ما يروق لها حتى ولو لم يرق للأم ! وتجذبه إليها أو تستبقه معها حتى ولو لم يرضها ذلك ! ولقد تسبب لها بعض من ذلك بكثير من المشاكل والحرج . . فمن أين لا تدري بالتحديد تعلم الولد أول ما تعلم النطق أن يقول " طظ أسد" . . فكان كلما سمع اسمه أو رأى صورته قال ذلك . . وذات مرة مرض معقل وازدادت شكاته فسمحوا بنقله إلى المستوصف للكشف عليه ، وهناك وهو بحالته تلك رأى صورة الرئيس معلقة ، فما أن رآها حتى صاح " طظ أسد بين الناس . . ولم تدر أمه وقتها كيف نجت لكنها وفي مرة تالية وعندما أخذوها إلى المحكمة الميدانية كان لا بد وأن تصطحبه معها ، فلما 135

كانوا أمام اللجنة التفت معقل فرأى تمثال رأس الأسد في زاوية الغرفة قريبا منه فبصق عليه وقال نفس العبارة ، فأمر الضابط باقتياد الأم وابنها فوراً إلى المنفردة للتأديب ، فجعل معقل يبكي وهو يصيح " طظ أسد" . . وصارت أمه كلما حاولت أن تسكته أو تسد له فمه ازداد صياحا وتردادا للعبارة . . وكان عليها أن تتحمل المعاناة في المنفردة من جديد بسببه أو بسبب من لقنوه العبارة وحملوها الثمن !

إثاره الشغب !!

وممن سبقنا إلى قطنا أيضا كانت أم هيثم من جسر الشغور أيضا ، وهي أم لأربعة أطفال شارك زوجها في إيواء بعض الملاحقين ببيتهم فداهمته الخابرات واشتبكت معهم ، فقتل البعض وفر آخرون واعتقل أبو هيثم وزوجته وذاقا معا أشد أنواع العذاب . . وفيما تم إعدام الزوج فيما بعد كما ترجح أم هيثم فقد تم استبقاؤها في السجن بتهمة إثارة الشغب . . وهي نفس التهمة التي وجهت لأم معقل وأم عبد الباسط وابنتها عائدة في المحكمة الميدانية ولم يخرج هؤلاء جميعا إلا أواخر عام 85 . وأماسميحة وفاطمة ، وهما بنات خال وبنات عمه من مرج خوخة بمحافظة اللاذقية فقد خرجتا مع مجموعة من أقربائهما الملاحقين الذين التجأوا إلى الجبال حول قريتهم . وكان عمر فاطمة وقتها 15 سنة وسنيحة 16 سنة ، وكانت معهم بنت ثالثة اسمها غنية عمرها 18 سنة . وهناك في الجبل جلست البنات مع المجموعة الهاربة يطبخن لهم ويساعدنهم في بعض الأمور حتى جاءت عليهم فسادة فداهمتهم الخابرات وحصلت مقاومة انتهت باستشهاد غنية وبعض الشباب الآخرين ، واعتقال سميحة وفاطمة . وقد أخذوهما بادئ الأمر إلى سجن الشيخ حسن بدمشق ليومين أو ثلاثة لم تسلما خلالها من التعذيب ثم أحضروهما إلى قطنا . وفيما لم يسلموا غنية لأهلها ودفنوها بأنفسهم فقد تم نقل الشباب الذين اعتقلوا معهما إلى تدمر جميعا . 136

وكان من نزيلات المهجع الثاني قبلنا أيضا سيدة من اللاذقية اسمها أم محمود كامل في الخمسينيات من عمرها ، ومي جدة وأم لأربعة أو خمسة أبناء . وكان اعتقال أم محمود قبل اعتقالنا بأيام فقط بتهمة مساعدة الملاحقين بتأمين وثائق سفر لهم عن طريق أحد أقربائها . وفي البداية تم سجنها في كفر سوسة قبل أن تأتي هناك ولكنهم نقلوها بسرعة إلى قطنا . وقد تحدثت أنهم عذبوها وضربوها دونما أية مراعاة لسنها ، وظلت في السجن بعد ذلك ولم تخرج إلا معنا .

تجسس مزدوج !

ومن نزيلات قطنا كانت أسماء الفيصل زوجة رياض الترك الزعيم الشيوعي المعروف ، وهي طبيبة في الخمسينيات من عمرها ، وكانت موجودة هناك في المهجع الثاني من قبل أن تأتي ، وأظن أنها كانت قد أمضت في السجن ثلاث سنين قبلنا ، لكنه تم الإفراج عنها بعد أشهر قليلة من لقائنا بها ، وبرغم قصر الفترة إلا أنها تركت في نفوسنا انطبعا حسنا عنها ولمسنا طيبها وحسن تصرفاتها معنا ، وذلك على العكس من أميرة زركلي التي كانت شريكها في المهجع عند وصولنا أيضا ، وهي سيدة دمشقية كردية الأصل في الخامسة والأربعين من عمرها ، متزوجة من عراقي وتشتغل معه في السفارة العراقية ومتهمة بالتجسس المزدوج لصالح العراق وسورية معا ! وبعد اكتشافها سجنتم في سورية فيما صدر عليها الحكم في العراق بالإعدام غيابيا وطلقها زوجها بعد ذلك ، وخرجنا من السجن وهي لا تزال فيه . وكانت هذه السيدة لا تكف عن إبدائها وإثارة المشاكل معنا والحديث بالسوء دوما عن الإخوان ، وكانت لا تكف عن ترديد قولها على مسامعنا : - بكره شوفوا . . . ستخرج كل السجينات وسجينات الإخوان جالسات ينظرن مساكين بأعينهن . . . والذي حصل أننا خرجنا جميعا في النهاية وبقيت هي تنظر إلينا بأعينها سبحان الله . . . ولم يفرجوا عنها إلا بعدنا بسنة أو ربما سنتين ! 137

ضحيا !!

كانت حياة السجن في قطنا مختلفة عن سابقتها بكفرسوسة لا ريب ، والميزات والتحسين الذي وجدناها نعمة كبرى ، لكن السجن يظل في كل الإعتبارات هو السجن . . . والقيد قيد حتى ولو كان من ذهب . . . وبعد أن يفقد الإنسان في السجن طعم الحرية تمتد بين ناظره من ثم قائمة أطول من أن تعد من أصناف المشاكل والالام والمعاناة المتنوعة . . . وعلى العموم كنا في النتيجة مجبرين على التكيف والتعايش . . . نحاول كلما ضاقت علينا الحال أن نجد منفسا جديدا يعيننا ويهون علينا الخطوب . لم نكن نختلط في البداية مع السجينات القضائيات لأن الأبواب كانت تفتح لنا بالتناوب ، مجموعة في الصباح والأخرى في المساء ثم يعكسون الآية في اليوم التالي ، لكننا كنا نتكلم معهن من وراء القضبان ونستمع إلى قصصهن فنجد في ذلك بعض التسلية والترويح . . . وكنا ننصحن أحيانا ونريهن أغلاطهن ، لكننا وجدنا الكثيرات منهن كن ضحايا سوء تربية الأهل أو ظروف السوء التي أحاطت بنشأتهن . ولقد نجحنا ذات مرة في المساعدة على استنقاذ إحداهن من واقعها السييء ومستقبلها المظلم ، فنتيجة لخلاف معهم قام أهل هذه الفتاة بطردها من البيت بلا رجعة ، فلم تجد من يؤويها إلا امرأة قوادة أخذتها إلى بيتها ومضت بها في هذا الطريق ، فلما أحسنا أنها ضحية تدفع ثمن سوء تصرفات الغير سعينا للإتصال بباحثة اجتماعية كانت تأتي ضمن مجموعة من الباحثات لتعمل وسط السجينات ، وعلى الرغم من أن الإتصال كان محظورا بيننا وبين هؤلاء الباحثات أو حتى مع طلاب الحقوق الذين يحضرون دوريا لدراسة حال السجن والسجناء القضائيين ، إلا أننا وفقنا في الإتصال معها بطريقة ما ، وبعدما أطلعناها على رأينا ومعلوماتنا تفاعلت الباحثة معنا ومع السجينة ، ولم تلبث أن أخذتها إلى المحكمة وعالجت لها وضعها هناك ووجدوا لها من ثم شابا زوجها إياه . 138

القروانة !!

وإذا كان المقام هنا هو الحديث عن مواصفات سجن قطنا فإن من الطريف الإشارة إلى وضع الطعام الذي كنا نتناوله في هذا المنزل الجديد ! فلقد كانت الوجبات الرئيسية تأتي من سجن القلعة بحلل أو صواني معدنية ، لكن "القروانة" ما كانت تصل إلا وقد كدنا نموت كلنا من الجوع . . فلقد كان على السيارة أن تقل السجينات القضائيات إلى المحكمة وترجعهن وتأتي بالطعام في الطريق . . فإذا وصل أنزله الشرطة في باحة السجن وفتحوا للسجينات ليتجمعن ويتوزعنه بينهن . . لكن المشاكل والخناقات سرعان ما كانت تندلع : وضعتي لها أكثر . . وأقل . . ونريد هذه أن توزع لنا . . ولا نريد تلك . . ولا ينتهي الأمر إلا وقد تفرقت القلوب واشمأزت النفوس . . فلما ازدادت المشاكل عين مدير السجن غزوة لهذه المهمة ، وظلت المسكينة حتى خروجها موكلة بتوزيع وجبات الطعام على كل السجينات ! وإذا كانت هذه كيفية توزيع الطعام فإن نوعيته كانت قصة أخرى . . فكثيرا ما كنا إذا حضرنا الطعام وبدأنا نحركه طفت الصراخ على سطحه أو تمهلت حتى نلتقطها بين الأسنان ! وكان اعتياديا أن تصلنا الصواني وآثار أقدام المرافقين منطبعة عليها وقد وطأتها أثناء النقل . . وإذا بكر السائق في الوصول لسبب ما رمي "القروانة" على باب السجن الخارجي فتسبقتنا الكلاب والقطط إلى الطعام قبل أن يحضر مدير السجن ويفتح الباب ! وصرنا لذلك نطلب من إحدى السجانات أن تشتري لنا - سرا بالطبع - مع طعامها شيئا نأكله . . وبعد ذلك سمحوا لنا رسميا بذلك فصارت أم ديبو السجانية الأخرى - تأتي بالأغراض وتبيعها لنا ولكن بأسعار مضاعفة ! كذلك كانت هناك مشكلة أخرى في الماء الذي لم يكن يصل عبر الحنفيات في المهاجع ، وإنما كان علينا أن نتنظر وصولها إلى المهاجع بالتناوب من حنفية رئيسية في السجن مددوا منها خرطوما متفرعا على 139 كل الغرف ، وكانوا يديرونه على المهاجع بالساعة ، ويتحكم كل مهجع بالمهجع الذي يليه إذا شاء . . وكان الماء لذلك أحد أسباب المشاكل بيننا ! وعندما حضر جهاز التلفزيون إلى المهجع بمرسوم من إدارة المخابرات لتثقيفنا "ثوريا" وإطلاعنا على منجزات النظام الرائدة ! حضر سبب جديد للخلاف بين النزليات . . وكان من طرائف التلفزيون أن الحاجة رياض تصر على أن يلتزم الجميع الهدوء والسكينة وبصغوا باهتمام إلى كل نشرات الأخبار لعل خبرا يصدر بالعفو عنا فتكون أول من يتلقاه ! ولقد حصل فيما بعد وأثناء ما سمي ببيعة الأبد للرئيس الأسد عام 85 أن صدر عفو بالفعل ولكن عن المتخلفين عن الخدمة العسكرية فقط ، لكن الحاجة رياض التي واطبت على سماع الأخبار انتظارا لمثل هذا النبا سقطت فور سماع الموجز مغشيا عليها وهي تصيح : - الحمد لله سارى أمي . . فلما سمعنا التفاصيل أسقط في نفوسنا وسقطنا مكسوري خاطر ، لكنها كانت فاجعة بالنسبة للحاجة رياض . . بقيت أياما على اثرها غارقة في لجج الدموع والأحزان !

حريق !

ومما لا يغيب عن البال من أيام سجن قطنا النار التي شبت أكثر من مرة هناك شاهدا جديدا على قساوة الحياة التي نحيها وعنصر آخر من عناصر الألم والتوتر والإضطراب التي تلفنا باستمرار . . ففي المرة الأولى اشتعلت النار في حمام مهجع القتل فالتهمت سجينة متهمه بقتل زوجها اسمها فاطمة . . وامتدت النار إلى المهجع كله فأحرقته وكادت تؤدي بحياة السجينات الأخريات . . ووقتها كنت أنا وماجدة على شباك مهجعنا المطل عليهن نقرأ القرآن بعد المغرب . . فجعلن ينادين علي وقتها ويستغثن بي ، لكن الأبواب كانت مقفلة علينا جميعا ، فجعلنا ننادي بدورنا على السجانية أم ديبو لتفعل شيئا ، لكنها لم تكن ترد علينا في 140

العادة بعد إقفال المهاجع ولا تستجيب . . فلما وصلت السنة النار إلى ساحة السجن وغطى الدخان المكان كله وكاد الحريق يطال أشرطة الكهرباء وأوعية الغاز في المطبخ المجاور . . قرعت أم ديبو جرس الإنذار آخر الأمر . . وحضر العناصر يحاولون في ظلمة الليل تبين

مصدر الحريق دون جدوى . . وفي النهاية وأثناء الهرج والمرج قامت إحدى سجينات المهجع نفسه فأطفأت ببطانيتهما النار عن السجينة التي شبت بها النار وعن المكان . . لكن الناركانت قد التهمت جزءا كبيرا من جسد فاطمة فأسلمت الروح بعد أسبوع . . وكان أنين المسكينة طوال ذلك وهي في غيبوبتها يمنعنا النوم ويزيد من عذابنا النفسي . . ورائحة لحمها المتقيح تزكم الأنوف وتزيد في معاناتنا وألمنا . . وأما المرة الثانية فكانت في مهجعنا نفسه عندما اندلعت النار في "البابور" أثناء استحمام واحدة من البنات ، فقامت من اضطرابها بقفل الباب بدلا من فتحه والتجأت إلى الزاوية التي تقابله من الحمام ، فصارت النار بينها وبين الباب وكادت الأخرى تحترق ، لكن لطف الله تداركها وتداركنا . . فاضطررنا إلى كسر القفل ، ودخلت ماجدة جزاها الله خيرا فحملت البابور لا تبالي بالنار المشتعلة فيه ، فأخرجته إلى العتبة وألقته هناك ، واحترقت يدها بسبب ذلك .
رحمهم الله !

وإذا كانت ميزات سجن قطنا المدني الإيجابية لا تعد قياسا بكفر سوسة ، إلا أن السماح بالزيارات كانت في طليعة ذلك كله . ولقد تنعمنا في فترة من الفترات بحرية المراسلة ، فكتبت إلى بيت أخي بحلب وبيت عمتي وحتى أم شيماء بالسعودية . . وكنت أتلقى البريد منهم جميعا ، لكن ذلك لم يدم أكثر من شهرين أو ثلاثة ثم عاد نظام الرقابة الصارم على الرسائل وعلى الكتب والمطبوعات ، فيما استمرت الزيارة الأسبوعية كل يوم جمعة ولم تتوقف . 141

كان الاهالي يتوافدون من شتى المحافظات الى سجن قطنا منذ الفجر يتربعون ساعة اللقاء . . وبعد أن يتجمعوا على البوابة ساعات طوالا ويعن على بال المسؤول يومها السماح لهم بالدخول يكون النهار قد انتصف عى أحسن الأحوال . . فيسوقونهم إلى قاعة الزيارة كأول خطوة ، وبعد أن يتم تفتيش "الزيارات" أو الهدايا والأغراض التي جلبها الزائرون فيستبعد ما قد يخالف التعليمات أو لا يوافق هوى العنصر القائم على التفتيش ، ويجاز المسموح أو ما يمكن أن ينال العنصر نفسه نصيبا منه أو عطاء عليه . . بعد ذلك يطل الزوار علينا وبيننا وبينهم حاجزان من القضبان بينهما ممر يبقى رجال الشرطة يتسكعون فيه يراقبون أحاديثنا ويتدخلون فيها بعض الأحيان وفينا ! وكانت ليلة لا توصف ونحن ننتظر أول يوم جمعة بعد وصولنا لنطلب من أهالي السجينات قبلنا الإتصال بأهالينا وإخبارهم بانتقالنا وبمكاننا ، فلما حضر أهل غزوة حينها رجوتهم أن يفعلوا ذلك مع أهلي لعلمهم يحضرون الجمعة التالية ، ولم أكن أعلم أن أحدا منهم لم يعد على قيد الحياة وأنهم قد قضوا نحبهم قبل حوالي ثمانية أشهر في أحداث حماة ، لكن أهل غزوة كانوا يعلمون بالطبع ، علاوة على أن والدتها نفسها استشهدت في الأحداث ، لكنهم عادوا في الأسبوع التالي واعتذروا بأنهم لم يعرفوا مكان أهلي بعد التغيير الكبير الذي حصل في المدينة . . وجعلوا يحدثونني عن الأحداث ولكن أحدا لم يذكر شيئا عن أهلي وعائلي . . وفي الزيارة التالية حضر أهل رفيقتي سناء فرجوتهم أن يذهبوا إلى دار عمتي في دمشق ويخبروها بانتقالي ، فلما اجتمعوا معها وعلموا أخبار أهلي منها أشفقوا علي ولم يثاؤوا إخباري ، وأجابوني في زيارتهم التالية أنهم لم يستدلوا على البيت ، وفي الزيارة التي تلتها قالوا أنهم ذهبوا فوجدوها مريضة ولم يسالموها عن أهلي ، وبدأت أحس أن في الأمر شيئا غيرطبيعي ، فلما ذهبوا قلت لسناء مواجهة : - تعالي لأقول لك . . أمك ذهبت إلى عمتي وعمتي قالت لها شيئا . . فماذا هناك ؟
هل مات أبي 142

فلم تتمالك نفسها وردت بصوت خافت : الله يرحمه . قلحت : الله يرحمه . . إذا كان مات فالله يرحمه . فقالت لي : هكذا بكل سهولة الله يرحمه ؟ قلت لها وكان ألم السجن يسهل على الإنسان كل شيء : الله يرحمه . . ماذا يمكن أن أفعل له إذا مات ؟ لو نطحت رأسي بالجدار فلن يرجع ! فوجدتها تبكي وبقايا كلام لا تزال على شفيتها ، فقلت لها : هل مات أحد

آخر معه ؟ فأشارت لي نعم برأسها . قلت لها : أمي ماتت ؟ قالت : الله يرحمها . صحت : ولي . . وأين إخوتي إذا ؟ فقالت لي : ذهبوا مع أمك . . لم ترض بأن تتركهم فأخذتهم معها ! قلت لها : بماذا تخرفين . . هل تمزحين ؟ كل إخوتي ماتوا ! قالت : إي كلهم . . الله يرحمهم . . أليس ذلك أحسن من أن يبقى أحد منهم وينشغل بالك عليه ! قلت وأنا كمن يتخبط في كابوس مرعب : إي طيب خلاص . . لا تزيدني . وما عدت أريد أن أفهم أي شيء أو أسمع المزيد . . ولم تلبث عمتي وعمي أن حضرا في الزيارة التالية فلفت نظري أن وجدتتها تلبس السواد وساكتها مستغربة : -عمتي . . لماذا تلبسين الأسود ؟ فقالت لي : هيك والله جاي على بالي الأسود ! قلت لها : هل توفيت جدتي ؟ قالت لي : لا . قلت : إذا لماذا تلبسين الأسود !14

فغمزني عمي بطرف عينه لأغير الموضوع ، لكنني لم أتمالك نفسي وقلت له : -عمي . . لماذا تغمزني ! هل هناك شيء ؟ قال لي وهو لا يريد إعادة القصة أمام عمتي التي صدمت جدا بما حدث : -لاشيء . . للأشيء حدث . فقلت لها من جديد : صحيح لماذا تلبسين الأسود؟ ترى نقز قلبي ! فابتسمت لي ابتسامة حزن وابتدرني عمي بقوله : - كيف تسالينها هذا السؤال . . ألا تعرفين الخبر ؟ قلت وكأنني عدت إلى ذاكرتي تلك اللحظة وحسب : نعم . عندي خبر بأن أهلي استشهدوا ، لكن أنا أسألها لماذا هي لابسة الأسود . . ولم يخطر لي أنها تلبسه على أهلي . . ونسيت أنها متشحة بالسواد حزنا على بيت أخيها ! فقال لي عمي وهو يراني أمامه أتصرف ببلاهة : إي حزنا على أهلك . . هل فهمت ! قلت لها : أنظري ، إذا مرة ثانية ستأتين لابسة أسود لعندي فلا تأتي . . لأن الشهيد حي مو ميت ، وإذا أردت أن تحزني عليهم لأنهم أحياء فلا تأتي لعندي .

وشاب الشهود !

كانت العبارة قاسية على عمتي ، لكن الحالة كانت أقسى على نفسي وأشد ، ورغم أن عمتي انفجرت وقتها في البكاء وأخذ عمي يهدىء من روعها فما سكتت إلا بصعوبة ، إلا أنها تفهمت حالتي لا ريب ، ولما عادت في المرة التالية أتت وقد غيرت السواد بالفعل . . لكنني لم أسمع قصة أهلي بالتفصيل إلا من أم ماجدة التي حضر والدها أول مرة فلم تكذ تعرفه من الشيب الذي غطي رأسه والكرسي المتحرك الذي أقعده نيا 144

اعتقالها عليه ، فلما تأكدت أنه أباه جعلت تقفز من فرحتها وقد عقدت الفرحة لسانها فلا تستطيع الكلام ، فلما استدركت نفسها قالت لأبيها وكأنها تعتذر : - والله ما عرفتك . . تاري شايب . . فقال لها : والله شيبيني يا بنتي ! وكان والدها حزيا ضد الإخوان فتوقعت أن تكون لديه ردة فعل ضدها أيضا ، لكنه لما رآها أول ما حضر بكى وهو يقول : - انظري . . أنا ات ورافع رأسي ولي الشرف والحمد لله . وفي الزيارة التالية حضرت أم ماجدة فكانت فرحتنا معا بها لا توصف ، وأبلغتني أم ماجدة أول ما أبلغتني باستشهاد أخي وارف ، وقصت علي القصة من بداياتها ، فقالت بأن الخبرات كانوا بعد خروج أمي من السجن قد استبقوا كميناً في بيتنا وفي ظنهم أن إخوتي سيأتون للسلام على أمي بعد خروجها فيعتقلونهم ، فلما لم يجدوا جدوى من ذلك ولم يحضر أي منهم جعلوا يعتدون بالتعذيب على أبي ، فيخرجونه بين فينة وأخرى إلى حديقة كبيرة كانت أمام بيتنا على طرف العاصي ويعذبونه أمام الناس فيها ، فيضربونه مرة ، ويحرقون له ذقنه مرة ، ويجرجرونه في الشارع أخرى ، إهانة وإذلالاً له وتخويفاً لغيره . . وكانت أمي تخرج عليهم وهي تصيح وتدعو ، فيقول لها مسؤول الدورية : - سلمينا أولادك لنكف عن زوجك ونعطيك ابنتك . . فترد عليه بتحد كعادتها : سلمني إياها بيدي . . حتى أراها بعيني وأمسكها بيدي لأقول لك أين بقية أولادي ، لكن والله طالما أنها غير موجودة أمام عيني فلن تأخذ شيئاً ولو قتلتنني . ثم كانت الفاجعة التالية حينما استشهد أخي وارف في حلب (وكان عمره 18 عاماً وحسب) أثناء مدهامة بيت أوت إليه مجموعة

من الملاحقين كان من بينهم وذلك قبل 16 يوما فقط من استشهاد أهلي ، وبرغم الفاجعة فإن أمني اثرت أن تكتم الخبر عن أبي وهو بحالته تلك 145 فكانت تذهب عند أم ماجدة وتخرج صورة وارف هناك وتبكي عليها ما شاءت حتى تطفئ حرقه قلبها فتعود إلى البيت . . لكن ذلك لم يمنعها أن تحاول زيارتي في السجن بأي وسيلة ، ولم تمنعها النوازل أن تمضي إلى كفر سوسة مع أم ماجدة مرة فتقابل ناصيف من جديد وتساس إذنا بزيارتي ، فكان كل الذي أجابها به : - والله أسفين ، هذا الإسم غير موجود عندنا ! فكادت أمني - كما روت لي أم ماجدة أن تجن . . وعندما تركت مكتبه وقفت أمام نافذة مهجنا المطلة على ساحة الفرع الداخلية والتفتت إلى أحد العناصر من لهفتها تساله راجية أن يخبرها ولو بإشارة من طرف عينه إن كنت لا أزال هناك أم لا ، لكنها لم تحظ حتى بتلك الإشارة وغادرت ملووعة القلب دون أن تراني أو تسمع عني أي شيء . . وظلت وظلوا جميعا على حالتهم تلك حتى كانت بداية الأحداث في حماة .

شهداء أحياء

كنا لا نزال في سجن كفر سوسة حينما تفجرت أحداث حماة الشهيرة في شباط 82 لكننا في عزلتنا المفروضة وقتذاك لم نسمع بأدنى خبر عنها ، وعلى الرغم من تسرب بعض الأنباء لبعض البنات بيننا إلا أن المقدم ناصيف حذرهن أشد التحذير من أن يتحدثن عنها أو أن يعلمنني بشيء عن مصير أهلي ، فلما نقلنا إلى قطننا بدأ الخبر يصل إلي والقص التي لا تصدق والفاجعة الرهيبة تبلغني من هنا وهناك ، فلما حضرت أم ماجدة روت لي المزيد من تفاصيل ما جرى وخاصة فيما يتعلق بأهلي رحمهم الله ، وقالت بأن البداية كانت حينما رأت في منامها أن إخوتي الصغار ينامون على سرير واحد ولكنهم غارقون في الماء ، وأحست أنهم برغم غرقهم فقد كانوا يتمايلون في الماء الصافي وهم أحياء . . ثم رأت أمني تدخل وترقي عليها فتنقسم في حجرها إلى قسمين . . فلما استيقظت حدثها قلبها بأن أهلي في خطر ، فقامت من 146

فورها ورجت زوجها أن يذهب ويستطلع أمرهم ، ويجهد لكي يعود بهم معه إلى البيت ، ولما كان أهل ماجدة قد انتقلوا من "حي الطوافرة" الذي جاورونا فيه طويلا إلى حي جديد على طريق حمص ، مما جعلهم عمليا من سكان الضواحي ، فقد كان عليه أن يقطع مسافة طويلة حتى يبالغ محيط المدينة القديم ، فلما خرج بعد صلاة صباح ذلك اليوم وشارف حماة وجدها مطوقة من كل مداخلها ، فلم يستطع التقدم أكثر وعاد ناجيا بنفسه . . وانفجرت الأحداث . . وعم القتل والتدمير . . وانقطعت حماة عن العالم بينما المذابح تجري في شوارعها وأهلها يموتون بالمئات . . وأثناء ذلك حاولت عمتي من جهتها الذهاب من دمشق إلى حماة لاستطلاع حال أهلي ومساعدتهم في شيء ، ورغم أن محاولتها تلك كانت انتحارية لم يوافقها عليها حتى زوجها ، إلا أنها أصرت على المحاولة ، وتمكنت من دخول المدينة بالفعل حتى شارفت على الحي الذي نسكن فيه ، إلا أن القوات العسكرية ردتها من هناك وما سمحوا لها بالإستمرار ، ووقتها كانت أربعة أيام قد مضت على أبي وهو ملقى في الشارع لا يجرؤ أحد حتى على رفع جثته !

كسره خبزو حسب !

أما حادثة استشهادهم فبدأت عندما اعتصم أفراد من المقاومة في حينا واستعصى على القوات الحكومية اقتحامه ، فأحكموا الحصار حوله ومنعوا المؤن والكهرباء والماء عن الحي كله ، واستمر الحصار لسبعة أيام كما سمعت حتى لم يبق في بيتنا من الطعام أو الماء شيء ، فخرج أبي وجعل يسأل طليعة القوات المحاصرة بعض ما بقيت الأطفال ، وروي لي خالي الذي كان يشهد الحادثة من شباك بيته المطل على المكان أن الجندي انتهر أبي وأمره بالعودة من حيث أتى ، لكن أحدا لم يكن ليستطيع أن يسكت جوع الأطفال ، فخرج أبي مرة أخرى يقول للجنود : - فقط نريد قطعة خبز للصغار . 147

فأجابه الجندي منتهرا : إرجع أحسن ما أرشك وأرميك بالأرض . لكن ذلك لم يرد أبي إلا لبرهة ، عاد للمرة الثالثة بعدها يسألهم خبزا فالأولاد يكادون يموتون . . في تلك المرة لم يجبه الجنود إلا بزخه رصاص أردته على باب بيته . وصاح خالي من بيته المقابل وسقط من هول المنظر مغشيا عليه ، فلما ركضت زوجة ابنه لتحمله لمحها الجنود فalcوا على البيت قنبلة ضوئية لتكشف كل ما فيه واقتحموا عليهم وانتشروا في كل مكان فيه متدرعين بالنساء والأطفال فيه . . في تلك اللحظات وعندما سقط أبي برصاص الجنود سمع أخي ماهر الصوت من قبو البيت حيث كان الجميع قد التجأ فخرج ليستطلع الأمر ، فلما رأى أباه صريعا أمامه ارتد إلى حجرته وتناول سلاحا كان "شبيهة الثورة" قد سلموه إياه ليدافع عن أمن الثورة" ولم يكن عمره قد جاوز الثالثة عشرة بعد ! واندفع ماهر خارج البيت يطلق النار على الجنود الذين قتلوا أباه ، فأصاب منهم من أصاب قبل أن يردوه هو الآخر قتيلًا . . ولقد قال ناصيف خير بك لما جده ولبقية رفيقاتي بعد ذلك عنه بكل صراحة : -أعطيناه السلاح ليحمينا به فقتلنا به . . هؤلاء كلهم خونة . . ولذلك جعلنا الصغير فيهم أربع قطع لأن بذرته إخوان وكان سيطلع إخوان ! بعد ذلك خرجت أمي تدعو عليهم وتبكي وتستنزل اللعنات ، فأكملوا جريمتهم ورشوها أمام الباب أيضا . . ثم دخلوا على البيت فأجهزوا على كل من بقي فيه : ياسر ابن أربعة أعوام ، وقمر ابنة خمسة ، ورناء في السادسة ، وصفا التي كانت قد دخلت المدرسة في أول سنة لها وقد بلغت لتوها السبعة أعوام ، ثم أختي ظلال التي كانت في العشرين تقريبا . . وأما أختي الثلاثة المتبقين فكان صفوان أولهم خارج سورية ، وغسان وسامر متخفيان في حلب ، فكانوا الناجين من بين بقية الأسيرة التي قضت جميعا ، وبالطبع فقد تم جمع جثث الجميع مع بقية القتلى في البلد ودفنوا في مقابر جماعية دونما تمييز وذلك قبل أن يتم رفع حظر التجول ووقف القتل والتدمير بأيام . . وعندما تمكن الناس من الخروج من 148

مخابئهم آخر الأمر وتوجه عمي وزوجته ليروا ما حدث لم يجدوا إلا غطاء رأس أمي عند بوابة البيت وسط بقعة كبيرة من الدم ، ووجدوا على جدران القبو وفوق أرضه دم إختي البقية ولا أثر لجثة أي منهم .
حي على الجهاد

وأما أخي عامر الذي كان في الرابعة عشر من عمره فقد استشهد في نفس الفترة بعيدا عن أهلي في شارع 8 اذار . وكانت أمي قد أرسلت عامر ليجلس مع جدته في بيت أخيها المسافر إلى السعودية حتى لا يأتي المخابرات ووجدوا البيت خاليا فيسرقونه كعادتهم ، لكنهم لما أتوا للتفتيش فعلوا ما هو أسوأ . . فعندما وجدوا عودة من ممتلكات خالي جلسوا يدقون عليه وقد انهمك بقتيتهم في العبث بمحتويات الغرف الأخرى بلا رقيب أو حسيب ، ثم طلبوا من جدتي وسط قهقهاتهم الفاجرة أن تقوم فترقص لهم ، في الوقت الذي اختبأ عامر تحت السرير فما وجدوه ، ومن رعبها وخشية منها أن يتمادوا معها أو أن يعثروا على أخي قامت جدتي بسننها الذي قارب السبعين فامتثلت ورقصت بهيبتها ووقارها وتقاهها لهم . . فلما انصرفوا وقد نهبوا ما أرادوا وحطموا أكثر مما نهبوا نادى مناد في المآذن احي على الجهادا . . فخلع أخي ساعته وتوضأ وصلى ركعتين سنة الشهادة ودفع إليها بالساعة وقال لها : - هذه الساعة ذكرى مني خليها معك وأعطيها لأمي ذكرى وادعي لي . . وخرج راكضا

وجدتني تناديه أن يا عامر تعال وهو لا يستجيب . . ورأته آخر ما رأته وقد دخل سوق الطويل حيث كان الإخوان يعتمسون بداخله ، ولم يخرج بعدها إلا مرة واحدة طرق الباب فيها على إحدى القريبات حافي القدمين ممزق الثياب يسألها أن تمنحه أي نوع من الطعام أو اللباس لديها ، وأخبرها بأن رفاقه يكادون يموتون من الجوع والبرد . . ولم يكن لدى هذه العائلة من الأولاد إلا البنات ، فاحتارت أول الأمر ، ثم أعطته ما توفر من جاكيتات وكنزات كبيرة الحجم يمكن للشباب أن يستخدمونها ، وأعدت له بعض الطعام وأشياء أخرى أخذها وذهمت ، وفي اليوم التالي وجدوه مستشهدا في نفس الشارع ، فأتى رفاقه ودفنوه مكان مسجد هدمته المخابرات ، وبعد انتهاء الأحداث حفروا ثانية ونقلوا الجثة إلى المقبرة ، ولكننا لم نعرف للأسف أين بالتحديد لأن الذي دفنه استشهد أيضا ! وهكذا تلقيت نبأ استشهاد والدي وخمسة من إخوتي مرة واحدة ، وبلغني الخبر الذي كانت البنات تخفينه عني طوال شهور رحمة بحالي وإشفاقا على ، إلا أنني سبحان الله لم أحس الخبر مفاجعا كما ظن الآخرون ، ولم أحزن عليهم حزني على أمة فقدتهم لأنهم في حالتهم هذه شهداء إن شاء الله . . وكل منا يدعو الله متمنيا أن يرزقه الشهادة كرما منه سبحانه وفضلا ، فكيف يحزن إن أكرم الله بها أحب الأحبة وأقرب الناس إليه ؟ إننا نخاف من الموت فقط حيث الحساب والسؤال والإمتحان . . وأما الشهادة فهي الحياة الحقيقية ، وهي النعمة التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم .
إبر للعقم . . لا للألم !

ومرت الأيام . . وعادت دورة الحياة المملة ومعاناتها تجثم على الصدور أثقل من الصخر الأصم . . ثم لم ألبث أن سقطت فريسة أمراض متتالية لم أعهد لها في نفسي من قبل . . ووجدتني أسقط من ثم بيد طبيب حاقد من أبناء طائفة النظام أسوأ من قطاع الطرق . . اتخذ المرض ذريعة ليفعل بي ما لا يخطر على قلب إبليس ! كان الدكتور سمير كما ينادونه طبيبا زائرا مكلفا بعلاج القضائيات في الأصل ، فلما ازداد عدد السجينات السياسيات وتزايدت مشاكلهن الصحية جعل يخصص بضع دقائق من وقته بين الحين والآخر
لمقابلة 150

أصحاب الحالات الشديدة منهم ، ولا يزيد عن أن يعطي أسوأهن حالا بعض حبوب مسكنة لا تنفعهم بشيء ! وكان سمير هذا التئما جدا نحس أنه يعاملنا معاملة مخابرات لاطبيب وعندما نشكوله شيئا لا يزيد عن أن يهزأ بنا ويكرر علينا عبارة واحدة بشكل آلي " ما فيكم شيء . . . حتى أننا لكثرة ما سمعنا عبارته تلك لم نعد نسأله شيئا آخر الأمر . . وكنت في البداية وعندما أخذت القرحة التي ورثتها من كفر سوسة تشتد علي الامها قد طلبت مقابلته وشرحت له حالتي وحدثته بما أعاني ، لكنه قاطعني في نصف حديثي ولم يزد عن أن قال لي : - هذه الأعراض لا دواء لها ، وعليك أنت أن تعالجي نفسك بنفسك ! وأكرمنا الله وقتها حين بدأ قريب إحدى السجينات معنا وهو طبيب متمرن بالتردد علينا وتقديم الأدوية والعلاجات اللازمة لنا بالسر غالب الأحيان ، والتي وجدت عليها تحسنا كبيرا وبدأت أتعافى من قرحتي شيئا فشيئا ، لكن أعراضا أخرى بدأت تتابني خلال ابتداء دورتي الشهرية تصحبها الام شديدة ، فاضطرت من شدتها مرة أن أطلب مقابلة الدكتور سمير مرة أخرى وأسأله ولو نوعا من المسكنات يخفف عني الألم ، ولم يلبث بعد أيام أن استدعى الحاجه مديحة وقال لها أنهم شكلوا لي لجنة للنظر في هذا الوجع الذي يأتيني وقرروا لي العلاج ، ووجدته يرسل لي علية إبر أخذت اثنتين منهما بالفعل قبل أن يأتي الطبيب من جديد فتحدثه قريته بالموضوع ، فلما سألتها أن يرى الإبر وأتت بها إليه لم يصدق ما يرى ، وصاح فيها وقد

تملكه الذهول : -هذه إبرللعمق لا للالم وهرع غاضبا ذهب إلى موفق السمان مدير المنطقة ورئيس السجن وحكى له ما حدث ، ومن غير أية مقدمات انقطع الدكتور سمير عن الحضور إلى السجن وانقطعت أخباره . . لكن أحدا لم يأت ليحقق في تلك الجريمة أو يستفسر عن حالتي . . مثلما لم يأت طبيب اخر مكانه ولم يحضروا أي بديل . . 151 بول أم دم !

ذهب الدكتور سمير إلى حيث لا أعرف . . لكن الألم لم يذهب . . والبلاء لم ينته . . وسرعان ما بدأت أحس أعراضا مغايرة في منطقة أخرى من جسدي . . وبازدياد نوبات الألم الذي استمر شهورا أغالبه ويغالبني حتى غلبني في النهاية تبين لي أنه التهاب الكلى . . فصار الدم يخرج مع البول مني وحصل معي استفراغ متواصل واسهال مستمر ، ومع استمرار الظروف الصحية السيئة تفاقمت الحالة حتى فاقت أي احتمال . . وأمضيت شهر رمضان من عام 1454 (يونيو 84) كله على هذه الحال لم أستطع بالطبع أن أصوم يوما واحدا منه ولا حتى أن أصلي . . ولم تكن زميلاتي في المهجع يستطعن النوم من كثرة تأوهي ونحيبي ، ولم أعد أستطيع من شدة ضعفي القيام حتى إلى الحمام ، فكانت البنات يحملنني إليه حملا . . وفي تلك الفترة انتشر الفسفس في السجن فكان ابتلاء آخر زيادة على ما أنا عليه ، وكان إذا سكنت الامي لحظة تقدمت هذه الحشرات المقيتة لتذيقني بعضاتها طعما جديدا من الألم ! وكانت ماجدة جزاها الله خيرا وأجزل ثوابها تسهر الليل عند طرف وسادتي لتلتقطهم عني بيديها ما وسعها الجهد والجلد . . وفي النهاية وعندما قاربت بالفعل على الموت تدخل العميد موفق السمان وسمح بإخراجي على مسؤوليته الخاصة وعرضني على طبيب مختص ، وأخذوني بالفعل بسيارة الشرطة وداروا بي في قطنا حتى وجدوا طبيبة أخصائية أمراض الكلى فحصتني وأعطتني إبرة مسكن وقالت لهم أنني أحتاج إلى تحليل ، فلما أخذوا البول ليحللونه سأل المحلل السجانة التي أخذته : - هل هذا دم أم بول . . أو أن الزجاجة لونها بني ؟ وبعد ظهور النتيجة وصفت لي الطبيبة ست إبر كل اليوم كانت تعطيني إياهم أم معقل بنفسها ، لكن أجنابي تعقرت ولم أشعر بأي 152

تحسن . . فقامت إدارة السجن أخيرا بإرسال كتاب إلى أمن الدولة بكفر سوسة شرحوا لهم فيها حالتي وطلبوا إذنا لأخذي إلى مستشفى المواساة ، فأنت الإجابة بالموافقة المبدئية معلقة علي تقرير الطبيب هناك ، ووجدتني في اليوم التالي محمولة في سيارة الشرطة إلى هناك وأنا أقرب للغيبوبة مني إلى الصحو . . وهناك وجدت جمعا من الطلاب التفوا حولي كأنما يريد كل منهم أن يتدرب في ، وتقدمت طبيبة من بينهن فخلعت عني جلبابي وفحصتني بشكل سريع ثم أعطتني إبرة مسكن في الوريد لم أعد أحس بعدها بشيء . . وعندما استعدت وعيي ووجدتني في المهجع من جديد تتحلق البنات حولي وكأنني في النزع الأخير ! وسرعان ما انتهى مفعول إبرة المسكن دون أي تحسن ، فعادوا بعد يومين أو ثلاثة وأنزلوني إلى المستشفى مرة ثانية ، وتكرر ذلك ثلاث مرات أو أربع لم أزد فيهن إلا رهقا وثقوبا في أوردة الساعدين ! وفي المرة الأخيرة أبلغت صديقتنا السجينة قريبها الطبيب فوجده يستقبلني هناك ومعه أخي وابنة عمي التي كانت تتدرب في نفس المستشفى ، وقاموا فور استلامي فأخذوني إلى الطابق العلوي حيث تشتد العناية وتأخذ الفحوصات مسارا جادا هناك . . وهناك وجدت من عجائب الأقدار أحد الأطباء يهرع إلي فينتحي بي جانبا ويسألني بانفعال : - ألسنت أخت صفوان دثغ ؟ قلت له : نعم . قال والكلمات ترتجف على شفثيه من التأثر والإرتباك معا : ماذا حدث له . . ولماذا أنت مسجونة ؟ ولم يدع لي الفرصة للجواب الذي لا يخفى فقال وهو دامع العينين : - معليش بيعين الله . . وأسر لي وهو يكمل فحوصاته بأنه كان وصفوان زملاء في الكلية ، وأنه لذلك سيجهد لكي يبقيني في المستشفى لاستكمال العلاج . . إذا تمكن . ولما كتب ذلك في تقريري ومضى به إلى مدير المسمتشفى وافق

عليه شريطة موافقة الجهات الأمنية . . وبكل طيب وحسن خلق تقبل الخبر الشرطي الذي كان مكلفا بمرافقتي ، وطلب مني الإنتظار على باب المستشفى مع أخي ريثما يمضي فيحضر الموافقة من سجن القلعة .
فرصة ذهبية للهرب !

مضت سيارة الشرطة ووجدتني من شدة ضعفي لا أستطيع أن أرى الدرج أمامي وأصبت بالدوار ، فجرني أخي من يدي وأنزلني وكأني عمياء ! وجلسنا في الخارج على كرسي للإنتظار وحيدين لا رقيب علينا ولا حسيب ، عندها سالني أخي : - ما رأيك لو أهربك الآن ؟ قلت له وأنا لا أكاد أجد للحرية مع السقام والإعياء معنى : - لا أريد . . سيلقطنونا من على الحدود ويرجعوننا فيزيد بلاؤنا بلاء . ولم تمض دقائق حتى عادت سيارة الشرطة وأطل العناصر من نافذتها يسألوننا إن كنا نفضل الذهاب معهم بدل الإنتظار الممل فوافقنا . . وجعلت السيارة تخرق أحياء دمشق متجهة نحو قلعتها التي تتوسط أحياءها القديمة ، ووجدت الناس كل في شغله بين بائع و مشتري ، وطالب وعامل ، وموظف وتاجر . . كلهم غارقون في دوامة الحياة يشغلهم تأمين احتياجاتهم الأولية عن ذاك الذي يجري بينهم دون أو يبصروه أو يسمعوه . . وترهقهم مشقة الحياة عن أن يلتفتوا ليتفكروا إلى أين تمضي قاطرة الظلم بالوطن ! فلما وصلنا سجن القلعة وهرع أحد عناصر الشرطة الذين يرافقوننا بيده الأوراق يأمل أن يجد لها توقيع الموافقة ارتد بعد هنيهة مكسور الخاطر وقد نال الطلب الرفض . . لكن نفسي التي اعتادت الإحباطات باتت تتقبلها بدون انفعال . . وقفلنا راجعين إلى سجن قطنا أكمل مع نزيلات المهجعين أيام الأسر والمعاناة . . وكثف الطبيب قريب زميلتنا زيارته محملا بالأدوية والعلاجات ، وبالمواظبة على تناولها تحسنت حالتي شيئا فشيئا ، وبعد مضي شهر كامل تمكنت من الخروج إلى الحمام 154 أول مرة بدون مساعدة من أحد ، وبقيت سنتين تاليتين لا أشتغل أي شيء في الغرفة مثلما يتوجب علي ، وظلت رفيقاتي يجزيهن الله الخير يحممني خلال ذلك ويغسلن لي ملابسني . . ويستتفدن من أية فرصة متاحة ليحضرن لي الطعام الصحي والعصير والمقويات .

الولد الضائع

كانت حياة السجن مزيجا من المعاناة والغرابات ، ففي هذا المجتمع الفريد تتوقع أي شيء في أي وقت ، وتقابل من أصناف المشاهد غير المعتادة ما لا يعد . . وتظل الأيام حبلتي والمغيبات أسرار والغاز حتى يحين الميعاد ! وعلى غير ميعاد وخارج كل التوقعات بدأت قصة ذلك الغلام الضائع الذي التقطه الشرطة من حي من أحياء دمشق . . وبما يفوق شتى التوقعات انتهت من غير ميعاد قصته الغريبة !

كان منظرا مؤذيا للشعور أن ترى غلاما لم يمد يبلغ السادسة من عمره سجيننا على غير إرادة منه في غرفة المتهمات بالدعارة ! لكن الشرطة الذين التقطوه تائها في دمشق وضعوه هناك انتظارا للعثور على أهله ، غير أن شهورا خمسة انقضت دون أن يظهر له أهل أو أقارب ، وكان مما يزيد في الحسرات أن الفتى أخرج لا ينطق ولا يتكلم حتى باسمه . . فصار الجميع ينادونه أحمد . . وكأنما وجدت السجينات في أحمد هذا الخادم المطيع ، فكن يأمرنه وينتهرنه ويضربنه في بعض الأحيان . . وذات مرة وأنا جالسة بعد الإفطار في رمضان اكل بعض الحلوى على شباك المهجع - وكانوا يفتحون كل المهاجع للتنفس بعد الإفطار - وجدت أحمد يقترب مني محملا في الصندوق وهو يمد يده ويقول : - أعطيني واحدة . لم أصدق أذني في البدء . . فطوال الشهور المنصرمة لم نسمع الولد ينطق ببنت شفة . . وها هو ذا الآن يتكلم ! فلم أتمالك نفسي ووجدتني أصيح : - يا بنات . . أحمد حكى . 155 . . فلما قلنا ذلك للشرطي تأثر وقال : - اتركوه إذا عندكم . بيد و أن جو الغرفة هناك لم يعجبه . فلما التففنا حوله وجدناه يتكلم بشكل طبيعي ، وجاءت الحاجة فسألته أول ما سألته عن اسمه ، فقال : - أحمد بدر الدين . سألته : من أين أبوي ؟ قال : أنا من حماة . قالت وقد

تعجبنا كلنا من الجواب : وماالذي أتى بك إلى الشام ؟ قال الفتى ومسحة انكسار جلي ترتسم على ملامحه : أنا لموني مع الأولاد الذين لموهم في حماة بعد الأحداث وأتوا بي ووضعوني في الجامع الأموي ثم لم أعرف أين أذهب . سألته الحاجة : وأين أهلك ؟ فصاربيكي ثم قال لها : ماتوا . سألته : كيف ؟ قال : أرسلتني أمي عند أبي إلي الدكان فوجدت الحائط واقعا فوقه وهو ميت والدم طالع منه . . ذهبت إلالببيت أبكى أريد أن أخبر أمي فوجدتها مقتولة أيضا ! والتفت الفتى نحو الحاجة باضطراب وقال لها : لا تقولي لأحد . . إذا سمعت أحدا يذكر اسمي فهذا معناه أنك أنت التي تكلمت . . أرجوك لا تقولي لأحد 0 وتفهمنا جميعا حالة الطفل وتفطرت عليه القلوب . . وصارت له الحظوة والمنزلة بين البنات . . وذات يوم وبينما كنت أخط مرة على ماكينة يدوية كان أهل رغاء قد تمكنوا من إدخالها إلى السجن بعد جهد كبيروجدته يقول لي :منشان الله شيلي هالماكينه من وجهى لا أحب أن أرى أحدا يخط . " . 156

قلت له : لماذا ؟ فبكى . . فجعلت الحاجة تسايه وتلح عليه حتى تكلم وقال : - لأن أمي كانت خياطة ، وكانت لديها ماكينة تشبه هذه الماكينة التي مع هبة . . وكانت أمي تضع غطاء صلاة مثلها أيضا وتجلس لتخيط وفي مرة ثانية وكنا ننادي عائشة بعيشة فقال للحاجة :منشان الله لا تنادونها عيشة . قالت له : وماذا تريد أن نناديها ؟ قال : نادوها أم النظارات . سألته : ولماذا ؟ قال : لأن أمي اسمها عائشة . قالت له : وأبوك . . ماذا يشتغل ؟ قال : عنده مكتبة قرآن بالحاضر . سألته :أين ؟ فوصف لها المحل وصفا دقيقا كأنه يراه فازدنا تأثرا عليه وتعاطفا معه . . وجلس أحمد معنا وهو يبدع يوما بعد يوم على غير كل الأولاد . . كان ولدا عبقريا بالفعل . . لا توجد طبخة ولا خياطة ولا شغلة إلا وتعلمها . . وكان يؤذن أجمل أذان ويتلو القرآن أحلى تلاوة . . وإذا دعا بعد الصلاة يقول : اللهم أنزل قبيلة على سجن تدمر! وسمع المقدم موفق السمان مدير السجن بقصة الفتى ، فلما التقاه عطف عليه وصار يأخذه معه إلى البيت فيحمله ويدلله أيما دلال ، وكان للمقدم بنت وصبي متقربان في العمر مع أحمد ، فصار يأخذه معهما إلى المسيح ، ووضع له سائقا خاصا ليتنقل به بين السجن والبيت ، وأخذه مرة إلى المحل الذي يشتري منه احتياجات بيته ، لكن الولد تعلم على المكان فصار يذهب إلى البائع وحده يقول له أعطني كذا وكذا على اسم العقيد ، ثم يضع هذه الأشياء بصندوق ويذهب إلى محطة القطار فيبيعهم 157 فيه ويرجع إلى السجن عندنا ، فإذا حضر المقدم يسأل عليه راه بيننا ، وإذا غاب عنا نظنه عند المقدم . . حتى إذا حان آخر الشهر وجد المسكين فاتورة كبيرة عليه لم يدر من أين ، فلما استعلم أخبره البائع أن أحمد كان يشتري على اسمه . . فسكت !

شخصيتان . . وصفعتان !

وانتشر صيت أحمد وذاع حتي بين الأهالي ، فصاروا إذا حضروا لم يغب نصيبه من الهدايا ، وإذا انصرفوا تنافسوا من سياخذه ليزور عنده . . وصار أحمد حكاية وتنعم إلى حد البطر . . وصار إذا قالت له واحدة منا : لم فعلت هذا؟ رعب بسرعة وأغمي عليه وأخذمع الأيام يجب أناسا ويكره اخرين ! ولا يتورع أن يرمي العداوة بين واحدة وأخرى وتكشفت له قدرات رهيبه في هذا السياق . وذات مرة لم يعجبه في عائشة شيئا ما فمضى إلى الشرطي وقال له : -عيطت علي . فانفعل الشرطي حنوا على الولد وقال لها : إذا تكررت الحادثة مرة ثانية فسأمنع عنك الزيارات ! وكان قلبها كان دليلها بالفعل ، فلقد قالت لنا مبكرا إن لهذا الولد شخصيتان . . وهو غير طبيعي . لكن الأمورلم تتكشف حتى ظهيرة يوم كان مقررا أن يذهب أحمد فيه ليزور أقارب للحاجة في حمص ، وبينما كانت الحاجة تلبسه البوط الجديد وقد أجلسته في حضنها وقف أحد الشرطة في الخارج ونادى : - سمير جفان . فما وجدنا الولد إلا وقد تفجر الرعاف من أنفه وأغمي عليه . . فقالت له الحاجة مستغربة : -على من كنت تصيح ؟ قال لها : ألم تري كيف وقع صاحبكم على الأرض ؟ 158

قالت له : لماذا ؟ قال : هذا ليس اسمه أحمد . . هذا اسمه الحقيقي سمير جفان . . ألم تروا صورته قبل مدة في التلفزيون ؟ وتذكرنا وقتها أنهم أعلنوا بالفعل عن ولد ضائع وعرضوا صورته ورأيناها ، ولكن أحدا لم يخطر على باله وقتها أنه هو نفسه . . وتذكرنا كذلك أنه عندما رآها حينذاك أسرع فاطفاً التلفزيون وكأنه يلعب " وبين الحيرة والعجب جعلوا يغسلون له وجهه والدم يدلق من أنفه دلقاً ، ثم لم نجد إلا رجلاً كبيراً في السن يقف على الشبك وهو يبكي وبطرق رأسه عليه . . فعلمنا أنه أباه ! وهنا دخل الشرطي فأخذ الولد للمقدم ، فلما سألته : - من علمك أن تقول أن اسمي كذا وتدعي بأن أهلك استشهدوا في الأحداث ؟ قال له : هبة . قال له : أكيد هبة ؟ قال له : نعم . . أنا ما الذي يدريني ؟ هي كانت تعلمني وتقول لي إحك كذا واعمل كذا . ولم أجد إلا وقد ناداني المقدم لمقابلته ، ومن غير أن أعني ما الذي يجري نزل بي بهدلة يقول : - الله لا يعطيك العافية . . تريدني أن تسيئني إلى سمعة الدولة . . أنت حاقدة . . لثيمة . . أنا فكرتك غير ذلك . . فقالت له الحاجة مديحة التي تبتعتني : طول بالك أبوي . . ماذا حدث ؟ فقال لها : هي تريد أن تنزع سمعة الدولة . . هذه حاقدة . . قلبها مليون . . سألته : لماذا ؟ قال لها : هي علمت الولد يقول كل هذا . . .

159

قالت له الحاجة : تعال أقول لك . . كل البنات قربوا صوبه إلا هي لا سايرته ولا شيء . فردني المقدم إلى مكاني وقد ازداد تعجبه وحييرته . . وعادت الحاجة معي تهديء من روعي . فلما قابلت الشرطي أثناء رجوعنا سألته أن يشرح لها ما الذي يجري . . فقال لها : - هذا الولد يخرب بيته . . عمال يلعب علينا كلنا كبيرنا وصغيرنا ويدعي اليتيم وهو له أهل . . وأضاف : وهذه أمه وهذا أبوه المسكين يقولان الآن بأنه يعمل فيهم مثل هذا الفصل بين كل فترة وفترة . . فيهرب من البيت ويختلق القصص الغريبة ليخدع بها الناس ! وهنا اقتاد المقدم الولد إلى غرفة التحقيق وسأله بحضور أبيه عن علمه ذلك حقيقة ، فاعترف الولد أنها فعلته وحده وأنني لم أعلمه أي شيء ، فما تمالك المقدم نفسه وصفعه من الغيظ صفعتين على وجهه كادتا تقضيان عليه . . ومع ذلك فلم يغير الولد من تصرفاته أو يبيدي ندماً ولا اعتذاراً . . ومضى مع أهله يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ونحن كلنا كأننا في مشهد من مشاهد الأفلام السينمائية بين مصدق ومكذب !

إفراج

كان عام 84 قد انتصف وانسلخت من العمر سنون وشهور ما عدنا نبالي حتى بعدها . . وكان يوماً عادياً كمئات من أيام السجن المملة غيره يوم أن دخل أبو مطيع مدير السجن علينا فجأة وصاح على باب المهجع : -إيمان ت .إيمان ق .عائشة ق . حليمة . . فلما التفتن إليه وتقدمن يستطلعن الخبر ألقى إليهن العبارة كالقبيلة وقال 160 -هيا . . جهزن أنفسكن . . إفراج ! لم تستوعب البنات العبارة بادئ الأمر . . ووطن أن ثمة خطأ ما . . في النقل أو في التلقي . . فلما عاد وأكد ما قال احتبست الكلمات واختلجت في الصدور القلوب . . ولم تلبث أم شيما وإيمان أن ردتا دامعتي العينين : -لا نخرج إلا مع كل السجينات . . - وتقدمت إيمان فجئت عند رأسي وكنت لا أزال مريضة وقتها وصارت تبكي وتقول لهم : -لن أخرج إلا أن تخرجوا هبة معي . فقال لها أبو مطيع : - بإمكانك أن تبقي هنا على الرحب والسعة لولا أن الأمر أتى بالإفراج ، لكن بإمكانك أن تخرجي وتجلسي تنتظرينها على باب السجن ماشاء الله ! قالت له : لا لن أخرج . . لن أخرج . . ووقفت أم شيما تبكي من جهتها وتقول لي : -كيف سأخرج وأنت لا تزالين هنا ؟ وأخيراً لم يجد إلا أن يسحبهما سحباً وهما تحاولان التشبث بالشبك وبالقضبان ولا تكفا عن النحيب حتى خرجتا . . وعلمنا بعدها أنهم أخذوهن إلى أمن الدولة في البداية ثم أفرجوا عنهن من هناك وما عدت رأيتهن بعدها . لكن خروج هذه الدفعة ثم الإفراج عن سناء بعد أسابيع قليلة وبمناسبة الحركة التصحيحية فيما أذكر أحيانا فينا الأمل ، ووطننا بأن باب الفرج قد فتح وأن أيام خروجنا قد دنت

أيضا . . غير أن الأيام التالية كذبت ظنوننا . . فمات الأمل من جديد . . وعاد مزيد من السجينات يفدن علينا دفعة وراء دفعة ، فيحرك فينا الألم الراكد ، ويزيد فينا الشعور بأنها حياة ها هنا بين المهاجع والزنازين إلى الأبد ! 161

في السبعينات وأحرقوا الحيته !

كانت أم خالد أمية أ . وأم زهير أ . قد أمضيتا عاما كاملا في سجن التحقيق العسكري بدمشق قبل أن يأتوا بهما إلى قطنا أواخر عام 84 ، لكن كليهما كانتا قد فقدتا أحب الأحياب من عائلتيهما وعانتا في سبيلهم الكثير . وأما أمية فهي ابنة عالم شهير من علماء دمشق هو الشيخ أحمد أ . الذي استشهد اثنان من أبنائه (علاء ومصطفى) واعتقل الثالث والأكبر (شهاب) ويقال أنهم أعدموه بتدمير فيما بعد . . ولقد تم اعتقال أفراد العائلة كلهم مرتين أو ثلاث بما فيهم إحدى حفيدات الشيخ أحمد الطفلة شيماء وكان عمرها سنتين فقط ، فيما كان الشيخ أحمد في السبعينات من عمره ! ولا أزال أذكر كيف قال الرائد عبد العزيز ثلجة في التحقيق : - انظري . . هذا الشيخ أحمد عامل حاله شيخ أنا أحرقته له لحيته بالنار ! وكانوا قد اعتقلوهم أول مرة ثم أطلقوا سراحهم ، فلما استشهد ولداه أعادوهم إلى الإعتقال ! وأما أمية فقد نالت نقمة مضاعفة مرة بسبب والدها وإخوتها والثانية بسبب زوجها وهو طبيب من حلب اسمه صالح خ . - اعتقل قبل أن نعتقل نحن بعام كامل بتهمة التعامل مع الإخوان ومدتهم بالمال ، وفي البداية اعتقلوا ابنهم معه وكان عمره 16 سنة فقط ثم أطلقوا سراحه لاحقا على أساس أن يتعامل معهم ، لكن أمه هربته إلى تركيا مباشرة لتنجوبه ، فلما عادت تم اعتقالها ، وبقيت قرابة العام في سجن التحقيق العسكري قبل أن تنقل إلى قطنا . وفيما تم الإفراج عن أم خالد بعد بذل وساطات كبيرة في العام التالي ، فإن زوجها لم يخرج إلا بعد خروجنا بأكثر من عام . ولا أزال أذكر أنها لما دخلت المهجع في قطنا ورأته أمامها شهقت وهي تقول لي : - أنت هنا ؟ ألم يرموك من الطائرة 162؟

قلت وقد تملكني الدهشه . ماذا ماذا تقصدين : قالت : سمعنا والله أنهم رموك من الطائرة وبكىنا عليك وقتها أشد البكاء ! وأما أم زهير التي كانت في الأربعينات من عمرها فقد استشهد أخاها أيضا مع بدايات الأحداث في مواجهات مع المخابرات بدمشق ، وصارت لهما شهرة وصيت وقتذاك ، وكان أم زهير قد ذهبت لتأدية فريضة الحج بشكل عادي ، فلما عادت اعتقلوها أيضا من غير سبب واضح ، وأمضت قرابة السنة في سجن التحقيق العسكري قبل أن ترافق أم خالد إلى قطنا وتخرج معها عام 85 .
سنوات عجاف

كانت ثلاثة أيام وحسب قد مضت على زواج السيدة ابتسام ع . من زوجها الطبيب الذي يؤدي خدمته الإلزامية في اللاذقية حينما تم اعتقاله وشقيقه لسبب لا تعرفه ابتسام إلى اليوم . . فبذلت المسكينة وعائلتها الكثير من النقود ووسطوا وهم من عائلة معروفة في اللاذقية الوساطات الكبيرة حتى تمكنت من زيارته في تدمير خمس دقائق فقط لم تكن كافية حتى لتلتقط أنفاسها وهي تراه بحالة من التعذيب والهوان مزرية . . وبعد أقل من شهر واحد على تلك الزيارة وجدت ابتسام نفسها مكبلة الأيدي ، يقتادها عناصر المخابرات العسكرية إلى فرع التحقيق العسكري في اللاذقية ثم إلى الفرع الرئيسي في دمشق . . لتمضي سبعة أو ثمانية أشهر من الضياع هناك قبل أن تحط بها الرحال بيننا بعد بضعة أسابيع وحسب من وصول مجموعة أمية ، فتمضي معنا من غير ما سبب تعرفه بضع سنوات عجاف ، وأما الزوج فظلت أخباره منقطعة عنها حتى بعدما خرجت من السجن ، وكان اخر ما بلغها من أبناء تسربت عن حالته المؤلمة أنه أصيب بالسل ، ونقل من مهجع كان فيه في سجن تدمر إلى مكان مجهول ! 163

شو الك بالقصر

لم تمض أسابيع قليلة من وصول ابتسام حتى أطلقت ضيفة جديدة علينا هي أمل ل . قادمة من سجن الأمن السياسي بحماة . وكانت أمل قد خرجت أثناء الأحداث إلى الإمارات حيث يقيم إخوة لها هناك ، فلما عادت عام 85 لزيارة أهلها وبلدها ألقوا القبض عليها في المطار واقتادوها مباشرة إلى الأمن السياسي بحماة ، وتم تعذيبها هناك بشكل قاس لتعترف بعلاقتها التنظيمية وبأحوال إخوتها الملاحقين ونشاطاتهم ، ولقد حدثني زوج عمتي وكان وقتها في السجن نفسه أنهم كانوا لا يستطيعون النوم عند سماع صوتها في التعذيب وبعد ذلك نقلت أمل إلى قطنا وظلت هناك حتى خرجت معنا بعد قرابة خمس سنوات . . ورغم ذلك وعندما انعقدت لجنة النظر في أمرنا في الفترة الأخيرة برئاسة حسن الخليل رمقها من عليائه بنظرة امتهان وقرق وهو يقول : -شو إلك بالقصر . . مبارح العصر وجاية لتطلعي معهم !

الطفلة العجوز !

وانقضت أسابيع قليلة آخر . . وحضر ضيوف جدد لينضموا إلينا في رحلة الشقاء . . وكأن هذا الوطن ضاق بالصالحات فما عاد يرى لهن مكانا فيه إلا هذين المهجعين المتكدسين ! كانت القادمتان هذه المرة أختين شقيقتين من حلب أولاهما رغيدة ق . وهي مدرسة تربية إسلامية والأخرى عائشة مدرسة لغة انجليزية . ولقد ابتدأت حكاية الأختين المنكوبتين حينما لوحق زوج رغيدة وهو مهندس ولها منه ولدان وبنات وانقطعت عنها أخباره ، ثم لم تلبث وأن بلغها نبأ استشهادها في دمشق ، فلم تجد من وسيلة لإعالة أسرتها إلا أن تذهب إلى السعودية وتتعاقد هناك كمدرسة ، وذهبت معها أختها عائشة وزوجها ، وأمضوا هناك بضعة سنين قبل أن يقرروا العودة لأول مرة لزيارة الأهل والبلد 164 وحضور زفاف واحدة من بنات أخيها . . وحملت الأسرتان أفرادهما في سيارة جيمس مليئة بالهدايا والتحف النادرة وبجهاز كامل للعروس . . فلما وصلوا حدود درعا أوقفهم أمن الجمارك فها لهم ما معهم من متاع ثمين ، ولم يلبثوا أن غابوا عنهم لحظات ثم عادوا يخبرونهم بأنهم مطلوبون لمخابرات أمن الدولة . . فأخذوا السيارة بما فيها واقتادوا الأختين والزوج إلى سجن كفر سوسة ، وأرسلوا وراء أهلهم فسلموهم أولاد عائشة التسعة وابناء رغيدة الثلاثة ! وفي كفر سوسة لم يتورع المحققون هناك عن تعذيب الأختين رغم أن عائشة كانت حاملا في شهرها السادس أو السابع ، وكان من المضحكات المبكيات أنهم أرادوا من رغيدة معلومات عن زوجها الذي استشهد قبل سنوات ! ثم لم يلبثوا وأن اتهموا كلا الأختين بالتنظيم . . وبعد شهرين من المعاناة والعذاب حولوهما إلى قطنا . . فلما وصلت كانت عائشة في شهرها التاسع وقد سلم الله لها الحمل . . ولما دنا ميعاد الولادة رجونا المقدم مدير السجن أن يسمح لرغداء س . القابلة أن تأتي لتزور الليلة عندنا من مهجعها الثاني . . فوافق دون أن يعلم السبب . . وظلت رغيدة تعاني ألم الطلق حتى ولدت مع تباشير الفجر بنتا سمتها تسنيم . . ولا أزال أذكر أنها كانت صباحية العيد الكبير . . فلما جاءت المولودة أحسست حينما نظرت إليها أن شعر رأسي قد وقف من كثرة ما كانت هزيلة مجعدة الجلد كعجوز في آخر العمر ! وبقيت رغيدة معنا إلى آخر فترة فيما خرجت عائشة قبل انتقالنا إلى دوما . . وأما زوجها فلم يخرج إلا بعدنا بشهور . . وعندما طالبوا بالسيارة وما كان فيها ورغم وساطات وسطوها لذلك فإنهم لم يحصلوا حتى على جواب !

الشيوعية الغامضة !

وفي تلك الفترة وضمن النزيلات الجدد حضرت ذات يوم سيدة من التل اسمها هند قهوجي وهي ابنة عمه فاديا لاذقاني ومسؤولتها وزعيمة في التنظيم الشيوعي . وهند مهندسة متزوجة لم تكن قد بلغت الثلاثين بعد ، وأغلب الظن أن زوجها كان معتقلا كذلك ، لكننا لم نعرف كيف اعتقلت بالتحديد فقد كانت في المهجع الثاني وكانت غامضة وكتومة . وقد خرجت مع بقية الشيوعيات في دفعة واحدة بعد الإفراج عنا بعدة أشهر .

نزيلات تدمر !

كان سجن تدمر حتى ذلك التاريخ كالقبر المقفل . . الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ! فلما خرجت مجموعة من النساء منه وقدمن إلينا كانت حادثة أشبه بالمعجزات وسرعان ما بلغنا أن سبب إحضارهن هو انتشار السل والجرب هناك ، إضافة إلى الإنتهاء من بناء سجن جديد دشنوه لخدمة الوطن هو سجن "صيدنايا! ولهذا الأسباب قاموا أولا بتصفية المعتقلين لديهم ، فأعدموا الذين قرروا إعدامهم ، ونقلوا بقية من يريدون الإبقاء عليهم وجرى نقل النساء إلى قطنا ضمن هذا السياق وتجميعهن في نفس المكان . وضمن السياق نفسه وصلت خمس نسوة إلينا في دفعة واحدة فيما تم التصرف مع بقية النساء المعتقلات هناك بطرق مختلفة .

مأساه "أم حسان"

كانت ثلاث من القاديات من أسرة واحدة : أم حسان خديجة س . التي كانت في الخمسينات من العمر ومعها ابنتها سلوى ويسرى ح . وكان زوج أم حسان ووالد البنيتين قد شارك في إيواء مجموعة من الملاحقين في بيتهم بحماة قبل الأحداث ثم قدم الأب ابنتيه عروسين لاثنتين راقا له من هؤلاء الشباب ، فلما قامت الأحداث واجتاحت حماة خرجت العائلة إلى القرى المحيطة نجاة بأنفسهم مثلما فعل ألوف الناس وقتذاك لكن يسرى إحدى البنيتين - اثرت البقاء وزوجها في قاعدة ثانية مع مجموعة من الملاحقين الآخرين ، غير أن أمرهما اكتشف وداهمت المخابرات المكان فقاومت المجموعة لفترة تمكن زوج يسرى خلالها 166

من الهرب ، فيما قتل شاب كان معهم اسمه أبو خالد ، روت يسرى أنه كان مصابا بشلل نصفي من قبل ، وأصيبت في الإشتباك زوجته ليلى ب . وابنته التي لم يتجاوز عمرها 20 يوما ، وتم في النهاية اعتقال يسرى ولىلى فيما لفظت الطفلة أنفاسها دون أن يعنى بأمرها أحد . وسرعان مما اضطرت يسرى أمام وحشية المحققين والجلادين أن تعترف على مكان أهلها في القرية وتدلهم عليها ، فاعتقلت أم حسان وسلوى وتمكن الأب وقتها من الفرار ، لكن أخت أم حسان وزوجها اعتقلا في نفس البيت ، وقيل بأن الأخت وزوجها قتلا نفسيهما بابتلاع السم في الزنزانة قبل أن يبدأ التحقيق معهما ، وأما أم حسان فقد تمكن المخابرات من ادراكها واخراج حبة مماثلة من فمها قبل أن تبتلعها ، وجلست المسكينة في السجن موزعة الببال بين حالها الرعيب وحال أختها وزوجها وأبنائهم السبعة في الخارج لا معيل لهم ، وأبنائها هي البقية فواز الذي لم يبلغ ثلاث سنوات بعد وأمل ونرجس وغزوان الذي دخل صفه السادس حينذاك . . ثم كانت مصيبتهم التالية حينما اعتقل الزوج عام 85 فاضطر غزوان إلي ترك الدراسة والعمل في محل تصليح سيارات ليقيت نفسه وإخوته ولم يعبث الوالد أن أفرج عنه بعد تعذيب وحشي ليسلم أنفاسه بسبب ذلك بين أولاده بعد أيام ! وكثيرا ما كانت أم حسان وقد اجتمعت على كاهلها هذه الهموم تفقد أعصابها فتصيح في وجوهنا وتقذف ما يصل إلى يديها في كل اتجاه وأكثر ما كانت المسكينة تفعل ذلك يوم أن يأتي أولادها لزيارتها يجر بعضهم بعضا ويحمل واحداهم أو أخته بالتناوب ليقفوا على الشباك ويستطيعوا رؤية أمهم . . فإذا ذهبوا ازدادت لوعتها وتفجرت الامها فتراها تلطم خديها وتمضي ساعات وأياما ربما في البكاء . وعندما أفرج عنا وخرجت أم حسان وابنتها معنا وجدت المسكينة أنهم سرقوا لها الذهب الذي أخذوه منها في الأمانات ، وأنهم دمروا بيتهم في حماة بحجة أنه كان قاعدة للمجاهدين ، فلم يجدوا بعد كل هذه الماسي إلا أن يسكنوا بيتا طينيا من غرفتين ضيقتين كان المطر إذا نزل اخترق السقف الرث وفاض 167 عليهم بلا استئذان !وأما أولاد أخت أم حسان السبعة فلم يجدوا من حظ الدنيا إلا أن يأخذهم بعض المشفقين إلى عمان ليقيموا مع الأسر السورية الملتجئة هناك ، ولم يلبث الولد

الأصغر المعوق أن مات لانعدام العناية ، وأسرع من قام بالإشراف على هؤلاء المساكين
فزوج البنيتين الكبيرتين يوم أن بلغتا إحدى عشر سنة . . وحسب !!
السيلون !!!

لكن مأساة هذه العائلة الممتحنة لم تتوقف عند هذا الحد ، بل ربما كان ذلك كله الجانب
الأسهل منها ، فبعد أن أنهى فرع الأمن السياسي استجوابهم في حماة أرسلوهم ومعهم
ليلى ب . إلى تدمر وقد اعترفن بالمشاركة في مساعدة شباب ملاحقين بايوائهم . . وهناك
في هذا المكان المرعب الذي كن يرين منه مواكب المعتقلين تساق صباح كل يوم إلى
الإعدام حان موعد ولادة سلوى دون أن تكون لديها أية وسيلة لذلك أو حتى أي ملابس
للمولود القادم ، لكن الله رحمهن بوجود قابلة من حماة معتقلة معهن اسمها رغداء س .
فلما جاء سلوى الطلق كتمن الخير وصياحها معه خشية أن يكون ذلك سبب عذاب جديد لها
أو حتى لهن حتى إذا ولدت سمع أحد الحرس على السطح بكاء المولودة فسأل فأخبرنه ،
فجاء هذا الشاب الذي لم تمت فيه بقايا الإنسانية بعد وأدلى لهن علبة صفيح فارغة وعود
كبريت فأشعلن من ثيابهن فيها ما يكفي لتسخين ماء حمموا به المولودة ، وروت الأم
بنفسها أنهن قصصن لها الحبل السري بقطعة تنك اقتطعتها من علبة الصفيح تلك ! غير أن
المأساة لم تنته أيضا ، والخطر لم يبتعد عن هذه المولودة البريئة التي أسمتها الأم سمية . .
فلقد قامت إحدى المعتقلات معهن وهي مسيحية اسمها أم طوني متهمة ببيع جوازات سفر
للملاحقين ، فلما اعتقلت تحولت تماما مثل فاديا الشيوعية إلى مخبرة لتنال حظوة في
السجن وبعض المزايا الرخيصة ، وقامت بالإبلاغ عن هذا العنصر الذي ساعدهن بالتبكة 168
الفارغة وعود الكبريت . . فحضر مدير السجن المقدم فيصل غانم وجعل يسمعهن سيلا من
الشتائم والإهانات والتهديدات كعادته ، ثم أخرج عائدة ك . - إحدى المعتقلات - فنزع عن
رأسها الحجاب وجعل يدوسه بقدميه والشتائم لا تزال تتدفق من فمه المنتن . . فلما انتهى
وهدأت نفسه أمر بمعاينة المهجع كله ونقله إلى "السيلون !!!" و"السيلون " هذا عبارة عن
قبو كبير رطب ومعتم لا منفس فيه ، مسكون بالعناكب والصراصير والحشرات ، وقتها كان
عمر سمية عشرين يوما فقط ، وكان عليها أن تنتقل إلى "السيلون " مع بقية السجينات ،
فأصيبت المسكينة من حينها . بربو مزمن لم تشف منه إلى الآن . لا أزال أذكر أنهم يوم أتوا
إلى قطنا بعدما أمضوا سنتين قي تدمر وبضع أسابيع بعدها في سجن حمص وبينما وقفت
النساء تفتشهن الشرطيات وتتسلمن أماناتهن تسلمت سمية ببراءة الأطفال من بينهن
ودخلت بين أرجل الشرطة نحونا ، فركضت أنا فرحة بمولود صغير بيننا لأحملها ، فلما رفعتها
أحسست أنها طارت من خفتها وضعفها من يدي وكادت أن تفلت مني في الهواء !
التهاب في الاعصاب

حضرت أم حسان وابنتاها ومع هؤلاء حضرت أيضا رغداء س . ومنى ب . وأما مجموع
النساء في تدمر كما روين فكان قد وصل أيامهن إلى إحدى عشرة : الخمس اللاتي وصلن
قطنا وست أخريات هن : عائشة أ . ونهلة ز . وعائدة ك . وسلسبيلة أ . وليلى ب . وأع
طوني . . وأما عائدة وعائشة فقد نقلوهما بعدها إلى سجن حلب لنعود قنلتقيهما في مراحل
سجننا الأخيرة ، فيما نقلوا سلسبيلة مع مجموعة أم حسان إلى سجن حمص في البداية ،
ولكنهم نسوها هناك كما تبين لاحقا ، ولم يفطنوا لغيابها إلا بعد سنين ! وأفرجوا عن ليلى
ونهلة وأم طوني من تدمر مباشرة نتيجة واسطة وتدخلات ثقيلة للأولى ، وبعدها اشتد
المرض 169

بالثانية حتى قاربت الهلاك وأحسنت الثالثة التعامل معهم فتخرجت من السجن مخبرة
محترفة كانت رغداء ومنى صديقتين حميمتين كلاهما من حماة أما رغداء فكانت قابلة وأما
منى فخريجة كلية الشريعة ومدرسة ديانة . وكانت منى وزوجها قد شاركوا في تأمين ماوى
لمجموعة من الملاحقين تم اكتشافه بعد أحداث حماة فهرب زوجها والشباب جميعا

واعتقلت المسكينة ، وهناك في الأمن السياسي بحماة عذوبها كثيرا لتعترف أنها منظمة وتدلهم على مكان زوجها ومن كان معهم في القاعدة ، ونتيجة التعذيب بالكهرباء أصيبت المسكينة بالتهاب في أعصاب أرجلها فلم تعد تستطيع حتى النوم إذا لم تسلط المروحة عليهما من شدة الألم . . وبعد العذاب والتحقيق أرسلوها إلى تدمر . . وأرسلوا معها رغداء التي اعتقلت في نفس الفترة من مكان عملها كقابلة في المستشفى لكن رغداء لم تتكلم عن تعذيبها أو الظروف التي مرت بها وكانت من النوع الكتوم والهادئ تحتسب ما أصابها عند الله .

سجينة طي النسيان !!

هؤلاء كن الخمس الذين حضرن من تدمر والتقيناهن في قطنا ، وأما الست الأخريات فقد التقينا ثلاثا منهن في مراحل سجننا الأخيرة هن : عائدة ك . وعائشة أ . وسلسيلة أ . وسمعنا قصص الأخريات الباقيات ولكننا لم نرهن . كانت عائدة مهندسة عاملة من حلب أتى الطلب عليها في بدايات الأحداث ولكنها نجت ، ولأنها وحيدة أهلها وخشية عليها أحضرها والدها إلى بيتنا في دمشق لتسكن مع صديقات لها بيننا ، ثم لم تلبث أن اطمأنت فعادت إلى حلب وبقيت بسلام هناك إلى أن اشتدت الأحداث فعادوا واعتقلوها بوشاية من سامح كيالي أيضا . . ولقد بلغنا أنها عذبت عذابا شديدا في فرع المخبرات ولاقت كأكثر اللاتي لاقين على أيدي عمر حميدة ومصطفى التاجر ولكنها كانت تؤثر الكتمان ولا تتحدث بشيء 1170 ولم يكن لقاؤنا إلا في الأسابيع الأخيرة من سجننا حينما جمعنا في سجن التحقيق العسكري بدمشق قبل أن يتم الإفراج عنا . كذلك كان لقاؤي مع عائشة أ . في نفس الفترة وفي نفس المكان . وعائشة معلمة مدرسة من حلب اعتقلت في نفس الفترة مع عائدة ولكنني لم أعرف السبب ولا التفاصيل . وأما سلسيلة أ . فهي سيدة مربية من حمص كانت في الستينات من عمرها اعتقلت لعلاقة أخيها بالإخوان واعتقلوا معها ابنها وكان عمره حوالي 16 سنة وقتذاك . . وعلمت أنها تعذبت أيضا ولكنني لا أعرف التفاصيل لأنني لم أجلس معها إلا الأسابيع الأخيرة . وكانوا قد نسوها في سجن حمص بعد أن نقلوها مع الأخريات من تدمر ، وعندما قرروا الإفراج عنا ورد اسمها في القائمة ولكنهم لم يعودوا يعرفوا في أي فرع هي وفي آخر الأمر جاء مدير سجن التحقيق العسكري إلينا وسألنا : - هل تعرفون هذا الاسم وأين هي ؟ فقالت له البنات : نعم ، كانت في سجن حمص وربما لا تزال هناك . وبالفعل ذهبوا فوجدوها باقية هناك في الزنزانة وحدها ! وبعد الإفراج عنها وجدتهم قد صادروا لها البيت ، ولم يسمحوا لها حتى الآن بالخروج من سوريا رغم أن زوجها وأولادها يقيمون في السعودية ، وأما أخوها الذي اعتقل معها فلا يعلمون عنه شيئا إلى الآن !

على لوح الخشب !

كانت نهلة ز . إحدى النساء الثلاث اللاتي أفرج عنهن من تدمر مباشرة مهندسة كهرباء من زميلات عائدة ، وكان زوجها قد فتح بيته مأوى لبعض الشباب المطلوبين ، لكن السلطة علمت بالأمر فداهم رجال الخابرات البيت وكمنوا فيه ، وخشية على نفسها من هؤلاء الوحوش وصيانة لعرضها وشرفها ركضت فور اقتحامهم البيت وألقت بنفسها منسرفته بالطابق الثالث ، فلما سقطت أصيبت بكسور عديدة لكنها ظلت على قيد الحياة ، وظن الناس أن سيارة صدمتها فركضوا وخبروا الشرطة المدنية لإسعافها ، فلما حضروا وسألوها عم حدث وجدت نفسها تخبرهم بأن الإخوان أتوا إلى البيت وأصروا على الدخول وحبسوني فرميت نفسي ، فجاءت دورية مخابرات أخرى وحصل اشتباك بينهم وبين العناصر الكامنة في البيت وكل يظن الآخرين من الإخوان ، فلما اكتشفوا الأمر كانت إصابات عديدة قد وقعت بينهم فحقدوا عليها أكثر ، وتركوها طوال فترة اعتقالها بدون علاج ممددة على لوح خشبي لا تستطيع التحرك عنه بسبب كسر رئيسي أصاب حوضها ، حتى كاد عظمها المهشم أن يصاب بالتسوس . . وزاد من معاناتها المسكينة حينما اكتشفت في تدمر أنها كانت حاملا

في شهورها الثلاثة الأولى تقريبا ، لكنها وبسبب حالتها المفجعة أصيبت بنزيف مستمر انتهى بها إلى الإجهاد ، وازدادت حالتها في الترددي يوما بعد يوم حتى اضطروا بعد سبعة أو ثمانية أشهر إلى الإفراج عنها تخلصا من مسئوليتها !

وأما خامسة الخمسة و آخر السجينات العشر فكانت امرأة مسيحية من حمص تسمى أم طوني ، باعت جوازات سفر لبعض الملاحقين مقابل المال ثم اكتشف أمرها فاعتقلت ، لكنها تحولت - كما قلت - إلى صف المخابرات وصارت مخيرة لهم على السجينات في تدمير ، وتم الإفراج عنها آخر الأمر بعدما قرروا غربة السجناء والسجينات . إنأتنفس تحت الماء !

مر شهر وبعض الشهر واندمجت القادماات الجدد في منزلهن الجديد واندمجنا معهن على الرغم من تقلص الأشبار القليلة الممنوحة لنا في المهجعين . . ولم تلبث وافدات آخر أن أحضرن إلينا قادماات من أماكن متفرقة . كانت القادماات ثلاث هذه المرة : سميرة ت . ونجوى ج . وأم زهير نجاح أ . وأما أم زهير هذه فأتوا بها من الأمن السياسي بحماة ومرورها على

172

أمن الدولة بكفر سوسة ، وأما نجوى فكانت في سجن المسلمية بحلب ومرت على نفس الفرع كفر سوسة ليأتوا بها بعد ذلك إلينا ، وأتوا بسميرة من أمن الدولة بحماة مباشرة . كانت القمص الجديدة للقادماات الجدد فضلا آخر من فصول الظلم والوحشية التي تدار بها شئون البلاد والعباد في سورية . . وكانت أبسط الحالات لا تقل أبدا بمدلولاتها عن أشدها ألما وعذابا وظلما . فأما سميرة ت . وكانت في العشرينات من عمرها وأما لثلاثة أطفال أحدهم في شهره الثامن فقد استشهد زوجها في أحداث حماة دون أن تعرف كيف بالتحديد ، لكن الرواية التي بلغتها تقول بأنهم رأوه جثته في ساحة العاصي وقد كتب اسمه عليها محروقا بالنار ! وكان الزوج صباب بيتون ، وبعد الأحداث جاءت عليها فسادة أن لديها قاعدة في البيت ، ولما داهمت المخابرات البيت وجدوا غرفة خفية فيه بالفعل كان الزوج قد بناها دون أن تدري ، ولكنهم لم يجدوا في هذا المخبأ إلا بعض الكتب ، لكن ذلك كان سببا كافيا لهم لبدأوا تعذيبها في البيت نفسه ، فربطوها بملاءة السرير وعصبوا لها أعينها وصاروا يضربونها لتعترف من كان في المخبأ ، وجعل أحدهم يغني لها ساخرا : إني أتنفس تحت الماء . . إني أغرق ! بعدها أخذوها إلى الأمن السياسي وأكملوا لها التحقيق والتعذيب ولكن شيئا لم يثبت عليها ، ورغم ذلك بقيت سجينة معنا حتى النهاية ! وأما أم زهير نجاح أ . فهي سيدة جاوزت الخمسين من عمرها كانت قد مضت بزوجها المريض بالقلب إلى عمان لإجراء عملية جراحية له هناك ، وتمت العملية بالفعل ولكن الرجل الذي جاوز الخامسة والستين لم يحتمل المضاعفات فتوفي بعدها بأيام ، ودفنته أم زهير هناك ورجعت إلى سوريا . ولكن المخبرين الذين نشطوا بعد أحداث حماة أشاعوا أنها أتت بنقود معها وأوصلت رسائل في ذهابها ، فاعتقلها الأمن السياسي في حماة قبل أن تنقل إلى قطنا . ولم يكن لأم زهير أية علاقة بما قالوا ، ولكنهم كانوا حاقدين على عائلتهم كثيرا . . ففي بداية الأحداث وعندما

173

كانوا ينتقمون من اباء الملاحقين والأغنياء والأطباء ووجهاء البلد أخرجوا إخوانها الثلاثة مع طاهر حداد وممرضه رشيد قطرنجي ودفعة من الرجال الاخرين وأتوا بهم تحت الشتائم والكراييج إلى سوق الطويل ، وهناك ومن غير تفسير أمرهم أن يعودوا من حيث أتوا لأن الأمر انتهى ، فصدق المساكين وأداروا ظهورهم راجعين ، فما أن استداروا حتى فتح رجال الأمن نار الرشاشات عليهم فسقطوا قتلى جميعا إلا واحدا من الإخوة الثلاثة أصيب بقدمه وسقط على الأرض وسقط القتلى الآخرون فوقه ، فلما غادر القتلة المكان وقد ظنوه ضمن

الهالكين تحامل على نفسه وزحف إلى بيته فأسعفوه هناك ثم غادر البلاد بعدها إلى غير رجعة .

طعامهم التسييح والتهليل !

وإذا كانت مآسي السجينات مرة الطعم كلها فإن منهن من ذاقت ما يفوق مرارة العلقم بعض الأحيان ! وتشتد الكروب ببعضهن حتى لا تجد لها من دون الله كاشفة ! ومن هؤلاء كانت قصة هالة التي عافاها المولى سبحانه آخر الأمر . . وكانت قصة نجوى ج . التي ارتكست في تداعيات نفسية مؤلمة لم تنج المسكينة منها حتى آخر يوم ! كانت نجوى طالبة متفوقة في سنتها الثانية بكلية الطب البشري بحلب ، وكانت مخطوبة لأحد الشباب الذين لوحقوا من بعد ضمن ألوف من خيرة الشباب مثله ، فلما اختفى ذهبت إلى الأردن تبحث عنه فيما يبدو يرافقها أبوها بعد إلحاح ورجاء منها . . وفي طريق عودتهما ألقى القبض عليهما بتهمة العمل كمراسلين للإخوان بين الداخل والخارج ! فوجدت الأم نفسها من غير معيل ولا نصير مرة واحدة ، ولم تجد ما تنفق به على أطفالها الثلاث البقية فأخرجتهم من المدارس وأرسلت أكبرهم وكان في الصف السادس أو السابع ليشتغل بمصنع للشوكولاته ويقيم العائلة . . ثم لم تلبث الأم وأن أصيبت من وقع المأساة بنزيف اضطر الأطباء أن يستأصلوا لها الرحم ، فلما بلغ ذلك نجوى ولأنها من النوع

174

الحساس جدا فقد أخذت تعيش هم أمها وإخوتها في الخارج وهم أبيها الذي غيبه السجن ولا تعلم عن مصيره شيئا . . وأخذ يتكرس في نفسها الإحساس بأن ذلك كله قد حدث بسببها ، فسقطت بذلك في عقدة الذنب وصارت لا تكف عن ملامة نفسها بشكل قاس ومستمر . . وأخذت الحالة تتطور من سيء إلى أسوأ وهي تعيش أبشع الظروف في أقيية السجون وبين وحوش من المحققين والجلادين لا تعرف قلوبهم إنسانية ولا رحمة . . وكانت عندما أتوا بها من حلب إلى قطنا أول الأمر في بدايات المرض ، فكنا نلاحظها دائمة الشرود غريبة التصرفات ، ثم اشتدت حالتها بعد انتقالنا إلى دوما فصارت الحالة صعبة وبشعة جدا حتى جعلتنا نعيش كلنا على أعصابنا . كان فراش نجوى إلى جانبي بعد ماجدة ، وفي البداية كانت إذا أحست باقتراب المرض منها تقول لنا : - يا بنات . . يا هبة . . انظري . . لا تتركي أمامي لا إبرة ولا مقصا ولا سكين ولا شوكة ولا ملعقة ولا أية قطعة حديد . . وشيئا فشيئا يأخذ مرضها في الإزدياد فلا تعود تنام وتظل تتمشى في المهجع بين الفرشات ليل نهار . . وكان المرض كان يأتيها على دهن ، فتراها تبالغ في تحجبها وتأتي فتسالمني أن أطيل لها كل أكمام ملابسها رغم أنها طويلة أكثر من اللازم . . وكان أهلها يأتون لها بصابون غار فلا نراها إلا عاكفة عليه تحفر فيه وتحفر وتظل تحفر حتى تبلغ الطرف الآخر منه فتقول لي : - انظري . . أي شيء يعمل الإنسان يوحى إلى لفظ الجلالة ! انظري . . هذه لا إله إلا الله . . هذه لا أدري ماذا ! وكانت إذا حان وقت النوم مضت معنا إلى فراشها الذي كان التالي بجانبي بعد ماجدة ، لكنها تظل يقظة جاحظة العينين ، حتى إذا انتصف الليل انتفضت من مكانها بلا مقدمات فتخطت ماجدة لتأتي فتلكزني من رجلي لتوقظني وتقول لي : - تعالي أحييها معي

175

ورغم أن المفاجأة تكون قد أزعجتني بحق إلا أنني كنت أمضي معها وأسايرها . . وأحيانا كانت تجلسني في فراشها وتلتصق بي وتقول لي : - تعالي نذكر الله الليلة . . لكنها كانت تمضي أياما على هذه الحالة لا تأكل ولا تشرب ، فأسالها : - ألم تجوعي ؟ فتجيبني : طعامهم التسييح والتهليل ! فأجلس بجانبها نسيح وأنا على أعصابي . . فإذا أصبحت قامت توزع ما تملك من ملابس وأغراض حتى لا يبقى لديها إلا الثياب التي عليها . . وغالبا ما تعطي

ذلك لسجينة أخرى من القضائيات مريضة مثلها كانت هاربة من مستشفى الأمراض العقلية !

ورغم أن نجوى كانت تخف في البداية وتعود فتتكس إلا أنها الإنتكاس استمر معها لاحقا ، وساءت أمورها أكثر فأكثر واشتدت تصرفاتها غرابة وإيلاما ، واشتد انعكاس ذلك على من حولها وبالأخص جارتيها في السرير ماجدة وأنا ! حتى أننا صرنا من كثرة ما عانينا معها نستيقظ في الليل بدون إرادتنا ونجهش بالبكاء . . أو تزدحم الكوايبس على ماجدة فلا نراها إلا وهي تصيح وتستغيث وهي في عز النوم ! ولقد انعكست حالة نجوى أيضا على والدتها المسكينة من بعد وزادت في الضغوط عليها فكأنما أصاب الأخرى شيء . . فصارت - حتى بعد أن أفرج عن نجوى وأبيها - كأنما تفقد ذاكرتها أو جزءا من وعيها فتهيم على وجهها في الطرقات ، أو تمضي فتزور أحدا من أقربائها ومعارفها وتمضي عندهم الأيام دون أن تخبر من عائلتها أحدا ، بينما يبحث المساكين عنها في المستشفيات ومراكز الشرطة دون نتيجة ! وعندما تقرر الإفراج عنا في النهاية كانت نجوى مع اخر دفعة تخرج من بيننا وكأنهم أرادوا أن يفقدوها آخر ما تبقى لها من عقل . . وكانت

176

المسكينة الوحيدة التي أطلقوها في دمشق ورفضوا أن يأخذوها إلى مدينتها كما فعلوا مع باقي السجينات جميعا ! هؤلاء كن كل السجينات اللاتي قضين سنوات من العذاب والمعاناة معنا ، وكان هناك غيرهن يحضرونهن لفترات ثم يطلق سراحهن . . ومن هؤلاء كانت مجموعة نسوة من قرية قرب حماة هن أم وكناتها الثلاث وأولاد صغار معهن . . كان زوج إحداهن قد لوحق كما يبدو فأراد تهريبهن خارج سوريا لكن دوريات الحدود اعتقلت المجموعه كلها ، وفيما لم تعد تصل عن الولد أية معلومات فقد أمضت النسوة والأولاد في قرابة العام معنا في مهجعنا كنا نجلس خلالها فوق بعضنا البعض من الإزدحام . . ثم أفرج عنهم . في مرة أخرى - وكانت المرة الوحيدة التي يشركون فيها سجينة قضائية معنا - أتوا بأخت جورجينا رزق (ملكة جمال لبنان وقتذاك) متهمة بقتل زوجها ، وكانوا كأنما يخشون أن يتسلل أحد من أقارب زوجها المتنفذين (من ال الجندي) فيقتلها ، فشددوا الحراسة على السجن ووضعوها في مهجعنا ، وبقيت تشاركنا المكان قرابة السنة ثم خرجت براءة . . وكانت كلما نزلت إلى المحكمة تستعير ثيابا سوداء منا وتغطي رأسها متظاهرة بالحزن على زوجها . . أما تعاملها معنا فكان جيدا مثلما كان تعاملنا نحن معها ، وكان طبيعيا بحكم حياتها معنا أن تظهر تعاطفا وتفهما حتى أفرج عنها وانقطعت أخبارها .
لجنة التأهيل والاستغلال

كانت حياة السجينات القضائيات تسير إلى جانب حياتنا نشاركهن وبشاركنا المكان والظرف وجزءا من المعاناة ، لكنهم كانوا على الدوام أقل منا تقييدا وأكثر انفراجا . . وغالبا ما كن وكان الآخرون ينظرون إلينا نظرة احترام لأننا هنا من أجل رأينا لا من أجل أي جريمة ارتكبتها . . لكن المسؤولين كانوا بحكم موقف النظام منا يقسون علينا ولا يستجيبون

177

لطلباتنا . . ولا يقصرون لاقتناص أي فرصة لاستغلالنا . . وفي هذا السياق كانت تجربتنا مع لجنة إدارة السجن التي تشرف افتراضا على حال المسجونين القضائيين وتحاول إعادة تأهيلهم ليعودوا مواطنين صالحين . . لكننا ولما رفعا طلبا عام 84 للسماح لنا بتقديم امتحاناتنا الدراسية تدخلوا ووعدونا بدراسة الأمر ورفع كتاب للمسؤولين ، وقالوا لنا ادرسوا ريثما يأتي الجواب . . فجلسنا ندرس ونستعد للإمتحان حتى عاد الجواب في النهاية مع عدم الموافقة . . وكنوع من التسرية اقترح علينا مسؤول اللجنة (أبو سامر) أن يأتوا لنا بشغل نشغله مقابل أجر فوافقنا ، فأتوا لنا بكميات من الخرز جلسنا نضمه إلى بعضه في عمل مرهق بالفعل ، حتى إذا أنهيناه اخر الأمر وقد بلغ الجهد منا مبلغا أخذوه دون أن يعطونا من

الأجر شيئاً ! ولما خشينا في الوقت نفسه أن يستخدموا هذه الأشغال في أشياء لا تجوز كأثواب للرقص مثلاً فقد توقفنا عن استلام المزيد . . ولكن جهدنا وأجرنا ذهبنا مع اللجنة هباء !

عرض للزواج !

وتتالت الأيام في قطننا ونحن أسرى القضبان والجدران من جهة وأسرى الحياة الرتيبة والبرنامج الممل المتكرر من جهة أخرى . . وعلى الرغم من العزاء الذي كنا نحده في الزيارات بقاء الأهل والأقارب إلا أن المستجدات التي تلت جعلتني أعيش كرباً جديداً بسبب بعض الزيارات والزائرين ! كانت أواخر عام 85 حينما حضرت خالتي لأول مرة تزورني في قطننا رغم المرات العديدة التي أرسلت لها السلامةا فيها ورجوت حضورها دون جواب . . فلما رأيتها على طرف الشبك الآخر لم أتمالك نفسي وانفجرت في البكاء وكأني أرى أمي أمامي وأتحسس ألم فقدتها لأول مرة في قلبي . . لكن شعوراً بالإنقباض بدأ يستولي علي ساعة بعد ساعة وأنا أستمع إليها وأتلقى عرضاً منها غاية في الغرابة !

178

قالت خالتي إنها لم تزورني سابقاً لأن أخي كان يمنعها من ذلك ويحذرنا منه . . ولكنها قررت الحضور الآن لأن وساطة جدية تجري الآن للإفراج عني ، وأن الشرط الوحيد لذلك أن أخرج من السجن متزوجة ! ولما أبدت تعجبي من هذا الشرط الذي لا ينسجم مع طبيعة ظرفي ولا طبيعة الوساطة التي تتحدث عنها عادت وأكدت أنه الشرط الأول . . وعلى الرغم مما سمعته من رفضي لفكرة الزواج أساساً وأنا في هذه الحال ، ولربط الزواج بالإفراج عني بكيفية غريبة لا تفهم . . فقد غادرتني مؤكدة أنها بانتظار جوابي في أقرب وقت . وفي اليوم التالي مباشرة فوجئت بابنها يطلب زيارتي ، فلما خرجت لمقابلته أخبرني بأنه يخدم عسكريته الآن وأنه انتقل إلى قطننا من أجلي فقط . . ومن أجل أن يكون قريباً مني ! وجعل يتحدث أحاديث الجهال الفارغة بدون حياء . . فلم أجد إلا أن أترك المكان وأعود للمهجع . لكنه لم يلبث بعد يومين أو ثلاثة وأن عاد يطلب مقابلي ، فقلت للسجانة أمامه : - إذا جاء مرة أخرى فلا تفتحي له الباب لأنني لا أريد زيارة كهذه . ومن غير مقدمات أو منطلق وجدته يعود وخالتي آخر الأسبوع وقد أحضرا معهما خاتم خطبة ! فلم أجد بداً من تغيير لهجتي معها ومقابلة تصرفاتها الغربية هذه بشيء من الصرامة فسألتها : - ومن قال لك أنني وافقت ؟ أنا لا أريد لا أن أخطب ولا أن أخرج . . فما رأيك ؟ قالت : لماذا ؟ ألا يعجبك ابني ؟ قلت لها : لا . . ابنك على العين والرأس ولكنني لا أريده . قالت : طيب إذا لم توافقني على الخطبة فاتركي الخاتم عندك . ورمته لي وذهبت . . فلما ناديت السجنان ليعيده إليها كانت قد غادرت فتركته معي . وفي اليوم التالي أتى ابن خالتي وحده من جديد فجعل يرجوني أن أعطيه ولو قصاصة ورق يأخذها إلى أخي صفوان خارج سورية لكي ينال موافقته شخصياً على الخطبة . . وبدأت أتبين معالم

179

مؤامرة ترسم بدهاء أثبتت الأيام حقيقة وجودها ، فاللعبة كلها كانت تدور برعاية المخابرات أنفسهم وبالتعاون مع خالتي التي تأكد لي بعدها أنها وابنها يتعاملان معهم بشكل مباشر . . وكان الغرض أن يتم إرسال كطعم لاصطياد أخي صفوان حينما يأتي ليصحبني من مكان الإفراج عني في تركيا . . ولقد أكملوا حيك اللعبة بإرسال شخص ثالث بعد أسبوع تقريباً - وكان يومها وقفة عيد الأضحى - هو ابن احما أخي عسان واسمه حسني ابراهيم باشا ، وكان يأتي كذلك لزيارتي أول مرة . . فتفاجأت جداً خاصة وأنتي سمعت من قبل أنه مخبر للسلطة ، وازددت تحفظاً واستغراباً وأنا أسمعته يعرض علي العرض نفسه ويقول : - نحن نعمل لك واسطة ثقيلة جداً ، وإذا تعاونت معنا فسوف تكونين رابع أيام العيد في تركيا . قلت مستغربة : ولماذا مباشرة خارج سورية ؟ لا أريد ذلك . . أريد أن أبقى في بلدي . فقال

لي : هكذا جاء الشرط . ولما سألته : وماذا سأفعل بتركيا؟ قال : تذهبي عند أخيك . وهكذا تبلورت شكوكي أكثر ، وسرعان ما اتضحت أمامي معالم المؤامرة . . إذ لم يكد حسني هذا يمضي وتقف الأبواب علينا وقد دنا وقت الغروب ، وبينما كنا نستعد للإفطار وقد أمضينا اليوم صياما حتى دخل علينا أحد عناصر الشرطة الطيبين على غير العادة وجعل ينظر إلينا ثم يتوقف بنظره علي . . ثم يعود فيخرج ثانية يحوقل أمام الباب . فلما رأيناه لا يتحدث بشيء بادرته الحاجة بالسؤال : -ماذا هناك أبوي ؟ قل لي . . هل هناك شيء ؟ فناداها إلى خارج المهجع وقال لها بتأثر واضح : - هناك دورية من أمن الدولة أتت تريد أن تأخذ هبة . . فقالت له وقد اتجهت نحوي بالكلام :

180

- قل لنا ذلك خيو . . هبة الحمد لله إيمانها جيد ولن تخاف . . ودخلت الحاجة تقول لي : قومي أبوي وجهزي نفسك . . ضبوا لها يا بنات بدل وجهزوا لها فرشاة أسنان وسجادة صلاة . . قلت لها : لماذا؟ هل هناك شيء ؟ قالت تريد أن تخفف عني : إي معليش لا تخافي . . المخابرات أتوا ليأخذوك . . ونحن تعودنا على هذا الشيء . أحسست لحظتها أن قلبي يقفز قفزا كالكرة . . وجعلت كل الظنون السوداء تدهمني معا . . ووجدتني لا أدري كيف أحمل حقيبة صغيرة أعدتها البنات لي وأتبع الشرطي الذي انهمر في البكاء فزادني رعبا وتخوفا ، ووجدتني في مكتب مدير السجن ينتظرنني رجل بثيابه المدنية عرفت بعدها أنه المقدم عمر مدير سجن التحقيق العسكري ، لكنه لم يزد عن أن سألني : - حضرتك هبة؟ قلت له : نعم . قال : ستتفضلني معنا . ساكنه : هل هناك شيء ؟ قال : لا . . مشوار صغير ! قلت له وقد أسقط في يدي : أنا أعرف مشاويركم . . خمس دقائق كهذه التي صارت خمس سنوات إلى اليوم !

181

الفصل الرابع

سجن التحقيق العسكري

في غياة الجب

أغسطس 1985 أكتوبر 1989

كانت سيارة المخابرات المدنية التي أقلتني تنهب الأرض نهبا فيما كانت رجلي ترتجف من شدة اضطرابي فتصعد وتنزل بشكل لا إرادي حتى اضطرت أن أثبتها بيدي الإثنتين فلا تفضحني ! كنت أحس السيارة تقفز بنا قفزا فوق باقي السيارات من سرعتها ، ورأسي يرتطم بالسقف مع كل انعطافة منها أو لفنة ويعود فيرتج بين كتفي . . فيما تطلق سيارة المرافقة الأمامية أضواءها الباهرة وبوقها المرعب فتتفر السيارات والناس من حولنا مذعورين ، وتكمل سيارة الحماية الخلفية المشهد فتزجر بمحركها لتزيد الناس إرهابا وخوفا . . وحينما مر موكبنا على "جديدة عرطوز" حيث المكان المخصص لإعدامات العسكريين قلت لنفسني : - إذا هم اخذيني إلى الإعدام . لكننا تجاوزنا وقد أطبقت ظلمة الليل علينا حتى وصلنا فرع التحقيق العسكري بالمزة فاستقبلتنا الأبواب مفتوحة بالانتظار ، وسرعان ما ولجت السيارات الثلاث داخل الأسوار الشاهقة فلم تعد لي من وقتها صلة بالعالم في الخارج .

توقفت السيارة أمام باب المبنى وتقدم المقدم مني فعصب لي عيني وكبل يدي إلى الخلف وأنا لا أزال مكاني ، فقلت له : - لكنني حتى أثناء التحقيق الأصلي لم أطمش ولم أكليش . فقال وهو يجذيني من كتفي : القوانين هنا غيرها هناك . ووجدته يصعدني على درج طويل ثم لم يلبث أن أنزلني ثانية وعاد يصعد بي وذلك حتى أفقد القدرة على معرفة المكان أو تمييز الإتجاهات . . وبعد رحلة من الصعود والهبوط زادت من توتري واجهادي وأنا لم

أتناول شيئاً بعد الإفطار أدخلني في ممر طويل وأدارني باتجاه الجدار وقال لي انتظري ،
وبعد خمس دقائق فتح الباب الذي يليني وسمعت صوتاً يقول :

185

أدخلها .

فدخلت لا أكاد أدري إلى أين ، ويد المقدم تقودني إلى كرسي أجلسني عليه فجلست ، ومن
طرف العصابة التي انزلت عن عيني بعض الشيء استطعت أن ألمح ظل طاولة أمامي
وهيئة رجل ما يجلس خلفها ويسألني : - ماذا ترين أمامك ؟ قلت له : لاشيء . كان محدثي
هو العقيد كمال يوسف رئيس الفرع ، وكان أشد ما يخاف على نفسه ربما لأنه مسيحي لا
تحميه طائفته كأكثر الضباط الآخرين ، فكان يشدد علي أن لا يعرف صورته أحد . . ووجدته
يلتفت على عنصر معنا ويسأله : - وأين ذاك الآخر ؟ فأجابه من غير أن أدري عمن كانا
يتحدثان : إنه تحت في المنفردة 24 سيدي .. لكن الرعب تملك قلبي من جديد ، وقلت
لنفسي إنه أخي إذا وقع بأيديهم وكانوا يحققون معه للتو . وعاد العقيد فسأل : - وكيف
وضعيته ؟ أجاب الآخر : جالس على الأرض ومكبلش من يديه ورجليه للوراء ومطمش
سيدي . فلما أحس أنني تلقيت الرسالة المطلوبة وأصابني الرعب التفت إلي يقول : - إي يا
ست هبة . . شوفي . . إذا بدك تحكي معنا الصدق فهناك أمل أن نخرجك ، وإذا بدك تكذبي
فلا مجال أن تخرجي أبدا . قلت له : بكون أحسن

186

قال ببرود : وليس بكون أحسن ؟

قلت : لأن أي شيء ستسألني عنه ليست لدي أي معلومة عنه ، فأنا في السجن منذ خمس
سنوات ، وعلى علمك أن السجن لا تدخل إليه أخبار ولا تخرج عنه أخبار . . وأنا حتى
التلفزيون لا أراه . قال : ولا تعاشري أحدا من السجنيات ؟ قلت له : لا . قال : ليش ؟ هل
أنت شيء مختلف عنهم ! قلت له : لا لكن الله أعطى لكل إنسان طبيعة وأنا لا أحب أن
أتكلم مع أحد . قال : ولا حتى مع القضايات ؟ قلت له : أصلا أنا القضايات لا أتكلم معهن .
قال : ليش غيرخلقة !

قلت له : لا ، لكن أنا طبعي هكذا لا أحب أن أتكلم حتى مع رفيقاتي اللاتي معي في المهجع

فقال لي : لا . . بدك تقولي لي من هو بيت سرك . قلت : ليس لدي بيت للسر ولا أحجاجة .
ثم ما هو هذا السر الذي سأخبره هنا وهناك . فقال لي : لا لك . . لا تطني أنني لا أعرف
شيئا عن السجنيات . . صحيح وضعناكم في سجن مدني لكن أنا أعرف كل شيء عنكم .
قلت له : إذا من هو بيت سري يا شاطر إذا بتعرف ؟ فقال لي : ماجدة . فلما ذكر اسمها
تذكرت للتو كيف كان ابن خالتي يتضايق منها عندما يأتي في زيارته السمجة لأنها كانت تقف
قريبا مني وتشجيني على صده وردة وتجيبه أحيانا بنفسها وتسأل أن يدعني وشأنني . .
فيتضايق جدا ، ومن أجل هذا نقل لهم أنها بيت سري ، ومن هنا عرفت أنه ذهب وفسد علي
. . فلما تلمحت ذلك في ذهني قلت للمقدم : - هذه لا بيت سري ولا شيء . . فقط مجرد
واحدة جالسة بجانبني

187

ألا أتكلم معها أكثر من البعيدة عني خاصة وأنها كانت زميلتي في الجامعة ؟ ثم ما هو السر
الذي تتوقع أن أخبره عنك ؟ فقال لي : لا أعرف وأنت التي ستقولين لي . قلت له : أنا ما
عندي سر وإذا بدك رجعني إلى السجن فأنا أحب إلى قلبي أن أجلس في السجن طول
عمرى ولا تتهمني تهمة ليس لها وجود . فقال لي : طيب أنت من يأتي لزيارتك ؟ قلت له :
تأتي ابنة عمي - وكانوا يعلمون أنها تدرس الطب بدمشق وتأتي لزيارتي أحيانا - وأحيانا في
السنة مرة تأتي عمتي أو عمي .

فسألني : فقط . . لا أحد آخر؟ قلت : لا. قال لي ساخرا : وهذا حسني . . ألم يحضر لزيارتك ؟ ولأن اللعبة لم تكن قد اتضحت لي تماما ولم أتبين نواياهم وقتها والدور الذي يؤديه كل منهم فقد أشفقت أن أذكر اسمه في زيارته الوحيدة لي فأضره ، لكنه لما ذكره أمامي قلت له : - أظن أنني نسيته لأنها المرة الوحيدة التي زارني فيها . فقال لي : طيب سأعطيك ورقة لتكتبي فيها من يأتي ليزورك بدون كذب . قلت له ؟ أنا لا أكذب . إن شاء الله . فأشار إلي عنصر منهم وقال له : خذها إلى الغرفة الثانية . وهناك أعطاني العنصر ورقة وقلما قبل أن يرفع الغطاء عن عيني ويمضي . وبعد عشر دقائق كتبت خلالها نفس الكلام الذي قلته عاد العنصر ثانية فعصب لي عيني ثانية وقادني إلى المقدم الذي سألتني : - خلاص ما عندك أي شيء اخرتقولينه ؟ قلت له : لا.

فقال له : خذها إلى المنفردة .

188

ووجدت العنصر يجذبني من جديد وينزل بي الدرج مطمئنة ومكلبشة إلى الطابق الأرضي ، وهناك عاد فأخرجني من المبنى وأركبني السيارة وجعلوا يلفون بي حول المبنى قبل أن يعيدونني إلى الباب نفسه وينزل بي إلى القبو هذه المرة بأربعين درجة ! ليلة عيد . . وقبر سعيد !

كان الدرج حجريا متأكلا من كثرة ما تعاقبت عليه الأرجل متقعرا من شدة ما وطأته الأقدام ! وعندما بلغنا أسفله أدخلوني أول الأمر على غرفة الإستعلامات ، وهناك أخذوا مني الساعة التي جاوز الوقت فيها منتصف الليل والمشط والنقود التي كانت معي ووضعوهم في ظرف كتبوا عليه اسمي والتهمة "إخوان مسلمين" . . بعدها أدخلني غرفة مكتب صغيرة وأجلسني على كرسي فيها وهم بالذهاب ، فقلت له : - ممكن أن أرفع الطماشة الان ؟ قال : لا . قلت له : لكنني عندما أصاب بضيق شديد في التنفس . قال : وما دخل الطماشة بنفسك ؟ قلت : ولو . . حالة نفسية . فلم يجيني وذهب . . وبعد قليل دخل عنصر آخر فسألته السؤال نفسه وقلت له السبب فقال لي : - بإمكانك أن تلحجها قليلا إذا أحسست بضيق النفس فعلا . كانت الساعة قد جاوزت الواحدة ليلا ، لكنني ورغم الإرهاق والتعب الشديدين فإن النوم جفاني ، وأعادني السهاد إلى أحاسيس أول أيام اعتقالي قبل خمس سنوات ، والتوتر والتوجس والخوف من المجهول عادت فيسقط أرديتها الكثيرة على قلبي الآن من جديد فأثقلته . كنت أحسهم أمام الغرفة يروحون ويغدون وهم يحيون ليلة العيد على طريقتهم مثلما أحيوا ليلة رأس السنة وقتذاك ، وأصداء ضحكاتهم الفاجرة

189

وكلماتهم البيضة تطرق أذني طوال الوقت . وكان السؤال لا يكف عن الدوران على محيط رأسي : لماذا أحضروني وحدي وبعد كل هذه السنوات . . ولماذا لم يسألوني عن أي شيء جاد إلي الآن . . وماذا ينوون أن يفعلوا بي . . فلما طلع الصباح وبدأ يوم جديد من الحياة طلبت أن أذهب إلى الحمام فأخذوني إلى مرفق يستعمله العناصر أنفسهم ، لكنني وجدت بابه مرتفعا عن الأرض بمقدار شبر وهم يجلسون أمامه ، فخفت ولم أحس بالإرتياح وقلت له : - لم أعد أريد . وعدت إلى الكرسي نفسه وبقيت على نفس الحال إلى وقت العصر دون أن يعبرني أحد انتباها أو يسألني سؤالا أو حتى يتذكرني بوجبة طعام . فلما كان العصر أتاني أحد العناصر وأخذني عبر الممرات المتعرجة إلى المنفردة التي خصصوها لي ، وفي الطريق إلى هناك وجدت مجموعة من السجناء أخرجوهم من المهجع بملابس خفيفة وقام عليهم طبيب وأظنه كان سجيننا أيضا كان يفحص لهم دمهم ، ولا أدري ما الذي كان منتشررا فيهم من مرض أو فقر دم ، لكنهم وما أن دنوت منهم حتى انفجرت صيحة السجنان فيهم : - وجهك إلى الجدار . . وفرق الكرياج في نفس اللحظة التي التصقت فيها وجوههم بالجدار

دون أن أقدر علي استيعاب ما حدث . . وعندما وصلنا المنفردة وفتح السجن بابها الثقيل ساكته : - هل سابقى هنا ؟ قال وعلى ناظره ترتسم ملامح السخرية : - نعم . . هذه أحسن منفردة وأعلى درجات المنفردات . . إحمدي ربك أنك هنا ! قلت : ماذا ! أجنبي : نعم . . هذه المنفردات جديدة كلها لم يجلس فيها أحد من قبل . . فاحمدي ربك وأدخلي .

190

ورمى لي ببطانيتين رتتين ثم أغلق علي الباب الحديدي الثقيل ومضى . . وما أن فعل حتى أحسست نفسي أنني اختنقت . . متر ونصف بـمتر ونصف من الأرض وحسب . . الجدران سميكة جدا . . والسقف منخفض إلى درجة أنني كنت أستطيع لمسها . . وفي وسطه فتحة للتهوية لكنها كانت عاطلة عندي وليس هناك أي فتحة غيرها أو شباك . . وبين الباب والجدار الذي يليه توجد طاقة عميقة في آخرها لمبة ضعيفة الضوء بيني وبينها طبقتان من الشبك فلا تكاد تنير إلا نفسها ! فلما أغلق الباب أحسست أنه قبرني وذهب . . وشعرت أنني على بوابة الموت بالفعل . . ولم أعد أستطيع جذب النفس . . كانت لحظة صعبة جدا لم أستطع تحملها ، ولم أعد أستطيع استيعاب ما يجري . . أو لماذا يفعلون بي كل هذا ! ومن تعبي ورعبي كأنما ارتخت أعصابي وخارت قوتي فما شعرت بنفسي إلا وباب المنفردة مفتوحا والدنيا ظلام جدا والعنصر واقف على الباب يلكنني بعصا يمسكها بطرف يده ويقول : - قومي . . قومي .

فلما استجمعت نفسي وحاولت استرجاع الأحداث أدركت أن الليل قد حل وقد حضر وقت الخروج إلى الخط . . وقدرت أنني كأنما أغمي علي ، لكنني وعندما استيقظت ووجدته أمامي أحسنت كأنه عزرائيل . . ولم أعد أستطيع حتى أن أدرك حقيقة شعوري : هل أنا متضايقة . . زعلاية . . خائفة ؟ كله مع بعض ! لم أعد أحس لا بالزمان ولا بالمكان فلم تكن معي ساعة ولم أعد أعرف الليل من النهار . . فلما ناداني نهضت وأعصابي على أشد ما تكون توترا . . فلم أكن أعرف ما الذي يجري هنا ، ولا طبيعة هؤلاء العناصر . . وتبعته إلى الحمام حيث اقتادني فوجدته كبيرا جدا . . ووسخاً إلى أبعد الحدود ، لكنني تماكنت نفسي وغسلت وجهي وعدت . . فوجدته أحضر لي طعاما رددته بلا شهية ، فلم تكن لي نفس وقتذاك لتناول أي شيء ، فأدخلني ثانية وأقفل علي . . فلم أكد أبلغ الأرض وأنا أتلمس موضي كالعميان حتى انطلق عنين صاحب خلف الجدار عن يمين زنراتي

191

جعل بدني ينتفض كالملسوع ، لكنني سرعان ما أدركت أنه صوت جهاز التكييف المركزي الذي لم يلبث أن توقف بعد خمس دقائق كما بدأ فعم السكون المكان من جديد ، ثم عاد فانطلق بعينه الهادر مرة أخرى فكأنما هو وحش سجين يشتهي عنت السجن مثلي ، وبقي الهدير على هذه الدورة المتناوبة يطرق أذني تارة بعد أخرى فكأنه في كل دورة له يخرز فيهما خرزا . . حتى بت لا أكاد أسمع إلا الطنين ، ووجدتني بذلك ومع عتمة الزنزاة وكأنما فقدت الحواس ، فعدت إلى ما يشبه الإغماء ، ولم أصح إلا صباح اليوم التالي على تكبيرات العيد !

تكبيرات العيد من زنزاة رياض الترك!

كانت التكبيرات تنطلق من جهاز راديو جلس جاري في الزنزاة المقابلة الزعيم الشيوعي المعارض رياض الترك يستمع إليه ضمن بعض الإستثناءات التي نالها في منفردته التي أمضى فيها أكثر من عشر سنين ! كان الممر الذي تقع فيه زنراتي يضم أربع منفردات كل اثنتين منهما تقابلان الإثنتين الأخرين ، فكانت زنزاتي الأولى من اليسار ، ومجاورتي التي تليها فارغة ، وفي مقابلها كانت زنزاة رياض الترك ، بينما كانت الزنزاة التي في مقابل زنراتي فارغة في البداية ثم أتوا بعدها بشباب وضعوه فيها ، ولم أره إلا مرة واحدة عندما كان باب زنراتي مفتوحا للتنفس وأتوا بقصعة الطعام له فمد رأسه ليأخذه ، ولم أعلم أي

شيء عنه إلا أنه كان يطلب الخروج للوضوء . وأما رياض الترك فكانت له بعض الميزات عن السجناء الآخرين ، فبين حين وآخر كانت تأتيه زيارات من الخارج ، كما سمحوا له بإحضار الراديو ، وبطهي بعض الطعام لنفسه ، وكثيرا ما كان العناصر يجلسون عنده ليطيخ لهم أو يأخذونه ليجلي لهم الصحون ! وبعد مدة جعل رياض الترك كلما طيخ طبخة سكب لي لقيمات منها ، لكنني لم أكن أكلها وأعيدها مع العنصر إليه . كذلك كان يرسل لي محارم وشايا وأشياء مشابهة . وفي إحدى المرات التي كان باب 192 زنايتي فيها مفتوحا رأيته وكانما طلب من العنصر أن يراني فأذن له ، فذهب وعاد مرتين من أمامي استطعت خلالها أن ألمح لمحا لكنه لم يقل أي شيء . . ولأنه كان صباح العيد فقد انطلقت التكميرات من الراديو فصحوت عليها . . لكن البشريات التي يحملها العيد للناس انقلبت حشرات في قلبي وضيقا وكآبة ، ووجدتني أنخرط في البكاء دون إرادة مني . الناس في الخارج تعيش بهجة العيد وكل هؤلاء الذين في السجن لا يحسون للعيد وجودا ولا معنى . . ولا يعرفون حتى الليل من النهار وما هي إلا برهة حتى فتح الباب علي ووجدت عنصرا آخر قصير القامة طويل الشاربين لا يبعث شكله على الإرتياح ابتدرني بالسؤال : - أنت ما اسمك ؟ قلت له : لماذا ؟ قال : أريد أن أعرف لأن واحدة كانت هنا تشبهك كثيرا . . ربما هي أنت ! هل سبق لك وأتيت إلى هنا ؟ قلت له : لا . وكانت رفيقتي ابتسام التي أحضروها إلى قطنا قبل شهر قليلة قد مرت على هذا السجن من قبل فرجحت أنه يقصدها ، ولما ساكته عن اسمها تأكد ذلك ، فسألني من جديد : - وما اسمك أنت ؟ قلت له وقد أحسست أنه يريد أن يتسلى بي وحسب : - وماذا يلزمك اسمي ؟ إذا أردت فاذهب وانظر إليه عندكم . فلم يلبث وأن غاب قليلا ثم عاد ففتح الباب ثانية لأجد أمامي المقدم عمر مدير السجن الذي أحضرتني وحوله عناصر بيد أحدهم طبق فيه برغل ، أدناه من الأرض فدفعه المقدم برجله نحوي وهو يقول لي : - وقفي على حيلك . قلت له : لا أستطيع . . فقال : ما اسمك ؟

193

أجبتة : ألم تأخذه بالأمس ؟

قال : جاوبيني . . ما أوقحك .

وجعل يشتمني ويصيح في ، فتملكني الغضب وصحت فيه : - هل لي أن أعرف لماذا وضعتوني هنا .

قال : بكره بتعرفي من نفسك .

قلت له : لكنني لم أفعل شيئا .

قال ببرود : إن لم تفعلي شيئا غدا يخرجوك .

قلت له راجية : قل لي فقط ما هي تهمتي . . وإلى متى سأبقى هنا . .

كنت أحس أنني سأجن فعلا إذا بقيت هنا . . وجاء جوابه ليعمق في هذا الشعور . . فقال وهو يغلق الباب علي : -

ألا تعرفي حالك أنك مجرمة .

ومضى ليكمل جولة التعييد على بقية السجناء في الوقت الذي أحسست أنني على حافة الإنهيار تماما ، ولم أجد من سلوى إلا أن انفجر بالبكاء في عتمة هذا القبر الكئيب ، وأتجه إلى الله بقلبي أتطلع إلى فرجه الكريم . ولم تمض دقائق إلا والباب يطرق من جديد . .

وأطل على عنصر آخر يقول لي هامسا : -

لا تخافي يا أختي فأنا مثل أخيك . . قول لي . . كم تريدني أن أفتح لك الباب ؟

قلت وأنا لا أكاد أصدق : لو كان اختياري لقلت طول الوقت . . فأنا على هذه الحالة لا

أستطيع أن أتنفس ، والمكيف الذي يعن طوال اليوم بجانب رأسي لا يصلني من هوائه شيء . فقال لي : كرمال عينك راح أفتح لك الباب طول الليل ، لكن لو سألك أي أحد لا تقول لي من

فتحه . ثم أعطاني ليرة معدنية وقال لي : خذي هذه الليرة ، وإذا احتجت أي شيء وقت دفعتي فلا تدقي إلا دقة واحدة بها على الباب أكون موجودا بعدها عندك

194

ومضى هذا السجن الذي سادعوه هنا (س) وترك باب الزنا نة مفتوحا علي ، فكأنما هي طاقة فتحت بين رحمة الله وبينني ، وصار "س" يطل علي في كل نوباته فيفتح لي الباب ويسالني عن احتياجاتي ، ولم يلبث أن جعل يحضر لي زجاجات حليب يوزعونها على العناصر فيضعها عند طرف الباب ويذهب ، فصرت لا أطلب شيئا من أحد غيره أبدا ، وعندما يحين وقت نوبته أدق الدقة كما قال لي فيأتي وأخبره إن كنت أريد الحمام أو الطعام . . ولما أحسست بالفعل أنه ادمني وأمين رجوته مرة أن يحضر لي مشطا وقصاصة أطافر ، فسالني : -ألا يوجد معك مشط ؟ قلت له :أخذه مني . فقال لي قدمي كتابا للمقدم . فلما قدمت الكتاب وجدتهم يحضرون لي مشطا اخر كأنه من قذارته قد تمشط به كل المساجين قبلي . ولكثرة الوسخ المحشو بين أسنانه لم أتمكن من تنظيفه بأي وسيلة . . فلما تقدمت بطلب اخرأتاني الجواب بالمنع ، لكن حوالي عشرة أيام كانت قد مضت علي وقتذاك وأنا لا أستطيع في هذا المكان الإغتسال أو حتى تمشيط شعري المغطى طوال الليل والنهار تحت الحجاب حتى خشيت أن أصالب بالقمل بالفعل ، فوجدتني أتجراً وأسأل "س" عن الإغتسال وأرجوه أن يحضر لي مشطا وقصاصة أطافر معه ، فتأسف لي في البداية واعتذر بأن ذلك الطلب ممنوع ، لكنه ذهب بعدها وأحضر لي على مسؤوليته مشطا رجاليا صغيرا من عند رياض الترك وقراصة الأطافر التي طلبت ، وأحضر لي صابونة أيضا وشحاطة بلاستيك . . وحوالي الثانية ليلا وجدته يطرق علي الباب ويسالني أن أتبعه إلى الحمام التي كانت في منتصف ممر طويل يحتوي كله على زرنانات ومهاجع متتالية ، فأحست وهو يأخذني والسكون يغمر المكان بالرهبة والرعب ، فلما بلغنا الحمام وجدت على بابه عنصرا اخر اسمه ياسين أمره "س" أن يجلس على الباب فيغلقه من الخارج ولا

195

يترك أي إنسان يدخل إليه . ولما دخلت الباب الحديدي وجدت مجموعة مغاسل وتواليات تليها مقاسم لثلاثة حمامات لها أبواب ولكنها مرفوعة عن الأرض أيضا . . فلما دخلت أحسست بقلبي أن هذا العنصر سيتبعني فلم أخلع ثيابي ، ولم ألبث وأن سمعت حسيس خطوات تتقدم نحوي ، فلما نظرت أسفل الباب رأيت حذاءه بالفعل ، ففتحت بسرعة وجريت خارج المكان كله إلى الممر وهو يناديني : -أين . . إلى أين ؟ قلت له وأنا أصيح : - أريد رئيس السجن حالا . . ماذا تفعل أنت هنا يا قليل الأدب . . فجعل يجري ورائي ويناديني لأرجع ويقول : - تعالي . . أنت الآن تخالفين نظام السجن . . قلت له وأنا أرفع صوتي أكثر وأتجه نحو زرناتي : أحضر لي مدير السجن حتى لا أخالف النظام فيه . وكانما سمع "س" الصوت فحضر يسأل ماذا حدث ، فلما أخبرته صاح فيه بغضب : - بدل أن تحرسها كما قلت لك عملت هذا العمل يا حقير . . واتجه إلي يعتذر ويقول : - إمسحها بذقني هذه المرة يا أختي وعودي فتحممي . . وأعادني من جديد فدخلت وأقفلت الباب من الداخل وبقيت قرابة الساعة لا أجرؤ أن أخلع ثيابي ، حتى إذا أحسست بالإطمئنان وتأكد لي أن لا أحد هناك فتحت الماء علي ، فلما انتهيت وخرجت وجدت ياسين هذا مكانه على الكرسي ، ورأيته ينظر إلي من جديد ويقول بكل وقاحة : - ألا تريدن رؤية هذا الوجه الحلو بالمرأة . . إذا أردت أنا معي واحدة . أجبتة باحتقار : الله لا يعطيك العافية .

196

ولم يكن أمامي إلا أن أعود إلى منفردتي تتعاقب علي الأيام من غير أن أدري سببا لوجودي هناك أو نهاية لحالي . وبعد حوالي عشرة أيام من وصولي وفي ظهيرة يوم اشتد فيه الحر

في القبو وازدحمت الأنفاس وأطبقت علينا رائحة العفونة مختلطة بالعرق وبالأنفاس حضر المقدم عمر فننادني ووضع الطماشة على عيني ثانية وكلبشني إلى الورا وجعل يقودني بين المتاهات هناك فأحسست أنه خنقني ، فلما سألته أن يمنحني فرصة أتنفس فيها من غير هذه العصابة لأنني أكاد أختنق بالفعل قال لي : -حتى لو مت بحق فلن أرفعها لك . . هكذا يقول النظام ! ثم أخذني إلى رئيس الفرع كمال يوسف مرة ثانية معصوبة ومكبلة ، لكن ذلك لم يزد عن أن سألني : -هل لديك شيء تقولينه ؟ قلت باستغراب : لا . . لماذا . فقال له من غير أن يابه لسؤالي : خذها . . وأعادوني إلى المنفردة كما جئت لأكمل فيها عشرين يوما لا أرى فيها الشمس ولا القمر . . ولا أعرف الليل من النهار ولا الصباح من المساء إلا من تبدل الحرس ومن صوت إذاعة لندن التي تبلغني من زنزانه رياض الترك عصر كل يوم !

عسرويسر .

وتظل رحمة الله أكبر وأوسع ، فما هي أيام حتى أرسل سبحانه إلي مجددا آخر في النوبة الثانية يؤدي خدمته العسكرية ، صار يعاملني بشكل جيد أيضا ويحضر لي أشياء خاصة ويسمح لي بالخروج إلى الحمام مرات أكثر لأغسل وأشرب . . وعندما أخبرته أن التكيف في زنزانتني لا يعمل ذهب وأصلحه حتى اشتغل آخر الأمر ، وكان عندما أخرج إلى الحمام في نوبته يأتي بسجين آخر ليمسح لي المنفردة وينظفها

197

وينفض لي البطانيات ويرتب الزنزانه لي قدر المستطاع . لكن هذه النماذج كانت الإستثناء في هذا المكان الظالم أهله ، وكان سوء الخلق وانعدام المروءة والكرامة والأدب هو الأصل الأصيل . . فالعناصر دائما يحملون عصيا أو خيزرانات أو كابلات ، وكان المقدم عمر يحمل كلبشات وطماشات باستمرار ، لكنني لم أكن أسمع أصوات تعذيب هناك لأن غرفة التحقيق كانت كما يبدو بعيدة . وفي إحدى المرات جاءني عنصر من هؤلاء ببقايا صندويتشة فلافل أكل أكثرها وأبقى الجزء الأخير لي . . فجاء يقول لي : - أليست جائعة ؟ قلت : لا . . لكن وقبل أن تسألني هذا السؤال أريد أن أسألك أنا إلى متى سأبقى أنا جالسة هنا؟ قال : والله لا أعرف . . هذه ليست شغلتنا . قلت له : طيب . . حسبي الله . لكنه بدل أن ينصرف تقدم فجلس القرفصاء أمامي وهو يرتدي جلابية بيضاء رقيقة تكشف مظهره المقرف وقال لي : - هل تحبين أن تخرجي إذا أراد أحد أن يخرجك ؟ قلت له : لا . قال : عجيب . . لم أر أحدا يحب قعدة السجن غيرك . قلت له : الحمد لله . قال : لكن والله أنا مستغرب . . لماذا أحضروك إلى هنا بعد خمس سنوات من اعتقالك . . ألم تعرفي السبب ؟ قلت له : لا ، لم أعرف ، هكذا كتب الله . فقال لي : طيب إذا أخرجوك الآن . . أنت والله مثل أختي وأنا أعيش لوحدي عسكري . . وأنت تعرفي حياة العسكري . . مستأجر غرفتين بالمهاجرين ، أعطيك غرفة لك وأنا في الغرفة الأخرى . قلت له أنتهره وقد بدا لي أنه يتمادي : وما هي المناسبة؟

198

قال : حسبيما دريت أنه لا أحد لك . قلت له : ومن قال لك ؟ قال : أهلك قتلوا بأحداث حماة . قلت له : وإذا لم يكن للواحد أهل أما له الله ؟ أنا لي الله . . فقال لي وكأنما التأم مني لأنني لا أسايره : يعني ما بتحبي تطلعي . قلت له : لا . فخرج وأغلق باب المنفردة علي وجعل يلعب بزر الضوء الذي ينير الكوة في زنزانتني حتى أحرقه ، فأحسست أن في نيته أن يطفئ الضوء علي ليدخل في العتمة . ووقتها كانوا قد أعطوني وجبة الطعام في طبق من بلاستيك ميلامين ثقيل الوزن ، فأفرغت الطعام منه وحملت بيدي وصحت : -من هناك . فلم يرد . . وما وجدته إلا وهو يفتح باب المنفردة بيضاء ويحاول الإنسلا للداخل . . فطبقت بوجهه بقوة وصحت له : - والله العظيم إذا لم تترك الباب فسأجمع عليك العناصر الموجودة . قال بخبت : ولماذا ؟ أنا أريد أن أدخل وأصلح لك الضوء . قلت له : وما الذي أدراك أن

الضوء عندي احترق ؟ بقيت تلعب به حتى حرقته ياسفيه ! وصرت أنادي على " س " وظللت أصيح وأصرخ وأطرق بالصحن الذي بيدي على الباب حتى حضر وعدد اخر من العناصر يسألونني ماذا حدث . . قلت : - هذا الحقير ظل يلعب بالضوء حتى حرقه وقال يريد أن يدخل بعدها في العتمة ليري ما حدث . فأخذه عني وهم لا يهتمون شتائمهم له ، لكنهم ذهبوا في نفس الوقت إلى الزنازة المقابلة وأخذوا اللمبة منها فركبوها لي ، وتركوا ذاك السجين المسكين هناك في الظلام !

199

وساطة فاشلة

وفي نفس ذلك اليوم كانوا قد أخرجوا كل بطانيات الفرع ليعقمونها لا أدري أين ثم أعادوها إلي الممر ليوزعونها على السجناء من جديد ، فجاءني أحد العناصر المناوبة وقال لي : - سأخرجك الان لتختاري البطانيات التي تريدتها . وبعد أن أخذتها وعدت لحق بي وناداني : -أريد أن أقول لك شيئا . . إن شاء الله ستخرجني قريبا لأنهم لا يأتون بأحد هنا إلا إذا كان على وشك الخروج ، وأنت حسبا علمت أتتك واسطة وسيفرجون عنك . قلت له : إن شاء الله . قال : لكن لا تقولي لأحد لإنهم إذا دروا أنني أخبرتك والله بيخربوا بيتي . قلت له : الله يجزيك الخير . فلما انصرف وانتهت نوبته وحل الصباح حضر عنصر اخر كبير الشارين جاحظ العينين قصير القامة اعتدت مشاهدته بين حين وآخر بين بقية العناصر فأنفر من مرآه ، ووجدته ومن غير استئذان ولا إعلام يفتح الباب علي ويسألني : - لماذا تبكين ؟ قلت وقد أربكتني المفاجأة : - ماذا ؟ أنا لا أبكي . . ثم كيف تفتح علي الباب من غير أن تعطيني خيرا بذلك ! قال : كنت مارا من هنا فأردت أن أرى إن كان أحد قد ضايقتك ! أجبت : لا شكرا ، ولو سمحت أغلق الباب فانا لا أريد رؤية أحد . فقال وهو يدنو مني خطوة بعد خطوة : - لا والله أنا حابب أطمئن عليك . . والله أنا قلبي مشغول عليك . . كنت جالسة وقتها في زاوية الزنازة متكومة على نفسي ، فلما أحسست بنيته العاطلة نهضت بسرعة أريد أن أقفل الباب ، لكنه أمسك

200

بيدي يريد أن يتمادي ، فاستجمعت نفسي ودفعته وأطبقت الباب في وجهه وأنا أصيح : -إذا لم تخرج فسأجمع عليك أهل السجن جميعا . . فانصرف لبرهة لم تكن كافية حتى لالتقاط أنفاسي ، ولم يلبث أن عاد يقول لي : - هيا جهزي نفسك والبسي . . هذا آخر يوم لك هنا . . سيفرجون اليوم عنك . فجمعت ما لدي من أغراض وكنت بطبيعة الحال لا أملك إلا الملابس التي علي ، ولما خطوت خارج الزنازة لم أجده إلا خلفي بين الجدار وبينني يحاول أن يحيط رأسي بذراعيه ، فانتفضت برعب وغضب ودفعته عني بقوة وركضت إلى الأمام وأنا أشتمه وأحقره وهو لا يبالي يقول لي ببلاهة : - والله كنت حابب أشرب معاك كاسة شاي . . والله لهلقا سخنة إذا بتحبي . فلما دنونا من أحد الأبواب دفعني إلى الداخل ومضى ، وهناك وجدت عنصرا اخر برتبة مساعد اسمه جلال أجلسني وقال لي : - هناك واسطة أتتك من التحقيق العسكري للإفراج عنك لكن فرع أمن الدولة الذي اعتقلك مانع . . ولذلك فسوف نعيدك الان إلى قطنا. ومن غير أن أجيب بكلمة واحدة نادى عنصرا آخر أعادني إلى الغرفة الأولى التي وضعوني فيها أول ما وصلت القبو . . وبقيت هناك من الظهر إلى قرابة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا ، أخرجوني اخر الأمر فسلموني أماناتي وأركبوني السيارة إلي قطنا . . والذي يبدو أنهم كانوا ينوون الإفراج عني بالفعل ضمن مخططهم ، فلما أحسوا أنه سيفشل ألغوا الفكرة وأعادوني من حيث أتيت . 201

إشاعات المغرضين

عدت إلى قطنا كما جئت بسيارة تنهب الأرض نهبا في ظلمة الليل وتكاد تفترس العابرين في جريبتها الأرعن ، فلما وصلنا وسلموني للشرطة هناك أحست رفيقاتي بوصولي فعلا

صراخهن وارتفعت زغاريدهن وتسلقن الشبايبك والأبواب مقفلة عليهن - كالعصافير يتقافزن فوق بعضهن البعض ، ولم يهدأن حتى هددهن الشرطي بأخذي إلى مكان آخر إن لم يستجيبوا ، فنزلن يتطلعن إلي بشوق ومحبة ، فلما أدخلني السور صرن ينادينني من كلا المهجعين : - تعالي هنا . . تعالي إلينا . . وأخذن في كل مهجع يسألن الشرطي أن يفتح لهن أولا ليستقبلنني ، فلم يجد إلا أن يفتح المهجعين آخر الأمر معا ، وتركنا نجتمع ليلتها في واحد من اللقاءات الجميلة التي لا أنساها أبدا . . ولا أزال أذكر كيف اندفع معقل وسمية نحوي وركضا مع البنات لاستقبالي وقد أخذنا حفاصتيهما ووضعاهما على رأسيهما مثلما فعلت البنات بحجاباتهن وركضا يستقبلانني بالأحضان والقبلات ! ولم ينغص علي فرحة اللقاء إلا ما سمعته من أن أميرة زركلي والسجانة أم جميل التي كانت دائبة الإساءة لنا قد أشاعتا بعد مغادرتي بأنني أدنت بالإتصال مع الإخوان من داخل السجن وبتلقي رسائل ونقودا منهم . . ولذلك كانت البنات في غاية القلق علي طوال هذه المدة ، ولم يصدقن أنني سأعود إليهن من جديد . . لكنني عدت بمشيئة الله .

البقره الزرقاء !

عدت إلى قطنا حيث تخف المعاناة مقارنة بالسجن الذي أتيت منه ولكنها لا تنتهي . . ولم يجدد من رتبة حياتنا المملة إلا حدث الإفراج عن دفعة أخرى من السجينات كن أم معقل وأم هيثم وأم عبد الباسط

202

وابنتها عائدة . . ثم لم تلبث وأن لحقت بهن أم خالد وأم زهير بعد عدة أشهر . . وكان الإفراج عنهن جميعا بنفس الطريقة والترتيب ، فقد قرأوا أسماءهن عند الصباح وأعطوهن فرصة ليجمعن حاجياتهن ، ثم أخذوهن إلى التحقيق العسكري ليفرج عنهن من هناك . . وكان منظرا مؤثرا بالفعل خروج معقل الذي ولد في المعتقل وشب وترعرع فيه حتى قارب من العمر خمس سنين ! ولا أزال أذكر حين غادر حدود السجن لأول مرة عندما أخرجه أخي غسان في إحدى زيارته بإذن من مدير السجن ، فلما عاد جعل يحكي لأمه مشاهداته الأولى في عالم الإنسان الطبيعي ويقول لها بانفعال : " - ماما . . ماما . . أنا رأيت واحدا يمشي على أربع أرجل . . فلما سألت أخي عما يعنيه قال لي ضاحكا : -لقد رأى الحمار ! وقال لي أنه وضع رجله علي الأرض ليمشي فتحركت حجرة تحت رجله فغشني في البكاء ! وعندما أراد مدير السجن أن يحرك دراجته النارية خاف واضطرب والتصق بأخي كأنما يستغيث به ! - وفي المرة الثانية وعندما بلغ ثلاث سنوات أرسلوه إلى الضيعة عند بيت جده حتى يتأقلم قليلا مع الناس ويرى إخوته ، لكنهم ومن كثرة ما رأورا منه لم يصدقوا كيف أعادوه ! ولقد روت جدته أنه كان يتناول الأحجار فيرمي بها إخوته ويشج رؤوسهم وهو لا يدرك أن الحجارة يمكن أن تؤذي ! ولما ساكناه عم رأى هناك قال : -رأيت بقرة زرقاء بتبش حليب ! وفهمنا بعد الشرح والإستقصاء أنه شاهد كيف

تحلب البقرة فظنها تبول حليبيا ، ولعدم معرفته بالألوان ظننها زرقاء ! ومثلما كان وداع معقل مؤثرا فقد كان استقباله بعد بضعة أشهر حينما أتى في زيارة مع والدته مؤثرا أيضا . . فلقد جمعت البنات حوله ينتظرن أن يسمعن منه كلمته الأثيرة " طظ أسد . . " لكن أمه بادرت

203

وسألته لتسمعنا الفارق وترينا أثر الحرية عليه : -قل لهم حبيبي ماذا تعلمت في المدرسة . فجعل مقبل الذي أنفق سنوات عمره الخمس الأولى وراء القضبان بسبب هذا النظام الظالم يسمعنا أغنيات المديح والتمجيد للثورة وللقائد الأسد ! ولقد روت لنا أمه أنها لما أخبرته عن زيارتنا أخذ يبكي . . فلما سألته عن السبب قال لها : الان أبو مصطفى يدخلني المهجع ويقفل علي . ولم يدخل مقبل علينا إلا بثق الأنفوس رغم تطمينات أمه وأبي

مصطفى نفسه ، وعندما صار بيننا جعل وقد ذاق بعض معاني الحرية في الخارج يوزع علينا نظرات التحسر والأسف ، ولا يكف عن مراقبة الباب خشية أن يغلق عليه من جديد !

204

الفصل الخامس

سجن دوما

معركة مع الزمن

نوفمبر 1985 أكتوبر 1989

مرت أسابيع آخر ونحن في قطننا نمضغ الأيام ونزدرد الأسي . . ونحس كلما تطاول العهد وتباعد الزمان أنها رحلة إلى النهاية ليس عنها من فكاك ! وبرغم الأنباء التي كانت بدأت تتسرب إلينا من قبل عن نية نقلنا إلى سجن آخر . . ورغم إشارات من بعض مسئولى السجن لنا بتخفيف الأغراض والإستعداد لرحيل قريب ، إلا أننا وكأنا ألغينا كلمات الإفراج والخلاص وحتى الإنتقال من قواميسنا . . وبتنا نعيش يومنا وحسب في هذا القمقم الذي ضاق حتى بالأنفاس ! لكننا وفي صباح تشرينى بارد وجدنا مدير السجن ومجموعة من الشرطة معه يدخلون من غير مقدمات علينا ويقولون لنا جهزوا أنفسكم للنقل صباح الغد ! كان السؤال الأول الذي قفز إلى أذهاننا : إلى أين ؟ فلما بلغنا الجواب : إلى سجن دوما المدني حضر بدهة إلينا السؤال التالي : لماذا ؟ وكانت الإجابة حينها بأن السجن هنا ضاق بنزيلاته ، وأن الحكومة انتهت من بناء سجن جديد في "عدرا" فنقلوا سجناء دوما إليه لينقلونا إلى هناك ويحولوا قطننا إلى مجرد مخفر . لكن إشاعة سرت وقتذاك - ولكنني لم أدر بها إلا بعد الإفراج عنا روجت بأن النقل كان بسببي أنا ! وأن أخبارا تسربت عن اعتزام اخوتي القدوم واختطافي من السجن ، وأن زوجة أخي غسان علمت بذلك وأخبرتهم فقاموا بنقلنا بناء على ذلك ! ولم أفاجأ حينما سمعت القصة حينها لأنني كنت قد وجدت من زوجة أخي ما يؤكد تعاملها مع المخابرات . . مثلما وجدت عددا غيرها من الأقارب وأبناء البلد تحولوا إلى صف النظام وجندوا أنفسهم جواسيس لديه طمعا بمكاسب رخيصة ينالونها أو خوفا من مشاكل ومتاعب قد يواجهونها ! وعلى كل حال تم الإشعار بالنقل ، ووجدتنا نهرع لنللم ما تكدرس لدينا من متاع وحاجيات . . وفي صباح اليوم التالي انتشر الحرس على

207

الأسطحة وتوزعوا على المداخل والأبواب . . وتقدمت شاحنة كبيرة في البداية لنقل الأمتعة والاكياس وغالونات الكاز التي كنا قد اشتريناها لنملأ بها وقود الحمام . . حتى إذا امتلأت الشاحنة وكادت أن تفيض تحركت باتجاه منزلنا الجديد ، أخرجونا بعدها اثنتين اثنتين فكيلونا وأصعدونا واحدا من باصات النقل الداخلي ، وصعدت مجموعة من الشرطة المسلحين فجلسوا عند البابين الأمامي والخلفي ، ومضوا بنا قرابة العشرين سجينة نحو دوما من طريق خارج المدينة ، تتقدما سيارة شرطة وتتبعنا اثنتان أخريان للحماية والحراسة . . وزاد من كآبة الحال الغيوم الداكنة التي كست السماء يومها فحجبت الشمس وأحالت الدنيا من حولنا كثيية مظلمة . . وعندما وصلنا آخر الأمر كنا متعبين جدا وجائعين وقلقين . . ووجدناهم وقد ألقوا أمتعتنا في ساحة السجن فاختلط منها وتداخل قدر ما تكسر أو فقد ! وكان أكثر السرقات وضوحا جالونات الوقود التي كانت عزيزة علينا لأننا لم نحصل عليهم إلا بشق الأنفس . . وعندما طالبنا الشرطة بها نفوا مسؤوليتهم عنها وتلعثموا في الإجابة . . ووعده بعضهم بالمساعدة في استرجاع بعض منها ولكن شيئا لم يرجع . . ووجدتنا من ثم نقاد إلى منزلنا الجديد ، فأعطونا مهجعين للسياسيات دب الخلاف كالعادة حول التوزع عليهما وتقاسم الأماكن فيهما رغم أن ذلك تقرر من إدارة السجن قبل أن نحضر !

إضراب جديد

كان سجن دوما أشبه ما يكون في بنائه بالبيوت العربية القديمة . . فالجدران الحجرية وبركة الماء في منتصف الباحة تحيطها أحواض الزراعة من كل جوانبها . . وطريقة بناء الغرف نفسها كلها تقول ذلك . . وعدا عن مطبخ وحمام وغرفة طبابة وأخرى لبيع الحاجيات الرئيسية كنا نسميها ندوة السجن . . وإضافة إلى ثلاث غرف صغيرة كانت تستعمل كزرنانات منفردة ، كانت ثمة ست مهاجع رئيسيه : الأول من اليمين لمتهمات

208

الدعارة ، والثاني بعده للقتل ، والأول من اليسار للحشيش ، تليه غرفة القتل والسرقة ، وبينهما غرفة كانت لمحو الأمية ثم ألغي هذا البرنامج فتحولت إلى غرفة عامة . وفي صدارة البناء كان مهجعا السجينات السياسيات وجدت مكاني في المهجع الأيسر منهما ، وهو بناء طويل وضيق بعض الشيء ، ترتفع فيه مصطبتان عن اليمين والشمال تتوزع الفرش فوقهما بانتظام ، وبينهما ممر على ضفتيه خزائن صغيرة تحت المصطبتين خصصت لاستيعاب حاجيات كل شخص من النزيلات .

مخبره كل العهود !

كان ثمة مفاجأة تنتظرنا في دوما ، ففي أواخر أيام قطنا تم نقل المقدم موفق السمان بسبب تقرير مغرض اتهمه بالتعاون مع الإخوان ! فلما وصلنا دوما وجدنا الشخص نفسه هناك ، لكن استثناسنا لم يطل ، واستبشارنا انحل مكانه ، فالمقدم مدير السجن الذي يليه وهو درزي من عائلة السبع أذاقنا السم بالفعل ! فلم يمض الأسبوع الأول على وصولنا حتى أصدر مجموعة قرارات صارمة حرمتنا من كثير من الحقوق المهمة التي اكتسبناها من قبل . ففي البداية وبينما كنا خارج مهاجنا وقت التنفس حضر المقدم السبع وأمرنا أن نخرج إلى الساحة كل ما لدينا من مواقد غاز لأنها ممنوعة ، ولأننا لا نستطيع إلا الإمتثال فقد أخرجنا ما طلب ولكننا رفضنا دخول المهاجع احتجاجا على القرار . . وبعد مداوات لم تطل سمح لنا بإعادة المواقد ، لكنه وبعد أيام قليلة قام أثناء وجودنا في المهجع بجولة تفتيشية مفاجئة صادر عناصر الشرطة خلالها مواقدنا وكل الأدوات المعدنية والزجاجية التي لدينا بعدما أحكموا إقفال الأبواب علينا ير لا نعاود الإعتصام في الخارج . . فلم نجد بدا إلا أن نرسل كتابا من خلال إحدى السجانات لرئيس السجن المقدم موفق السمان نخبره بالأمر . . فتدخل المقدم وأعاد لنا الأغراض . . لكن المقدم السبع لم يتوقف عن مساعيه في التصيق علينا . . ووجد في أميرة زركلي - مخبرة كل

209

العهود خير معين له على نبش أسرارنا ورصد تحركاتنا ، وما هي إلا أيام حتى فاجأنا بقرار أقسى وأغرب ، فأمر بمنع الزيارات عن اللاتي لم تصدر أحكام بحقهن من "المحكمة الميدانية" . . وكانت أكثرية السجينات واقع الحال تجهلن أحكامهن رغم مرورهن على المحكمة التي اعتبرت أحكامها سرية ! وسرعان ما سرت فينا روح المقاومة من جديد ، وقررنا بالإتفاق أن تبدأ المتضررات إضرابا عن الطعام حتى يتراجع عن هذا القرار ، فبلغ عدد المضربات حوالي العشرين كن جميعا من المسجلات تحت اسم الإخوان هذه المرة ، لأن الزيارات لم تمنع عن الشيوعيات بالأصل رغم أنهن لم تكن محكومات . . وأما نحن اللاتي نعلم أحكامنا فلم نشاركهن الإضراب بالإتفاق فيما بيننا حتى لا يمنع زيارتنا أيضا ويقفل الباب الذي كنا نتصل نحن وهن جميعا بأهاليها عبره . . لكنه رغم ذلك أصدر أمرا بمنعنا من الإقتراب من الشباك أثناء الزيارات حتى لا نوصل الخبر للخارج . . واستمر الإضراب واحدا أو إثنين وعشرين يوما كادت المضربات في أواخرها أن يمتن بالفعل . . وصرنا حينها نحملهن إلى الحمام حملا ونغير لهن ثيابهن وننظف أماكن نومهن وقد فقدن كل مقدرة على الحركة والتنقل . . فتعبنا كما لو كنا مضربات معهن تماما ، خاصة أننا كنا نأكل أقل القليل وبالسر احتراما لشعورهن . . وصارت منهن من يرتفع ضغطها أو تأتيها حركات

عصية . . فأحضروا طبيب الفرع المخصص للشرطة والضباط بالطبع للكشف الدوري عليهن ، فكنا نحملهن إليه في البطانيات حملا كأنهن قتيلات !
سم ودم!

لم ينقض شهر على ممارسات المقدم السبع الذي لم يكثرث بما حصل حتى صدر قرار مفاجيء لم ندر سببا له يقضي بنقله ، لكن فرحتنا لم تتم ومأساتنا معه لم تنته ، فلقد أحضروا مكانه مقدا اسما عيليا من السلمية اسمه عماد لم يكن أقل لؤما منه . . وكان عماد هذا إذا التأم انقلب وجهه

210

إلى لونين : أصفر كالسم وأحمر كالدم ! لكننا وقد فاض بنا الكيل وما عاد لدينا جلد على احتمال الظلم قررنا التصدي له أيضا ، ويبدو أنه بطياشته وعنجهيته أراد أن يخضعنا بالطريقة التي اعتادها وأمثاله مع السجينات القضائيات ، فأقبل علينا صباح أحد الأيام وأراد أن يضرب إحدى السجينات من بيننا لتمثل لأوامره ، فما كان منها إلا أن ردت عليه بصفعه على وجهه جعلته يرتد مبهونا وقد تهاوى انتفاخه الزائف . . وصار يهددها بالجزاء وبالعقوبات ، فقمنا كلنا عليه نقول له إن هذا ليس بحقك ولا بصلاحياتك . . وهذا القرار بمنع الزيارات كله من عندك . . وعندما أسقط من يده وأحس خطورة ما يجري وقد شارفت بعض المضربات على الموت بالفعل وعد أن يكتب إلى إدارة المخابرات ليطلب الأحكام ويتحقق من وضعنا ، لكن الأهالي كانوا أسرع بالإتصال معهم والحصول على أدونات بالزيارة ، فأنهت المضربات إيضا بهن ، وخفت الضغوط والقيود بعض الشيء وإن لم تنته ، ولكنه استمر يضايقنا أيام الزيارات ولا يسمح للأهالي بالدخول إلا بعد أن تدنو الساعة من الثانية أو الثالثة . . ولقد حدثنا أم ماجدة فيما بعد أنها كم وكم قبلت الأرض على باب السجن تقول له أو لمسؤول الزيارات : دعني أقبل رجلك وأدخل هذه الأغراض لابنتي فقط . . فيرفض . . فإذا أسقط في يدها كتبت ورقة صغيرة تطمئن ابنتها فيها ببضع كلمات وترجوه أن يوصلها لها ، فكان يأخذها ويمزقها أمامها ويطؤها بقدميه أمامها دونما رحمة !

من السياسة إلى الياقتصاد !

كانت فاتحة الوافدات الجدد علينا في دوما فتاة فلسطينية الأصل في الثلاثينات من عمرها اسمها جميلة البطش ، كانت تدرس في سوريا واتهمت مع مجموعة من تنظيم شيوعي بتفجير الفندق السياحي بحلب وإحدى السفارات بدمشق وبأشياء أخرى . وكان قد ألقى القبض عليها عام 79 وحكمتها محكمة أمن الدولة العليا بالسجن المؤبد . . وبعد أن

211

أمضت قرابة السبع سنوات في سجن المسلمية بحلب نقلت إلى دوما مع بداية انتقالنا عام 86 ولم تخرج إلا بعدنا بسنتين . . وبرغم مشاركتها السجن معنا لأكثر من سنتين إلا أنها كانت تميل إلى العزلة ولا تختلط حتى مع الشيوعيات الأخريات . . وبعد جميلة بأسابيع أحضروا طالبة أدب فرنسي من دمشق اسمها هلال معتقلة بتهمة تخريب الإقتصاد ! فقد كان أبوها كبير صرافي بدمشق ولوحق أثناء التضييق على الصرافين فهرب خارج سوريا . . ولم يلبث بعد فترة وأن أرسل سبعة ملايين ليرة ونصف من الأردن وطلب من ابنته أن تعطيهيا لصراف آخر في دمشق . . فلما ذهبت إلى البيت المطلوب تصادف ذلك مع قيام الإخوان بتوزيع منشورات في المنطقة فظنوها واحدة منهم ، فلما فتشوا سيارتها ووجدوا هذا المبلغ الكبير نسوا الإخوان والمنشورات وأخذوا النقود والسيارة . . ولم يعيدوا لها من ذلك شيئا حتى بعد الإفراج عنها بعد ثلاث سنوات !
رهينة الجبناء !

وتتالت الأيام وحلت علينا ضيفة جديدة هي عزيزة جلود زوجة النقيب إبراهيم اليوسف . . وكانت عزيزة قد اعتقلت أول مرة بعد حادثه المدفعية نالت فيها أشد العذاب ، ثم أفرجوا

عنها لتكون طعاما يمكنهم من اصطلياد زوجها ، فلما لم يصلوا إلى شيء من خلالها أعادوا اعتقالها ثانية فوجدوها حاملا ، فقالوا لها إذا فأنت تعرفين مكان زوجك وتقابليه ، وكان عمر حميدة يضربها على بطنها وينادي كالممسوس على الجنين يقول له : إنزل . . إنزل واشهد اللهم إنني بعثي ! لكن الله حفظ لها الطفل وعادوا فأفرجوا عنها بعد أن سجنوها في ثكنة هنانو وعذبوها هناك أيضا . . وعندما خرجت وضعت مولودها اسماعيل قبل أن يعقلوها للمرة الأخيرة واسماعيل معها في شهره الأول

212

أو الثاني ، وبقيت معا في المنفردة بسجن المسلمية أربع سنوات . . وهناك ، وعلاوة على معاناة السجن المرة فقد مرت عزيزة بظرف رهيب جعلها تعيش كابوسا مرعبا لا مثيل له ، فخلال تلك الفترة حدثت عملية تمرد قام بها بعض السجناء . . فاعتصموا في مهجعهم احتجاجا على التعذيب والإرهاب وسوء المعاملة وأحرقوا فرشهم ورفضوا الإنصياح لأوامر المخابرات بإخلاء المكان . وقتها ظن أولاء أن مجموعة من المسلحين تسللت إلى داخل السجن وقامت بالتمرد فما عادوا يجرؤون على الإقتراب . . فبادروا بخستهم إلى جذب عزيزة من زنراتها وقدموها كرهينة وصاروا يساوموا الشباب عليها : إذا لم تسلموا أنفسكم فسنقتلها . . فعاشت المسكينة على أعصابها يومين من الرعب كاملين . . أتوا خلالها بقناص قتل المعتصمين أمام عينيها واحدا بعد الآخر حتى أنهوا الموضوع ! وعندما نقلوها من بعد إلى دمشق تمكن أهلها من أخذ اسماعيل معهم ليعيش مع إخوته في بيت والدها طوال الفترة القادمة ، حيث ظل أهل أبيهم كلهم في السجن ! وقد مكثت عزيزة في سجن التحقيق العسكري ثمانية أشهر ثم نقلوها إلى دوما والتقينا معها هناك لنبقى معا حتى الإفراج عنا . . ورغم أنهم تلوا اسمها مع قائمة الذين شملهم العفو فقد نقلوها إلى سجن المسلمية من جديد واحتفظوا بها هناك لمدة سنتين إضافيتين في زنزاة منفردة سيئة جدا تحوطها معاملة أسوأ . . فلم يسمحوا لها في البداية برؤية أحد أبدا من أهلها حتى أصيبت المسكينة بانهيار عصبي . . وبعد فترة طويلة سمحوا لابنائها فقط بزيارتها وظل الحظر على بقية الأهل قائما . . وكانت عزيزة في قلق دائم على أولادها خاصة بعد تهديدات العميد حسن خليك رئيس اللجنة التي قابلتنا قبل الإفراج ، والذي قال لها بلسان ينفث الحقد والمقت : - ثار الذين قتلهم زوجك المجرم ما نسي وأهل القتلى نار قلوبهم

لم 213

تخمد . . وهم مستعدون في أية لحظة لكي يأخذوا به . . وأضاف يقول لها : أنت يجب ألا تعيشي قريبا من أولادك . . لازم تبقى بعيدا عنهم حتى لا تشرينهم الحقد والإجرام ! ولذلك كانت المسكينة في خوف دائم عليهم من نقمة العلويين وهاجس مستمر أين ستخفيهم . . ولقد سلم الله لها إياهم وأتى اسماعيل فزارنا في دوما مع جده في العيد وقد بلغ سبع أو ثماني سنين ، وكان ما شاء الله ذكيا جدا . . وعندما أدخلناه ووضعنا لهم إفطارا وأردت أن أضع له عيديه بجيبه نظرت إلي داعم العينين وقال : - نحن في الخارج نستطيع أن نأتي بنقود ، ولكنكم لا تستطيعون وأنتم هنا أن تأتوا بشيء ! وأقسم ألا يأخذها أبدا !! مع الشيوعيات . . في فراش واحد !

كان عدد نزيلات مهجعنا قد وصل إلى قرابة الأربعة والعشرين حينما أصبحنا ذات يوم وحوالي 14 معتقلة من الشيوعيات على الباب . . ومدير السجن يأمرنا أن نستوعبهن معنا . . وأن تقسم كل سجينة من الإخوان الفراش مع أخرى شيوعية ! . كانت القادمات قد اعتقلن دفعة واحدة بعد انكشاف تنظيمهن وتورطه بالعمل المسلح ضد النظام . . وروت القادمات أنهن أتين من التحقيق العسكري بعد أن ذاقوا هناك العذاب الشديد شبابا وبنات معا ، وروبن أن الكثير من المعتقلين معهن أصيبوا بالشلل النصفى نتيجة تعذيبهم على الكرسي الذي يتسبب بعد طي الإنسان بداخله في كسر عموده الفقري . وعلى الرغم من

تعاطفنا مع كل سجين وترحبنا بكل قادم بغض النظر عن اتجاهه أو تنظيمه إلا أن التعايش مع الشيوعيات وقد قارب عددهن الثلاثين وصل إلى نقطة الإستحالة ! فأكثرهن لم يكن ابتداء متعاونات ولا يتورعن عن إظهار العداوة وعدم الإحترام . . ولم يكن

214

يبالين بالطهارة والنجاسة مثلنا ، ولا يعتنين بالنظافة مثلما نفعل ، وكنا حينما نستيقظ لنصلي في الليل لا نستطيع ذلك إلا إذا طوينا فرشتنا وفرشة التي بجانبنا حتى يتسع المكان للإثنين معا ، فصار ذلك غاية في الصعوبة وهن معنا على فراش واحد ! ولقد حاولنا تحملهن في الليالي الأولى فأعطينا إحداهن فراشا وبت أنا وماجدة في الفراش الاخر ، لكننا وبمرور الأيام لم نعد نحتمل ، وخاصة أن منهن شديديات الوساخة تفوح الرائحة السيئة منهن أنى التفتن أو تقلبن ! فاتفقنا معهن اخر الأمر أن نعطيهن قسما من المهجع يتقاسمنه فيما بينهن ونجتمع نحن على بعضنا في القسم الاخر . . فوافقن على ذلك وسررن له جدا ، لكن المشاكل كانت تندلى كل مساء حول الأمكنة والفرش التي تأخذ مكان فرش أخرى . . وكنت أنا وماجدة ننتظر إلى الأخير حتى تستقر الأمور وننال ولو جزءا من المكان ننام عليه ، وكثيرا ما كانت المشاكل تتصاعد فتقلب هذه فراش تلك أو ترمي لها أغراضها . . حتى تتدخل الشرطة ولا تنتهي المشكلة برغم ذلك !
(الخلية)!

واستمتعت الشيوعيات بالوضع الجديد ، وصرن يعقدن في هذه المنطقة اجتماعهن الذي يسمينه "الخلية" . . حتى ألقونا أيامها وصرعونا بماركس ولينين . . وأذكر أنني كنت مريضة مرة بحمى التيفوئيد وتصادف ذلك أثناء اجتماع خليتهن ، وكنت أتأوه من ألمي ولا أستطيع تحمله . . فأحسوا وكأنني أعطل عليهن الإجتماع . . فاقترحت إحداهن وكانت طيبة متخرجة اسمها تماضر العبد الله أن يعطوني مسكنا . . فوافقت البنات وذهبن إلى الممرض وأحضرن منه إبرة مسكن أخذتها تماضر وحقنتني بها في الوريد مرة واحدة وبشكل سريع ، فوجدتني خلال لحظات أفقد الإحساس بفكي ولا أستطيع تحريكه ولو بكلمة . . ثم غبت عن الوعي 215

و لم اعد احس بشيء فقامت كل البنات من قسمناعليهايشتمونها ويحقرونها وصاحت فيها الحاحه غاضبه

لم لم تقولى انك تريدن قتلها منا جل اجتماعكم الملعون ومع الايامازداد التوتر بيننا وبينهن يزيد فيه ضيق المكان وبؤس الحال وكثيرا ما كانت النقاشات معهن تتطور الى خناقه يختمها وهن يقلن لنا :
بكره ياخوان اذا استلمنا الحكم فسنعلق مشانقكم فى وسط دمشق
الحج اليومى

ولقد كان تعليق المشانق اهون ربما من الحياه الرتيبيه الممله بلا هدف ولاأمل ومع اذديادالأعداد ومجاورة الشيوعيات وكثرة التضييق والتشديد من إدارة السجن ومديره اذداد إحساسنا بنفاذ الصبر فدبت الفوضى واختلطت الأمور وصار اعتياديا قيام المشاحنات وسماع المشاجرات وكان الماء ينقطع أحيانا فلا يصل دور الحمام لواحد منا الا مره فى الشهر وأما الزيارات فكانت لاتمر دوما على خير فإما أن يمنعوا الزياره عن الجميع أو يؤخروا اللقاءات الى آخر الوقت وكثيرا ما كانوا يبالغون فى تفتيش الطعام حتى يفسدونه ويمدون أيديهم فيه ويقلبونه حتى تنفر منه النفوس
ولقد وصل الامر بنا الى شدة الضجر أن ابتكرنا فى الفتره الأخيره حجا نؤدى مناسكه كل يوم فاتخذنا من البركه وسط الباحه مااعتبرناه الكعبه وحددنا أماكن أخرى حولها للسعى وكنا نندفع كلنا بلا إستثناء صباح كل يوم فنطوف ونسعى ونلبى وفى إحدى المرات دخل

علينا عنصر من الشرطه ونحن بهذا الحال فسأل مستغربا 0 ما الذى يجرى فقالت له إحدانا
وكلنا منهمكات فالتلبيه والهروله والتلبيه والهروله
216
إننا نحج

فقال الرجل محولقا 0 يبدو والله أن نهايتكنجميعا فى مستشفى ابن سينا للمجانين 0
ريمى

وإذا كانت ذكريات دوما كباقي السجون التى نزلنا فيها محفوره فى القلب لا تنسى فإن
ريمى أحد معالم تلك المرحلة التى لا تغيب عن البال 0 وريمى فى الحقيقه قط أنيس أتى به
أهل إحدى القضايا لها وهو صغير جدا فاشتريناه فكان كأنما أرسله الله لنل رحمة وسلوى
فى هذا المكان الموحش وعدا عن متعة اللعب فيه والفرجه عليه والإستئناس بوجوده كان
ريمى غاية فى النظافه وفى الذكاء وكنا إذا أردنا غرضا من المهجع الثانى ربطنا له ورقه بما
نريد على رقبتة وأرسلناه فيذهب ويوصلها للمهجع الثانى ويعود بالطلب وكان أيام الزياره
يساعدنا فى نقل الأغرض من مكان استقبال الزولر الى المهجع ينقلها قطعه بعد أخرى
بغمه وكثيرا ما كان يوقظنا للتهجد إذا لم نستيقظ وينام عند أقدامنا فى الليل كالحارس
الأمين وذات مره حضر قائد شرطة دمشق للتفتيش على السجن فلمح ريمى بيننا فثارت
تأثيرته لأن الحيوانات ممنوعه فى هذا المكان ونادى أحد العناصر وقال له تضعه فى كيس
وتأخذه فترميه خارج دمشق فنفذ الشرطى الأمر وذهب بريمى ونحن فى حزن عليه ولوعه
وكاننا فقدنا أبا أو قريبا لكننا وبعد ثلاثة أيام وحسب وجدناه وقت الضحى يعود متسللا الي
المهجع وقد اتسخ جلده وساءت حالته فلما رأيناه عمت الفرجه وركضت البنات نحوه وكانما
هو أهمهم وأبوهم وبعد خروجنا عادت واحده منهن الى دوما خصيصا وأخذته معها الى حلب
217

الفصل السادس
الفرج 00 والإفراج

ديسمبر 1989

مرت قرابة أربع سنين أخرى انسلخت من أعمارنا دون أن نحس لهن يمعنى أوأثر . . وحل
الشتاء من جديد في دوما ونحن لا نكاد نميز بين فصل وفصل أو عام وآخر . . وبيننا نحن في
حياتنا الرتيبة الخامدة كسر حاجز الصمت ذات يوم من أيام أكتوبر الباردة عام 89 نداء مناد
على عزيزة جلود وغزوة ك . . أن تجمعا حاجياتهما وتستعدان للمغادرة . إلى أين . . ولماذا ؟
وما الذى حصل ؟ لم يجبنا أحد . . فظننا أن تحقيقا جديدا قد فتح أو محكمة ميدانية عادت
للعمل وأنهما عائدتان إلينا خلال أيام . . لكن أسبوعا مر دون خبر . . ولم يلبث المنادي أن
نادى من جديد على أم حسان وابنتيها سلوى ويسرى . . ومضت بهما سيارة المخابرات ولم
تعد أخبارهم تصل إلينا مثل من سبق . .
حلم وبشاره!

كنت في تلك السنوات التى انقضت لا أنفك أرى أمي فى المنام حاملا باستمرار وقد حان
موعد ولادتها وأتاها الطلق ولا تلد . . لكنني وفي ليلتي تلك رأيتها رحمها الله تطلق ثم تلد . .
فلما رويت الرؤيا للحاجة استبشرت بدنو الفرج . . وكان ما قالته سبحانه الله . . إذ لم يلبث
مدير السجن أن حضر إلى المهجع فى الصباح وقرأ أسماء حوالي 12 منا : أنا وماجدة وأم
ياسر ولما ورغداء ومنتهى وهالة ونجوى والحاجتين . . وأتبع قراءة الأسماء بكلمة واحدة :
إفراج ! لكننا ومن كثرة ما كان يفعل ذلك دائما ويعدنا بالعفو وبالخروج ولا يحدث شيء
بعدها لم نتحرك من أماكننا . . وأذكر أنني كنت وماجدة جالستين على طرف البركة نقرأ
القران حينما حضر من
ص 221

جديد وهو يصيح فينا : - قوموا بقا . . تحركوا . لكننا لم نحرك ساكنا وقلنا له : - يكفي كذبا علينا . . لا نحتاج هذا المزيد من الكذب ! لكنه أقسم أنه صادق اليوم . . وأرانا قائمة الأسماء مطبوعة في قرار رسمي . . ورغم ذلك فلم نغير من جليستنا ونحن لا نزال نظنه كاذبا . . فقال لنا بانفعال : - سأدخل لكم دورية املخبارات التي أتت لتأخذكم حتى تصدقوني . فثما رأيناهم بالفعل وتحققنا من جدية الخبر هذه المرة انفجرنا بالتكبير الذي اختلطت الزغاريد فيه مع الدموع والنحيب وفرقة القبلات ! وتنشطنا جميعا وقمنا نجمع أغراضنا مثلما اتفق . وأذكر أنني وماجدة جمعنا كل أغراضنا في كيس كبير بلا وعي وسحبناه وراءنا ، فكانت الأشياء تتساقط منه ولا نبالي . . ولا نكاد نستوعب ما يجري ونحن بين التصديق والتكذيب . . وقام السجن كله على سماع الخبر ولم يقعد ، وخرجت كل السجناء القضائيات يهنئنا وينادين : - خرجت السياسيات . . وتقدم منا رجال الشرطة وموظفو السجن الطيبون هذا يسألنا عن صحة النبأ . . وذاك يهنؤنا بحرارة ودموعه تجري من الفرحة كالنساء . . ساعة لا يستطيع المرء أن يصف شعوره فيها . . وكأنني لم أعد بوعبي . . ولم أعد أذكر حتى كيف خرجنا إلى السيارة . . أو ماذا كان شكلها . . أو كيف تسلسلت الأحداث . . لكنني لا أنسى كيف لحق بنا القط "ريمي" يبكي والله وتنهمر دموعه وكأنه إنسان ! وأركبونا السيارة في النهاية لنجد أنفسنا أمام بوابة فرع التحقيق العسكري ونحن أشبه ما نكون نسبح في حلم غريب !

222

نحن هنا !

من بوابة الفرع إلى غرفة الإستعلامات قادنا العناصر ونحن لا نزال مكبلين حتى نسلم أماناتنا ونملأ بيانات القدوم ، ثم أنزلونا إلى القبو عبر الدرج المقيت نفسه ، ووضعونا في مهجع واحد في القسم الشمالي هذه المرة ، وبينما كنا نعبر الممر سمعت البنات اللاتي سبقنا أصواتنا كما يبدو فصرن يضربن على الباب ويقلن لنا : - نحن هنا . وقتها لم نعد نأبه بالعناصر الذين كانوا يصيحون فيهن وفينا لنسكت . . وأخذنا نتبادل عبارات الترحيب والشوق والتبريك . . ووجدنا أنفسنا أخيرا في مهجعنا الجديد أربعة عشر سجينة نكاد لا نجد مكانا للنفس . . فقررنا الباب وقلنا لهم ذلك ، فأجابنا العنصر : - هذا المهجع الذي تقولون أنه لا يتسع لكن كان اتسع قبلكن لاثنين وتسعين شخصا من الشباب ! وكنا لما رفعنا رؤوسنا نستطلع المكان لمحنا في سقف المهجع رغم ارتفاعه الشاهق رسما لمسجد كما اعتاد سجناء الإخوان أن يفعلوا وتحتته اسم شخص ما . . واستغرنا وقتها كيف وصل هذا الشخص إلى أعلى وتمكن من رسمه . . فلما أجابنا جوابه ذاك الذي تقشعر له الأبدان قالت له الحاجة مديحة : - الآن فهمنا خيو . . معنى ذلك أنهم كانوا وصلوا إلى السقف فوق بعضهم البعض !

مزاج فقط !

مرت الليلة الأولى والثانية . . والثالثة ونحن نبئت وراء الباب جميعا ننتظر الإفراج كل لحظة ونظنه بات قاب قوسين أو أدنى . . فلما لم نئل إلا السراب وعدنا تتقلب بين التسويف والتجاهل خبت فرحتنا من جديد اين

223

وانتكست آمالنا . . وعادت رتبة نظام السجن تلفنا مرة أخرى زاد عليها أننا عدنا إلى أيدي المخابرات مباشرة وخضعنا من جديد لأجواء الرعب والإرهاب . كانت أيامنا في التحقيق العسكري كما فهمنا لاحقا أقرب ما تكون إلى فترة تأديب . . عاملونا فيها بقسوة بالغة ، وضيقوا فيها علينا أشد مما كان التصييق حتى أيام كفرسوسة . . فالطعام أقل مما يكفي لنصف عددنا ، والزنزانية مقللة الأبواب فلا تغادرها إلا للتنفس حسبما يقتضي مزاج العنصر وقتذاك : عشر دقائق أو ربع الساعة في اليوم وحسب ، نمضيها في باحة داخلية ضيقة

تحيطها الجدران المرتفعة من كل الإتجاهات ، لكن الجوع والقلق والأبواب المغلقة لم تكن لتفعل فيما ما تفعله صيحات الإستغاثة وصراخ المعذبين من حولنا . فعندما يحين وقت تنفس الشباب كانوا يخرجونهم راكضين لا ينتعلون في أرجلهم رغم شدة البرد شيئا . . يهرولون حفايا تتبعهم الكرابيج والكابلات وكانهم قطع غنم ! ومن شدة اصفرارهم كنا نحس وكأن شعلة ضوء تخرج من كل فرد منهم . . ولا أزال أذكر أن أحد السجناء تأخر في إحدى المرات داخل الحمام بضع ثوان . . وكان بابه مجاورا لباب سجننا ، فأخرجه العنصر المكلف بمراقبته وصار يعذبه عذابا أسوأ من عذاب العبيد . . فبعد اللسعات التقليدية بالكابل جعل هذا العنصر يأمره ونحن نسمع ما يدور ويقول له :

إحمل الشحاطة بعمك . فيمثل المسكين لاحيلة له ويحملها . . فيقول له ثانية : - إزحف بها إلى التواليت . . والتواليت هناك يقرف الواحد من الإقتراب أو النظر إليه . . لكن هذا المجرم كان يقوده والشحاطة في فمه إلى هناك فيطمس له رأسه في الحفرة ثم يخرج ، ويعود بعدها فيأمره أن يحمل الشحاطة ثانية بغمه . . ليعود ويسوقه في اتجاه آخر وهو لا يكف عن لسعه وسلخه بالكابل . . وذاك

224

يصيح ويستغيث وليس من مجيب . . وعندما فاض بنا الصبر دقت الحاجة الباب وهي تصيح فيه : - هل أنتم يهود ؟ ألا توجد رحمة في قلوبكم ؟ وجعلنا ننادي جميعا ونقول له : - منشان الله إذا ما بدك ترحمه إرحمنا نحن وخذوه إلى مكان آخر عذبه فيه ! فقال السفیه وظل ابتسامته الساخرة يتراءى لنا من وراء باب الحديد : - ليش شوفي ؟ نحن نمزح مع بعضنا فقط ! . وفي مرة أخرى كانوا يوزعون الطعام ، وهناك في فرع التحقيق العسكري كانت الطاقة أسفل باب المهجع ، فكان أحد السجناء يحمل الطعام ويضعه عند الطاقة ثم يأتي العنصر من ورائه فيفتح الطاقة لنسحب القصعه . . وذات يوم سألتنا عزيزة أن نحاول السؤال عن بيت أهل زوجها إن كانوا معنا في نفس السجن . . فلما جاء السجن وكان دوري يومها دفعت الطاقة فوجدتها مفتوحة ، فمددت رأسي وسألته : - هل سمعت بيت اليوسف ؟ فقال لي : نعم . . أتوا بهم جميعا إلى المهجع الجنوبي . . ولم يكد المسكين يتم جملته حتى كان العنصر وراءه ، فأمسكه وسحبه وبدأ يضربه ويعذبه على باب مهجعنا وذاك يصيح ويستغيث : - لم يكن ذنبي . . هي التي كلمتني . . ولم أرد عليها . . وقامت الحاجة فصاحت عليه وقالت له لعله يغفل عنه قليلا : - فعلا لم يكن ذنبه . . هذه مقروفة العمر سألته عن الطعام فقط . . لكنه لم يتوقف أو يلتفت إليها . . ومضى يتابع الضرب والتعذيب حتى شبع ! 225

الرئيس ما كان له خبر !

ومرت أيام آخر . . وبدأت ملامح أكثر جدية تتبدى عن اقتراب أيام الفرج والإفراج . . فبدأوا يخرجوننا إلى المكاتب في القبو نفسه ويعطوننا استمارات لنملأها بمعلومات مفصلة عن تاريخ حياتنا . . وصورونا مرات عديدة بأوضاع واتجاهات مختلفة ونحن نمسك بأيدينا لوحة الأرقام . . وبعد 15 يوما تقريبا أبلغونا عن صدور العفو بشكل رسمي . وقتها سألت الحاجة مديحة رئيس الدفعة وقتها : - خيو . . و ليش تذكرتونا الآن بعد كل هذه السنين . . ما هي ا لمناسبة ؟ فقال لها : والله الرئيس ما كان له خبركم . قالت له : يعني الآن وصله خبرنا ؟ قال لها : نعم . قالت : بالله عليك مض علينا تسع سنين وماله خبر ! قال : إي والله . . والله يا حاجة لو له خبركم من زمن كان طالعكم . . لكن من أول ما دري قال طالعوهن ! فقالت له الحاجة : وما الذي يمنعكم من إخراجنا إذا ! فأخبرها أن سورية الآن حزينة تضامنا مع لبنان الذي قتل رئيسيه رينيه معوض قبل أيام . . وقد صدر الأمر لذلك بتنكيس الأعلام وإغلاق الدوائر الرسمية لهذه المناسبة . . وبالفعل فقد بقينا في الإنتظار أسبوعين أو ثلاثة

آخر . . وخلال ذلك أخرجونا مرتين إلى لجنة شكلوها من أجل إبلاغنا النبأ وتوديعنا بما يليق كانت برئاسة العميد حسن الخليل ومعه كمال يوسف رئيس الفرع وضباط آخرون . . فلما حان دوري قابلني كمال يوسف وأنا مثل الأخرىات معصوبة العينين وقال لي : - لا تظني أننا أخرجناك وتأخدي راحتك . . أنا من أهلك حاطط لك مخبرات . 226

قلت له : وحتى . . أنا أصلا لم أعمل شيئا . . فقام يشتمني بكلام قبيح ويقول لي أنني مجرمة ولا زلت أنكر . . وقال لي أيضا أن علي الإبلاغ عن أي شخص مطلوب يتصل بي أو حتى أراه . . وكذلك قسى على عزيزة جلود وحدثها عن أولادها ما سبق وذكرته . . وقال لأمل : - شو إلك بالقصر مباح العصر وجاية لتطلعي ! وكانت كل مهمة اللجنة أن تؤكد لنا أننا لا نستاهل الطلعة ، وإنما لا نزال في دائرة الإدانة . . ولكن كرم الرئيس وعفوه وحده هو الذي أخرجنا !

تأهيل أم تجميل !

وضمن مظاهر الكرم الحاتمي الذي تدفق علينا من أصحاب الفضل . . جلادينا المحترمين أنهم بدأوا قبيل الإفراج عنا بما يمكن تسميته تأهيدا لسمية ابنة سلوى التي ولدت في تدمر وترعرعت بين سجون حمص وقطنا ودوما . . وحلت آخر الأمر في العسكري وقد بلغت سن المدرسة ، ولكنها تبدو لمن يراها لا تزال في سنوات عمرها الأولى من الهزال . . ولربما أصابت الرعدة ناظرها لأول مرة من شدة ضعفها واصفرار وجهها . . وتحاشيا لمزيد من الأدلة اليقينية على جرائم النظام ، وحتى لا تخرج هذه البنت إلى المجتمع فيراها الرائج والغادي بهذه الصورة فيسألوا ويعرفوا عن الفاجعة كان برنامج التأهيل هذا . . فكانوا يأخذونها وأمها كل يوم إلى باحة الفرع خارج القبو ويتركونها تتعرف على العالم من حولها ، ويقدمون لها طعاما إضافيا وحلوى وألعايا تستعيد بهم بعضا من طفولتها السلبية . . وفي يوم من الأيام حضر رئيس الفرع وهي هناك فوقفت سيارته ونزل السائق ففتح له الباب وتناول الحقبة منه وتبعه بعدما نزل إلى مكتبه . . فلما لمح سمية قبل أن يدخل ناداها وأدخلها معه وجعل يداعبها ويتحدث معها ، فلما عادت من عنده قالت لأمها : 227

- ماما أنا غدا عندما أكبر أريد أن أصبح عقيد ! فسألته سلوى : ولماذا ؟ قالت لها : حتى تكون عندي سيارة وشوفير أي شوفير - يسوق لي السيارة ويحمل لي سنتايتي - سنتايتي - ويدخلني إلى غرفتي مثل غرفة هذا العقيد كمال ! ولما سألتها : كيف مثل غرفته ؟ قالت سمية : يعني فيها سجاد ممدود بالأرض وأضواء وأشياء حلوة ما في منها عندنا ! وكانت سمية تقليدا للسجناء قد كتبت اسمها على الجدار للذكرى . . ولكم كان مؤثرا أن يقرأ المرء ما كتبت هذه الطفلة البريئة تحته تقول : أنا من مواليد تدمر . . سكنت في سجن كذا . . وسجن كذا . . وكذا . . مسجلة كل اسم وتاريخ كل سجن تنقلت مع والدتها إليه !

المقدم المخمور ! وكان رئيس الفرع كمال اليوسف على عنجهيته وتجبره يتصرف إذا جن الليل وحان موعد الكاس والطاس أسفه من الأطفال ! وكثيرا ما كان يرسل وراء غزوة فيأمرها بالجلوس في مكتبه ويمضي يحدثها وهو في نصف وعيه يهدر بما لا يقيم أي معنى . . أو ينزل بنفسه إلى القبو فيقف على طاقة المهجع ويناديها لتتكلم معه . . فكانت المسكينة تمتنع أكثر الأحيان ولا تستجيب . . وأذكر أننا كنا نياما مرة وقد جاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . . فما وجدنا إلا وطاقة الباب قد فتحت وأطل أحد ما برأسه علينا ، وكانت العادة التي جرت أن يدق أولا لنضع على رؤوسنا ، لكن هذا الطارق المجهول فتح الطاقة على حين غرة وأطل يحملق فينا بعينين محمرتين كالدم ، فما وجدنا أنفسنا ألا ونحن ناداي بصوت واحد : 228

- الله لا يعطيك العافية . . ومنا من بصقت بوجهة ومنا من صاحت فيه : -أغلق الطاقة وانقلع . . من سمح لك . . يا قليل الأدب . . يا قليل الذوق . . فقام من المفاجأة بشكل غير إرادي وسحب نفسه قليلا ، ثم كأنما تذكر أنه هو رئيس الفرع فمد رأسه وقال : - من هذه

قليلة الأدب التي ترفع صوتها . . لكنه وبسبب لهجته المثقلة من السكرلم نعرفه . . وعدنا فسحبنا باب الطاقة وأغلقناه في وجهه . . وفي الصباح خرجت الحاجة تقول للعنصر : - خيو . . نريد أن نقدم طلبا لرئيس الفرع . قال لها : بأية مناسبة ؟ قالت : هناك عنصر قليل الأدب فتح الطاقة علينا بالأمس ومد رأسه . سالها : أية ساعة . فلما أجابته قال لها : - دعني أقول لك شيئا . . لا تتكلمي بما حصل لأن الذي تتحدثين عنه كان رئيس الفرع نفسه ! فشبهت الحاجة وقالت : الله يلعنه ! وعلمنا من البنات في التنفس بعدها أنه بعدما غادرنا أمضى الليلة على باب المهجع الثاني يحاول محادثة غزوة والمسكينة مقطوعة من الرعب لا تدري كيف تتهرب منه !

مد . . وجزر !

ومضت الأيام ونحن كأنما نتقلب على السفود . . حتى دنت وأخر ديسمبر فأتوا صباح يوم منه وقرأوا أسماءنا جميعا وقالوا جهزوا أنفسكم . . تجهزنا أسرع من البرق ، ودبت الفرحة من جديد . . لكن النهار مضى ولم يحدث شيء . . قرعنا الباب وسألناهم 229 - ماذا جرى ؟ فقالوا من غير أن يذكرنا السبب : تأجلت للغد . . وفي الصباح التالي حضروا ونادوا أم حسان وابنتيها سلوى ويسرى ومعهم سمية ، وكانوا قد جمعوهن معنا عند وصولنا لضيق المهجع الذي كانوا فيه ، فلما خرجن لم يذكرنا لهن عن الإفراج شيئا . . وطننا أنهن ستنقلن إلى المهجع الآخر من جديد ، لكننا لما سألنا عنهن بعدها . . قالوا لنا : خرجوا . فقلنا لأنفسنا إذا هؤلاء اللاتي صدر العفو عنهن وخرجن ، وأما نحن فقد فاتنا القطار! وقطعنا الأمل وعدنا للتشاؤم . . وجعلت عزيزة تبكي سبحان الله و تقول : أن قلبي يحسبني أنني لن أخرج معكن . . وسترون ! وبالفعل خرجنا نحن وبقيت المسكينة من غير ذنب ولا سبب سنتين تاليتين بعدنا . وبعد يومين نادوا على غزوة من المهجع الثاني وحدها وأطلقوا سراحها . . وأخيرا ونحن نصارع الهواجس ونتقلب بين المد والجزر أتوا صباح الرايم والعشرين من ديسمبر وأبلغونا أن ساعة الإفراج قد حانت هذه المرة . . وأخرجونا ونحن بين مصدق ومكذب لتسلم الأمانات وملء الإستمارات . . لكننا لم نكد نغادر المهجع حتى تراجعوا وقالوا أن الأمر تأجل للمساء ! وعادوا فكرروا نفس الأمر في الليل ، فأخرجونا إلى غرفة الأمانات وأوقفونا في طابور طويل . . وبينما نحن ننتظر على أعصابنا طفح الكيل بأمل فمالت على بنت بجانبها وقالت لها : - والله كأننا واقفين بانتظار بطاقات التمويل في المؤسسة ! فالتقط أحد العناصر العبارة واهتبلها فرصة فقال للمقدم عمر : - سيدي . . أسمع ما تقوله ؟ فسأله ذاك : ماذا قالت ؟ قال : سيدي هؤلاء لا يتوبون . . وبقون يتحدثون في السياسة

230

ونقل له العبارة مثلما يحلو له . . فجاء المقدم وكأنما لسعته أفعى يرغي بالشتائم ويزيد وهو يصيح : - والله أنتو ما لازم تخرجو . . لازم تنقبروا هون حتى الموت . . حتى إذا أكمل قاموس الشتائم التي يحفظها عن ظهر قلب وتسلمنا آخر الأمر أماناتنا وملأنا كل الإستمارات ووقعناها قالوا لنا بأن الأمر تأجل إلى صباح الغد بسبب الضباب . . وأعادونا إلى المهجع الثاني الذي كانت البنات فيه ، فتكومنا كلنا وراء الباب مترقيات متحفزات لا نستطيع النوم . . وعدنا إلى التشاؤم من جديد ، وتذكرنا كيف وعدوا الشباب بالإفراج في كفر سوسة ثم نقلوهم إلى تدمر! وبقينا طوال الليل نستسلم لهذه المشاعر المرة حيناً . . وحيناً لمداغيات الأمل ولمحاته اللذيذة والتفكير فيما يمكن أن نفعله إذا خرجنا . . لكنني كنت واقع الأمر أحس نفسي عاجزة عن تصور ما الذي يمكن أن أفعله إذا خرجت . . وكان العقل لدي قد توقف قبل هذه المرحلة وما عاد يستطيع استيعاب معنى الخروج أو إلى أين يمكن أن يكون . . كانت البعض تقلن : أنا سأعود لأكمل دراستي . . أو إلى وظيفتي من جديد . . ومنهن من كانت تقسم أنها لن تعود إلى الوظيفة الحكومية أبداً . . وستمضي العمر بين الأهل والأحباب . . وأما أنا فلم أعد أستطيع حتى أن أفكر في هذا الإتجاه . . وأراه حتى

اللحظة شيئاً مقطوعاً منه الأمل ولا يتصوره العقل . . . ذاك الذي كان بيننا وبين أن نبلغه مجرد مطلع الفجر!

حتى مطلع الفجر!

وإذا كانت ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ديسمبر تلك ليلة لا تنسى فإن مما لا ينسى فيها أولئك الشباب السجناء الذين أحيوا الليلة معنا في مهجعهم المقابل يتلون القرآن والتسايح والأذكار وقد بلغهم قرب الإفراج عنا على نية الفرج والتسهيل ، وكنا نتلمس من إشارات منهم أنهم يعيشون همنا ومشغولون بنا أكثر من أنفسهم . . . وعلى الرغم من الخاطرة البالغة فقد استمروا يجهرون بالتلاوة والدعاء ليلغنا في ظلمة

231

الليل فكأنما هو النور يتنزل من السماء . . . وسلمهم الله من الحرس فاستمروا في دأب ونشاط حتى مطلع الفجر . ودنا الفجر وكنا كلنا ميتات من التعب والنعاس والجوع . . . لكن ترقب الإفراج كان يغلب كل الأحاسيس والمعاني والمعاناة الأخرى . . . فجعلنا نطرق الباب مرة بعد مرة نسأل الحرس ما الذي حصل . . . ومضى سيفتح هذا الباب بيننا وبين الحرية من غير رجعة . . . حتى فاض الصبر بالعنصر فقال لنا آخر الأمر : - توقفوا عن الطرق . . . عندما نريد أن نخرجكم فسنتفح لكن الباب ونقول لكن اخرجوا . . . فلما فتحوا الباب وقالوها كنا كالموج المختزن خلف سد تفجرت بوابته . . . واندفعنا فوق بعضنا البعض وكأننا خائفات أن يغلقوه علينا من جديد . . . ولما تجمعنا في الممر وقد تثبتت عيوننا على الباب بين القبو وساحة السجن في الأعلى قرأوا أسماءنا جميعاً ، ووجدناهم قد أخذوا الحاجتين مديحة ورياض ومعهما نجوى وسلسبيلة إلى المهجع الثاني دون أن نعلم لماذا ، وهناك أخبروهم بأن دورهم في الإفراج لم يحن بعد فكذبنا أن يمتن بأرضهن . . . وأصببت الحاجة رياض بما يشبه الإنهيار العصبي وقد كانت تظن أنها ستكون أول الخارجات . . . وأما نحن الذين بقينا أربعة عشر امرأة - سبع من حلب وسبع أخريات من حماة - فأخرجونا وقتها إلى باحة الفرع والشمس لا تزال تتسلق السماء في أول إشراقها . . . فكنا ونحن نعبر من العتمة إلى الضوء مهلهلات الثياب صفر الوجوه كالخارجات من القبر إلى دنيا الناس بعد غياب ! ولم تتمالك أنفسنا جميعاً فوقفنا كلنا نتأمل الشروق الدافئ ونتلو الشهادات وقد انفجرت بعضنا في البكاء ، فنظر رئيس الدورية إلينا مستغرباً وقال : - ماذا هناك ؟ لماذا وقفتم كلكنم ؟ فقالت له أم زهير : بعد تسع سنين هذه أول مرة نرى فيها الشمس وقت شروقها . . . ماذا تريدنا أن نفعل

232

وسرعان ما وجدناه أحضر الكلبشات وعاد ، فسألناه وقد غاصت قلوبنا بين الضلوع من جديد : - لم هذه الكلبشات ؟ قال : هذا القانون . . . لازم تتكلبشوا حتى تقطعوا ضواحي دمشق . كمدنا مرة أخرى بعد شعور الفرج الذي لا يوصف . . . وبدأنا تراودنا المخاوف مجدداً من أنهم سينقلوننا إلى سجن آخر وحسب . . . لكن الأحداث مضت متسارعة . . . فتلوا أسماءنا مرة أخرى . . . وتحققوا من عددنا وشخصياتنا ، ثم أصدونا إلى "الميكرو" ونحن مكبلات . . . وصعد معنا ثلاثة عناصر من المخابرات جلس اثنان منهم في الأمام وأخذ الثالث مكانه عند الباب في الخلف . وعندما تحركنا سالمات ماجدة أقرب العناصر إليها إن كنا خارجات إلى بيوتنا بالفعل أم أنه مجرد نقل من مكان إلى آخر . . . فطمأنها وأكد لها أنه إفراج حقيقي . . . فساكتة وهي تستحلفه : - قل لي . . . هناك طلعة للشباب ؟ قال لها : والله لا أعرف . لكنها ظلت تلح عليه حتى قال لها : نعم هناك أمل ولكن ليس الآن . . . لكنهم أخرجوكم أولاً ليتخلصوا من همكم !

تهاني العام الجديد !

ومض الباص بنا نريده أن يطير أسرع من السحاب ويبلغنا بيوتنا للتو . . لكننا كنا في نفس الوقت وكأنا ن فكر بعقل واحد في الأتي المجهول : كيف سنفترق اليوم ونصحو في الغد بعيدين عن بعضنا البعض بعد تسع سنوات من صحبة العسر واليسر؟ إلى أين سنذهب . . ومن سنلتقي . . وماذا عمن مات أو قتل . . ماذا عن حماة التي تهدمت . . والأحياء التي سويت بالأرض . . والأحباب الذين وارا هم الثرى وقد كانوا بهجة العمر كله ! وظلت دوامة التساؤلات تعصف بنا حتى بلغنا مشارف حماة وفكوا لنا الكلبشات من أيدينا وقالوا للحمويات أن يستعددن

233

للمغادرة . . فالركب سيكمل بالبقية إلى حلب . وجعلنا نقبل الحليبات ويقبلتنا ويستسمح بعضنا البعض وتتواصى بالزيارة القريبة والإتصال المستمر . . وتوقف الباص أخيرا أمام فرع الأمن العسكري على مشارف المدينة ، وتخطى السائق البوابة ونزل رئيس الدورية التي رافقتنا فتبادل بعض الكلمات مع مسؤولي الفرع قبل أن يأمرنا بالنزول . . وعاد وبقية العناصر معه إلى الباص وهم يهنؤونا على الإفراج ويقولون وهم يتسمون : -الحمدلله خلصنا منكم ومن نكمم . . كل عام . . وأنتم بخير!

وذهب الركب باتجاه حلب . . ووجدنا عناصر أخرى تستقبلنا هناك بلا اكرتاث . . ولم نلبث أن طرق أسماعنا عبارات التهئة بالعام الجديد يتبادلونها بينهم . . فتذكرنا أن رأس السنة على الأبواب . . ولكننا لم ندرك أننا ينبغي لذلك أن نتنظر مزيدا من الوقت ليحضر رئيس الفرع من مراسم التعييد ! وفي غرفة من غرف الفرع الباردة تكومنا واحدة تلو الأخرى ليست لنا من حيلة إلا الإنتظار . . وبعد ساعات كنا لا نملك إلا التحديق بوجوه بعضنا البعض وارسال الزفرات حضر أحد العناصر وسأل كل واحدة أن تعطيه رقم هاتف ولي أمرها الذي تريد أن يستلمها .؟. وكان الأهالي قد سمعوا قبل أيام عن نبأ الإفراج فذهب الآباء إلى دوما أولا ليسألوا فقال لهم المقدم هناك بأننا نقلنا إلى سجن(عدرا) ! فلما ذهبوا هناك لم يجدوا عنا أي خبر . . ولم يعودوا يعرفوا عنا أي شيء . فلما اتصلوا بهم بدأوا يتوافدون على باب الفرع بين مصدق ومكذب . . واجتمع أكثر آباء البنات واخوانهن وأنا لم يحضر لاستلامي أحد ! وعندما حضر العنصر وسالني عن هاتف ولي أمري لم أدر بم أجيب . . ولم أجد شيئا أعطيه أو اسما من الأحياء أذكره ! وكانوا قد اتصلوا بوالد ماجدة وقالوا له مثلما قالوا للآخرين

234

تعال واستلم ابنتك . . فظننا مداعبة من أحد ما وأقفل الخط ! فذهبوا إلى البيت وأحضره بأنفسهم وهو لا يزال يظن الأمر لعبة . . فلما رآها بعينه كاد أن يغمشى عليه . . وأخذ وهو يحتضنها ينظرإلي ويبكي وهو يتمتم : - وأنت من الذي سيأتي ويأخذك ! فلما عاد العنصر يسالنيوقد كاد ينفص الجميع - مع من أريد الذهاب ، قلت مع أبي ماجدة . وأثناء ذلك حضر شقيق واحدة أخرى من البنات وعرض أن يصحيني برفقتها . . فلما اخترت والد ماجدة اتصل ذاك بيت عمي بعدما أخرج رقمهم من الدليل ، لكن عمي وزوجته كانا في حمص وبقيت خالة الأولاد معهم في البيت ، فلما أبلغها بالنبأ اتصلت بخالي هناك وأخبرتهم أن شخصا اتصل وقال بأن هبة طلعت وذهبوا لتأخذوها . فقالت لها عمتي : - يكفي كذبا وإذا اتصل ثانية أغلقي الخط بوجهه ! فاتصل مرة ثانية وقال لها : - هبة عند بيت رفيقتها ماجدة . اذهبوا وأتوا بها . فأعطته رقم حمص ليحدثهم مباشرة ، فلما اتصل بسألته عمتي : - من حضرتك ؟ قال : فاعل خير. فخافوا من ذلك وارتابوا . . لكنها وبعدما أقفلت الخط رأت أن تتصل بيت أهل ماجدة فتأكد لها الخبر ، لكنها ولما طلبت أن تتكلم معي حتى تصدق ونادوني لأحدثها وجددني وكأنما نسيت كيف يكون الحديث على التلفون ! ولم تكذ تسمع

صوتي حتى وجدتها حضرت أسرع مما أتخيل ! ودخلت فاحتضنتني ورجعت تقبلني وأنا جامدة مكاني وكأنني لم أعد أميز بين الفرح والحزن ! اختلط الشعوران عندي فلم أعد أعرف ماذا أفعل أو

235

الى أين ينبغي أن أذهب ! وكان أهل الحي قد اجتمعوا رجالا ونساء وأطفالا يهتفون بسلامتنا وباركون لنا . . لكن ظلال التوجس كانت بادية على الوجوه وهم يحملقون فينا ولا يزيدون على أن يحمدوا الله . واقتادتنى عمتي من يدي . . وأم ماجدة من ورائنا ترقبنا دامعة العينين وقد أرادتني أن أبيت عندهم الليلة . . وكنت أود ذلك أيضا وأحسها بمنزلة أمي رحمها الله . . وكانت قد رأتنى قبل يوم في نومها أنني أرسلت لها بطاقة عليها رسم المسجد الأقصى وكتبت لها تحتها : (سبحان الذي أسرى بعبد له ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) فتفاءلت بذلك وذهبت للشيخ ففسر لها المنام وبشرها بقرب فك أسرنا . . وكان ذلك في اليوم الثاني بالفعل ..

ظلال الفاجعة!

وفي تلك الليلة الباردة أواخر عام 89 ولجت سيارة عمتي وقد قاربت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . . وتكورت على نفسي أتقي البرد القارس والقادم المجهول . . وبينما كانت السيارة تعبر بنا المدينة من طرف إلى طرف ، كانت المشاهد أمامي تنطق بالوحشة أنني اتجهت . . فالدمار الذي مضت عليه سبع سنوات لا تزال ظلاله تنطق بالفاجعة . . والشوارع المقفرة تحكي حال القلوب المقفرة . . والنواعير التي طالما حركت بأينها شجى القلوب أراها جامدة خامدة . . وقد جف من تحتها العاصي وتيبست حولها الأشجار والحقول . كان كل شيء عهدته في المدينة قد تغير ، وماتت على شفاه المشاهد هيئة الحياة . . وحدها سيارات المخابرات لم تتغير برغم السنين . . ها هي ذي تحتل مفارق الطرقات أو تطل مقدماتها من بين الأزقة تترصد الساعة ربما أحلام النائمين !

236

وقتها ارتد بي البصر إلى دمشق عام 85 وعدت بالذاكرة إلى ليلة رأس السنة في بيتنا بالبرامكة قبل تسع سنوات بالتحديد . . ليلة أن اصطفت سيارات المخابرات على طول الشارع في منتصف الليل . . وسألني رئيسهم أن أذهب معه خمس دقائق وحسب ، فانتزعوني من الحياة تسع سنوات كاملات . . دون أن أعرف سببا لذلك إلى اليوم !